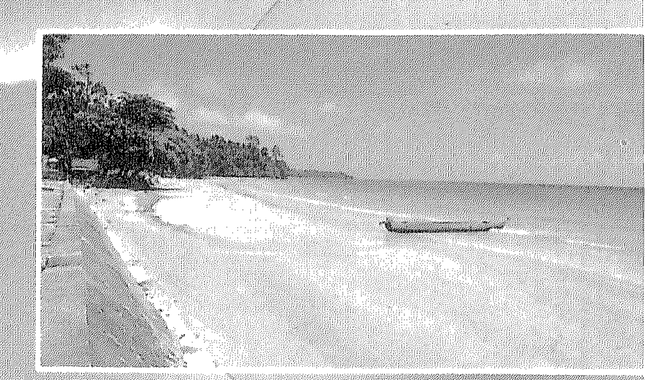
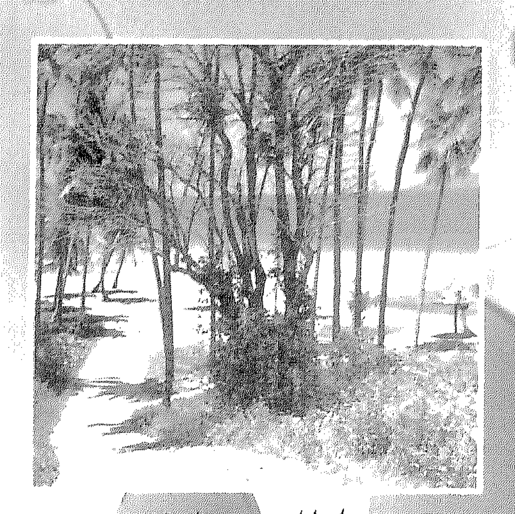
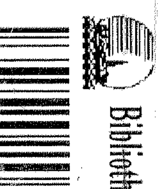
صور من الشرق

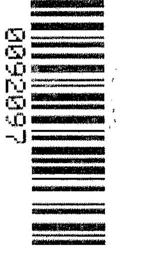
في أندونيسيا

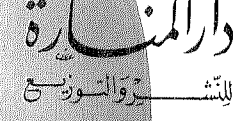
علي الطنطاوي











دار المنارة
للنشر والتوزيع





صور من الشرق

في أندونسيا

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار المنارة
للنشر والتوزيع
جدة - السعودية
جدة: ٢١٤٣١، ص.ب: ١٢٥٠ - هاتف الإدارة: ٦٦٠٣٦٥٢
هاتف وفاكس: ٦٦٠٢٣٨ - هاتف المعرض: ٦٦٧٥٨٦٤



في أندونسيا

تأليف

علي الطنطاوي

نشر وتوزيع

دار المنارة

جدة - السعودية


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

لقد كان هذا الكتاب رحلة إلى إندونيسيا، وصفتُ فيها بعض ما رأيت، ورويتُ فيها بعض ما سمعت، فصار كتاب تاريخ أُسجل فيه صفحة من حياة إندونيسيا، ومرحلة من تاريخها، وإذا كان من الأحياء مَنْ تحبه ومن تكرهه، ومن الأمم من تعجب به وتكبره، ومن تنكر حاله وتحقره، فإن من مضوا ذهبوا بحسناتهم وسيئاتهم، وانقطع بيننا وبينهم حبل الحب والكره، وصاروا أحاديث، ذهبوا بما لهم وما عليهم، وصار حسابهم على ربهم. لقد مر على الطبعة الأولى من هذا الكتاب أقل من أربعين سنة في حساب التقويم، ولكنها في ميزان الأحداث مئتا سنة، لقد عشت أنا خمساً وثمانين سنة، ولكنني لما رأيت من أحداث الدهر وتقلبات الزمان، عشت مئة وثمانين سنة. وعيت على الدنيا في دمشق، وهي إحدى الولايات العثمانية التي تمتد حدودها حتى تشمل طرفاً من أوروبا، وطرفاً من إفريقية، وبلاداً واسعة في آسيا، فرأيت الحرب الأولى، وكنت لما نشبت في أوائل أيام المدرسة، ورأيت ما كان بعدها إذ غدت الشام التي كانت بعض ولاية من ولايات الدولة، غدت دولاً: دولة دمشق ولها حكومة ولها حاكم، ودولة حلب، ودولة العلويين ودولة الدروز، ودولة أكبر منها، ولكنها فرع من الأصل الذي انبثقت منه وانفصلت عنه هي دولة لبنان الكبير، الذي انتزعوا الأقضية الأربعة من سوريا وضموها إليه ومنها طرابلس والبقاع، ولبثنا سنين ونحن نخرج بالمظاهرات نطالب بالأقضية الأربعة، وما كنا نملك إلا سلاح المظاهرات والمقالات والإضرابات، ثم جاءت قضية لواء الإسكندرون، وكان مطلبنا هو الاستقلال، وطرد الواغل الدخيل. وكان تاريخ طويل، تبدلت فيه

حكومات، وكانت فيه انقلابات وتوالت فيه ثورات وثورات حتى انتهينا إلى المصير الذي صرنا إليه، وإلى الله المشتكى.

فلما قعدت أكتب مقدمة هذه الطبعة من كتاب إندونيسيا عدت إليه فنظرت فيه، فإذا أنا أقرأ كتاباً جديداً، كتاباً لا يصف إندونيسيا اليوم، ولكن يؤرِّخ لبعض ما كانت عليه بالأمس. أفأدع الكتاب لا أعيد طبعه، فيخسر القرّاء ما فيه من وصف، وما جاء فيه من حقائق، وإن منها لصفحات تعبت في إعدادها، وأرجو من الله الثواب عليها، كفصل دخول الإسلام إلى إندونيسيا، وفصل عن تاريخ الحركات الإسلامية فيها جمعته من أفواه الرجال الذين شاركوا في صنعه، وما أحسبه موجوداً مثله في غير هذا الكتاب. لا لن أدعه ولكن أنشره على أنه كتاب تاريخ، وأن من التاريخ ما هو قريب، ولكنه على قربه صار أبعد عن الأذهان، وأدنى إلى النسيان.

لقد تبدلت إندونيسيا التي تقرؤون عنها في هذا الكتاب فحالت الأحوال، وذهب أكثر من ذُكر فيه من الرجال، وصار تاريخاً يُروى، وقد كان قائماً يُرى. ما تبدلت طبيعة الأرض، ولا تغيرت مشاهدها، ولا ذهب ذلك الجمال الذي جعلني أقول في نعته: (أن سويسرا قد انتقلت إلى آسيا) فهذا خلق الله، وخلق الله باق ما أذن الله ببقائه، لا يصل إليه الفساد، إنما يفسد ما امتدت إليه يد الإنسان. إقرأ الكتاب ثمَّ انظر فاسأل أين (سوكارنو) الذي كان اسمه على كل لسان وصورته في كل مكان، وأخباره تتصدر الأخبار، وتملأ الصحف والمجلات، وتلهج بها الإذاعات. لم يكن ينطق (الإعلام) إلا بمدحه، بل يكاد يقدسه ويسبح بحمده، تعالى الله عن أن يكون له في أسمائه وصفاته مماثل أو شريك، فأين اليوم سوكارنو؟ وأين الذين كانوا يحفون به، يخشون سخطه ويطلبون رضاه؟ وأين أمثاله ممن كانوا على عهده، وعلى مثاله في الشام ومصر وتونس والجزائر، وكثير من البلدان، بل أين الذين كانوا وراء الستار الحديدي، يتخذون الإلحاد ديناً، ويجحدون الله رباً، ويقدِّسون ماركس ولينين؟ لقد هُتك الستار، وهُدم في برلين الجدار، واضطجعت الشيوعية على فراش الموت، وأطباؤها هم قاتلوها، وأصحابها هم مشيّعوها، ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾. كان الشيوعيون

يظنون أنهم سيسيطرون بها على الدنيا، وأن ماركس ولينين ستحل أسماؤهم محل أسماء النبيين والمرسلين، وأنها ستمحو كل نظرية أو دعوة سواها، وتزيل كل نظام عداها، وأن ظلامها سيغطي على أنوار الإيمان، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. وغداً: (وإن غداً لناظره قريب) تسألون ثلاثة أرباع طلاب المدارس.. من كارل ماركس؟ فلا يعرفه إلاّ القليل، كم عدد الذين يعرفون اليوم من هو (مزدك)؟ ـ لقد قلت من قديم أنه لن يعرف غداً إلا العلماء الكبار ـ ما هي (البعثية) ؟ بل لا يعرفون ما هي (الشيوعية) وكذلك ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾، ولا يبقى إلاّ الصحيح، والصحيح هو (الإسلام) وكل ما خالفه أباطيل وأوهام. من كان يظن أنه سيأتي من قوم ستالين رئيس اسمه خروشوف يلعن ستالين، ويطمس آثار ستالين، وأنه سيأتي آخر اسمه جورباتشوف، يشارك أعداء الشيوعية بهدمها؟ هذه العِبر قيد النظر، ولكن أين من يعتبر؟ أين الذين ظنوا أنهم شاركوا الله في ملكه، فاستكبروا في الأرض بغير الحق، وأذلّوا رقاب العباد، وملؤوا الدنيا بالفساد؟ لقد كانوا ملء الأسماع والأبصار، فصاروا خبراً صغيراً في حاشية كتب التاريخ؟

وبعد، فهذا كتاب (إندونيسيا) ما بدلت فيه شيئاً، وإن تبدل فيها كل شيء، فاقرؤوه على أنه كتاب تاريخ، يرويه من عاش هذا التاريخ.

علي الطنطاوي



مقدمة الطبعة الأولى

من ست سنين، انعقد في القدس، مؤتمر إسلامي، للنظر في نكبة فلسطين، وطريق العمل على نصرتها، وفدت عليه الوفود من بلاد الإسلام كلها، من مراكش إلى أندونيسيا، وكان (برلماناً شعبياً) مثل كل بلد فيه زعماؤه وكبار أهله.

وقد أوفدت بعض البلاد رجالاً لهم صفة رسمية، كالأستاذ عبدالمنعم خلاف الذي حضر من جامعة الدول العربية مراقباً، والدكتور سوبارجو وزير خارجية أندونيسيا السابق ووكيلها الآن، وأوفدت بعضُ رجالاً يمثلون أحزاباً أو هيئات معروفة، كالأستاذ علال الفاسي رئيس حزب الإستقلال في مراكش، والاستاذ الشيخ الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء في الجزائر، والأستاذ القليبي رحمه الله رئيس الحزب الدستوري في تونس، واللواء صالح حرب (باشا) الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين في مصر، والأستاذ الشيخ أمجد الزهاوي رئيس جمعية إنقاذ فلسطين في العراق، ومندوب عن الكاشاني في إيران، ونواب صفوي عن فدائيان إيران، وسعيد بك شامل حفيد الشيخ شامل زعيم مسلمي القوقاز، وابن الشيخ صادق المجددي الزعيم الديني الأفغاني ووزير الأفغان في مصر.

ورأى أعضاء المؤتمر القدس وما حلّ بها، والقرى الأمامية ومصابها، وشاهدوا آثار المأساة وبقاياها، فتقاسموا على نذر أنفسهم للعمل لها.

وانتخب المؤتمر لجاناً ثلاثاً، كانت إحداها لجنة للدعاية والإنعاش الروحي، شرّفني برياستها، وكلّفها أن تطوف العالم الإسلامي، تعرف بفلسطين وتدعو الناس لإمدادها بالمال.

وكنا خمسة، إثنين من العراق الأستاذ الزهاوي والأستاذ الصواف، وإثنين من الجزائر الأستاذ الإبراهيمي والأستاذ الفضيل الورتلاني رحمه الله وأنا.

فاعتذر الجزائريان ورجع الأستاذ الصواف مضطراً من كراتشي فبقيت مع أستاذنا الجليل، بركة العصر، الشيخ أمجد الزهاوي وكان علينا أن نجمع المال، ولكنا خفنا أن يقول الناس، أننا سرقنا أو أخذنا لأنفسنا، فآثرنا السلامة، وجعلنا عملنا أن نشرح للناس قضية فلسطين، ونصف لهم مأساتها، ونعرض عليهم أدوارها، وأن نؤلف اللجان في كل بلد لتجمع هي المال لها، وتبعثه مع أمناء منها، لتتولى إنفاقه بنفسها. وكنا نقول للناس: إننا لسنا من أهل فلسطين، وليس لنا فيها مصلحة لأنفسنا، وإنما هو الواجب ونحن وأنتم في هذا الواجب سواء، ثم إننا لا نستلم بأيدينا قرشاً واحداً، فما تجودون به فابعثوا به إلى القدس.

وإننا نعلن (مع الأسف)، إننا وجدنا في العالم الإسلامي أزمة ثقة، فما فيه بلد إلا وقد اكتوى بنار المحتالين والدجالين، والمتاجرين باسم الدين، وبمأساة فلسطين، يجمعون لها ثم يأخذون لأنفسهم تسعة أعشار ما يجمعون، ولو أنهم وثقوا أن هذا المال، يصل إلى فلسطين حقاً، لأعطوا ما على أجسادهم، وما في أفواه عيالهم.

على أن الذي صنعناه لفلسطين لم يصنعه أحد، فقد جعلنا حديثها بعون الله، ثم بفضل الشيخ أمجد والأستاذ الصواف حديث الناس والحكومة والإذاعة والصحف في كل بلد دخلناه، لقد ألقيت ثلاثاً وأربعين محاضرة وخطبة عن فلسطين، وعقدت ثمانية وعشرين مؤتمراً صحفياً، وشغلت بها ست إذاعات، وأكثر من أربعمائة جريدة ومجلة.

وما أقول هذا مناً ولا فخراً، ولكن لأثبت للناس أن الواحد منا ولو كان ضعيفاً مثلي، يستطيع (إذا أراد) أن يعمل ما لا تقدر عليه الجماعة.

ولقد تركنا لفلسطين لجاناً في كل من كراتشي وكلكتة ولكنو ودهلي وبومباي وسنغافورة وجاكرتا وجوكجا وسورابايا، وقد بلغ ما جمعته هذه

اللجان وما أرسل لمكتب المؤتمر الدائم (وأمينه العام الأستاذ سعيد رمضان) من ذلك ومن التبرعات والإمدادات، من النقد ومن الأعيان أكثر من أربعمئة ألف ليرة سورية، لم أشارك في قبض شيء منها، ولا في إنفاقه، لأن عملي في المؤتمر اقتصر على حضور جلساته، والسفر للدعاية له وتأليف لجانه، ولم يبق لي من صلة به، إلا أن أدعى إلى إلقاء خطبة أو محاضرة، في حفلاته في القدس وفي غيرها، كما أدعى لإلقاء مثلها في سائر الحفلات.

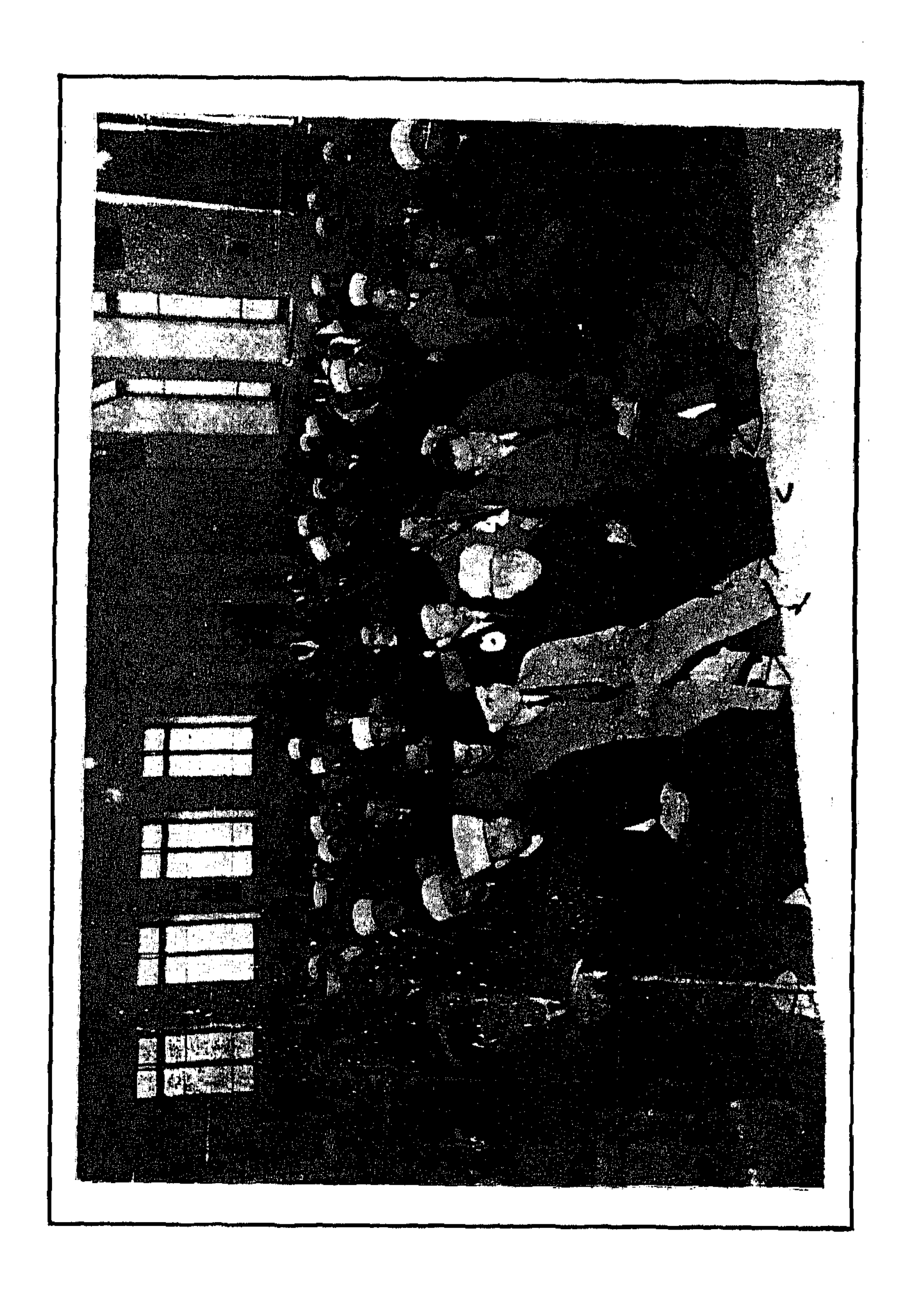
وأنا لا أستطيع أن أختم هذه المقدمة، من غير أن أسجل العتب على الحكومة الأندونيسية، وعلى سفارتها في مصر، وقنصليتها في دمشق، ذلك أن الحكومات تبذل الكثير للدعاية لنفسها، وأنا استمررت ثلاثة أشهر أذيع الأحاديث عن أندونيسيا أعرف بها من لم يسمع باسمها، ثم وضعت هذا الكتاب عنها، ولم أطلب منها عوناً ولا أريده، ولكن طلبت طائفة من الصور والمطبوعات ومجموعة من (مجلة الشؤون الأندونيسية) التي ترسل إلى الكبير والصغير، فلم أجب إلى شيء من ذلك، فصدر هذا الكتاب وليس فيه من الصور إلا ما التقطناه من الصحف والمجلات.

فأرجو من القراء أن يعذروني، وأرجو من إخواننا الأندونيسيين، ألا يسوءهم هذا العتاب.

دمشق: ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٠

٢٧ رجب ١٣٧٩

علي الطنطاوي



حفلة افتتاح المؤتمر الإسلامي بالقدس سنة ١٩٥٣ م

أعود

أذيعت سنة ١٩٥٤

يا أصدقائي المستمعين، ها أنذا أعود إليكم بعدما غبت عنكم ثمانية أشهر، جزعت فيها ربع محيط الأرض، وبلغت فيها أبعد المشرق، ووصلت فيها إلى ما لم يصل إليه ابن بطوطة، رأيت فيها السند والهند، وجزت بورما وسيام، وزرت الملايا وسنغافورة، ورميت أبعد المرامي، آخر أندونيسيا. حيث لم يبق بيني وبين أوستراليا إلا مرحلة واحدة بالطيارة.

ثمانية أشهر كم دخلت فيها من بلدان، وكم لقيت من ناس، وكم شاهدت من عجائب وغرائب، ولطائف وطرائف. وما نسيت دمشق على هذا كله يوماً، ولا خمد الشوق إليها ساعة، وكان في قلبي أبداً وعلى لساني بيت الشريف:

وقائلة في الركب ما أنت مشته؟ غداة جزعنا الرمل، قلت: أعود!

أعود وفي جعبتي مئات من الصور، من كل طريف معجب، وكل ظريف مطرب. وسأنشر هذه الصور عليكم، وأجلّيها لكم، لتروا فيها الجديد الذي لا تعرفونه. ولو أني رجعت من أوربّا وأمريكا وفتشتموني لما وجدتم معي عجباً، لأنكم تعرفون ألوان الحياة في أوربّا وأمريكا، تعرفونها من السينما ومن الكتب ومن المجلات، ومن ألسنة الراحلين إليها، أما بلاد المشرق فما كنت أعرفها أنا، ولا تعرفون اليوم أنتم من أمرها إلا القليل.

سأعيد عليكم مراحل رحلتي مرحلة مرحلة، أريكم ما رأيته، وأسمعكم ما سمعته، وأنقل إليكم ما شعرت به وأحسسته حتى تكونوا كأنكم معي فيها.

سأحدثكم عن فلسطين اليوم، حديثاً لا تعرفونه وأنتم جيران فلسطين عن القدس والقرى الأمامية ما حالها وما مآلها. عن عمان ونهضتها، عن بغداد وعظمتها. بغداد التي عشت فيها سنين من عمري، فلما عدت إليها بعد خمس عشرة سنة رأيت بغداد غير التي تركت فلم أكد أعرفها. عن الموصل التي يحس الشامي فيها أنه في الشام، عن البصرة بندقية العرب، ومفتاح الشرق. عن باكستان البلد المتوثب الناهض. عن الهند، والهند دنيا من الأجناس والألوان والعجائب. عن الملايا. عن سيام التي يسكن أهلها في بيوت كأنها ألاعيب الأطفال، ولا ترى فيهم إلا ضاحكاً. عن أندونيسيا[1] بلاد الماء والخضرة والأجسام الحسان. عن الشرق الغني بطبيعته وناسه، وأرضه وسمائه، وماضيه ومستقبله، فالطبيعة كلها كنوز: معادن وزيوت وشلالات، وثروات لا تنفد، والناس عدد الرمل، والملايين هناك كالآلاف عندنا أو المئات، والسماء تسطع بالنور وتهطل بالخيرات، والأرض خصب ونبات، وحقول وغابات، ورياض وجنات، ما رأينا من كراتشي إلى آخر جاوا، بقعة واحدة جرداء.

الشرق الغني بالماضي الفخم يوم كانت الحضارة فيه، وكان فيه العلم، وكانت فيه القوة، وكان له في الأرض السلطان، والمستقبل الفخم الذي سيرجع ذلك الماضي، والذي بدت تباشيره، وظهرت بواكيره، حين لم يبق في آسيا كلها من جحيم الاستعمار، إلا شعل صغار، لا تزال هنا وهناك. لقد أطفأت أيدي الشرقيين تلك النار، وأقامت مكانها الجنات تجري من تحتها الأنهار. لقد تحرر الشرق ولن يعود إلى الرق أبداً. وهو يمشي إلى الحياة على حين يمشي الغرب على رجليه إلى الموت، على رجلين من القنبلة الذرية والمطامع الأشعبية، يعمل جهده ليدني الحرب الثالثة التي لا تبقي ولا تذر. وكذلك كان سير الحضارة، أنها لا تزال تنتقل بين الشرق والغرب. بدأت من الشرق، من الهند والصين من بعيد، ومصر وبابل والشام من قريب، ثم

(١) وهذا وحده موضوع هذا الكتاب وسيصدر قريباً إن شاء الله الجزء الثاني عن (السند والهند).

غربت إلى اليونان والرومان، ثم عادت مشرقة إلى دنيا الإسلام إلى دمشق وبغداد والقاهرة، ثم رجعت إلى الغرب إلى باريز ولندن وواشنطن. وها هي ذي بدأت تعود إلى الشرق، وهذا هو مكانها، ومن الشرق يبدو النور، ومن الشرق تطلع الشمس. وسأحدثكم حديث الشرق.

أحدثكم عن الفتوح الإسلامية الثلاثة في الهند: الفتح العربي، لقد سلكت طريقه، ومشيت من حيث مشى، وتتبعت آثار أقدام الجيش الذي خرج من دياره في أرض الحجاز، يقوده الفتى العربي الذي فارق منازل أهله في الطائف، ومشى، ومشى، ومشى حتى جزع الأرض إلى موضع كراتشي اليوم. وأين أنت يا طائف من كراتشي؟ وكان الجندي يشري زاده بنفسه، ويحمله على كتفه، ليس في الجيش مصلحة تموين، وكان يشري سلاحه بنفسه ويحمله على كتفه، وكان يشري راحلته بنفسه أو يمشي على رجليه. وكان يصبر على الحر والقر، والجوع والعطش وكان مع ذلك كله، يدعس في طريقه كل قوة تعترضه، وكل قلعة وحصن، حتى بلغ الهند، يقوده محمد بن القاسم، الذي لم يزد عمره عن سبع عشرة سنة، وهي اليوم سن تلميذ في الصف الخامس الثانوي.

والفتح الأفغاني، حين استعاد السلطان محمود الغزنوي ما فتح ابن القاسم، ثم حاز من الهند ما لم يحزه قبله فاتح.

ثم الفتح المغولي، فتح (بابر) وأحفاده، الذين ملكوا الهند كلها، وكان منهم الأمبراطور أكبر(١) ، وكان منهم شاهجهان، وكان منهم الملك الصالح(٢)، الذي ملك من الهند ما لم يملكه أحد، والذي جمع الحزم والعزم، والتقى والصلاح والعلم والأدب، والذي لا أكاد أعرف بعد الخلفاء الراشدين وبعد عمر بن عبدالعزيز، من الملوك الكبار، لا الأمراء الصغار من هو أصلح منه.

أحدثكم عن آثار المماليك وقد وقفت عليها في أطراف دهلي، عن

---

(١) الذي كفر آخر عمره، وأكره الناس على الكفر، ولفق ديّناً جديداً، ما أنزل الله به من سلطان.

(٢) وتجدون سيرته وسير كثير ممن ذكرت في كتابي (رجال من التاريخ) طبع (دار المنارة) في جـدّة.

مسجد قوة الإسلام الذي عاد أطلالاً، ولكنها أطلال فيها من الروعة والضخامة، ما ليس للقصور العوامر، وعن منارة قطب الدين وهي تشرف على الدنيا من علو سبعين متراً، كأنها من ضخامتها جبل، وهي جبل من الأمجاد والمكرمات.

وعن آثار المغول في قلب دهلي، ودهلي وما حولها هي منازل المسلمين، لهم في كل مكان فيها أثر، عن المسجد الجامع الذي بناه شاهجان، باني تاج محل، ولا يزال عامراً قبته مرفوعة يقابله من دلهي[1] الجديدة قصر نائب الملك وقبته الشامخة وبينهما شارع واحد مستقيم. قبة حيال قبة وجلال مقابل جلال، أخذ الأنكليز الهند منا، وكنا نحن حكامها فرماهم الله بحجرهم، وعاملهم بعملهم، فانتزعها منهم. لقد خلا قصر نائب الملك من نائب الملك، ونزل العلم وهوى التاج، ولم يبق من ذلك الاستعمار الذي بنوا له بناء من يظن أن له الخلود، إلا قبة القصر تناجي قبه المسجد تتحدثان من بعيد تتشاكيان غِيَر الأيام وعبر الدهر. على أن تحت قبة المسجد الآلاف المؤلفة من أهله، لا يزالون ينادون: (الله أكبر) وهو نشيد الإسلام، وما تحت قبة القصر، من بني التاميز مناد ينادي (يحفظ لله الملك) وهو نشيد بريطانيا.

عن القلعة الحمراء، التي لا تزال آية في القوة وفي الرشاقة، بناها باني المسجد شاهجهان. أفليس عجيباً أن يكون تيمورلنك أكبر مخرب في التاريخ، وأن يكون من ذريته شاهجهان هذا أكبر بناء في التاريخ باني (تاج محل) أجمل أبنية الدنيا على الإطلاق؟.

أحدثكم عن كلكتة التي فيها خمسة ملايين ونصف من البشر، بمقدار أهل سورية ولبنان والأردن معاً، والناس فيها من بني آدم يجرون عربات الركوب والحمل، والبقر تمشي، تتبختر في الشوارع لأنها مقدسة معبودة، لا يعرض لها أحد بسوء.

عن (لكنو) التي فيها ندوة العلماء و (ديوبند) التي فيها أزهر الهند.

---

(١) نحن نسميها دهلي والإنكليز (ومن لا يدري) يسمونها دلهي.

و (عليكـرة) التي فيها أكـبر جامعـة في الشرق. وعن المدينـة الجميلة عروس المدائن (بومباي) التي رأيت فيها شباط الشام في الصيف فكأنه قد ضل طريقه في البحار، فوصل بومباي في تموز.

أحـدثكم عن القردة التي تمـلأ الأسطحـة في لكنو، كـأنها القطط في الشام، تقفز من الأشجار إلى شرفات الفنادق وغرف البيوت والطواويس التي تختال حرة في الحقول، والببغاوات التي تطير كالعصافير، وعن أشجار الببّايا التي تحمل البطيخ، فهل سمعتم بأشجار كالنخل تحمل بطيخاً؟.

وأحدثكم عن سنغافورة التي فيها العمارات ذوات العشرين طبقة، وفيها مليون ومئة وخمسون ألفاً، ثمانمئة ألف منهم من الصين، لم أر أمة في مثل براعتهم في التجارة، وحذقهم فيها، ولطف مداخلهم، ورقة شمائلهم، ولم أر مثـل نسائهم اللواتي يعملن كـل عمل، حتى سـوق السيارات، والحـلاقـة للرجال.

وأحدثكم عن أندونيسيا التي فيها ثلاثة آلاف جزيرة.

منها جزيرة جاوا جزيرة السحر والفتون، جزيرة الهوى والشباب، حيث سرنا عشرين ساعة في القطار، فلم نمر على مكان خال من السكان، جاوا التي فيها ثلاثة وخمسون مليوناً وما تزيد مساحتها على ثلث سوريا، وفيها من غربها إلى وسطها الأنهار تنحدر على الصخور تأتي من عتمة الغابة لتضيع في عتمة الغابة، كسرٍّ جاء من ظلمة المجهول ليضيع في ظلمة المجهول، فيظل أبداً فتنة القلب، وضالة الهوى، لقد عددت في ساعتين في القطار ستة وثلاثين نهراً ثم مللت.

بلد الغيد الباسمات اللواتي يبقين أبداً في مثل عمـر الأطفال، تعجـز الأيام عن أن تنال من شبابهن كما تعجز أن تنال من شباب الرجال.

جاوا التي يصدر منها السكر إلى ربع العالم فلا عجب أن يكون كل شيء فيها حلواً كالسكر! ولعل الله يوفقني فأجيد هذه الأحاديث.

من عمان إلى بغداد

أذيعت سنة ١٩٥٥

فارقنا عمان (أنا والأستاذ الصواف) عندما فارقها الليل، وبدت تباشير يوم الجمعة (٢٢ كانون الثاني ١٩٥٤)، في سيارة صغيرة لأخ كريم من إخوان الصواف، ودخلنا الصحراء، وأوغلنا فيها، وامتدت من حولنا بجلالها وصمتها ورهبتها. الصحراء المكشوفة الظاهرة، ليس فيها مثل سقوف المدن التي تظهر غير ما تبطن: تخفي تحتها المعصية والأثم وتظهر النظافة والطهر، لذلك كان أهل الصحراء صرحاء جُرءاء، ليس فيهم مراء ولا منافق. الصحراء التي كان يرحل فيها البدوي على جمله الأيام الطوال، فلا يبلغ غايته، لذلك كان أهل الصحراء أهل صبر ودأب وثبات.

الصحراء التي لا يعيش فيها إلا الأسد والنمر، والقار والأكم، والشمس والبدوي. لقد كان البدوي ابن الصحراء، فكان قوياً صلداً لا ضعيفاً ولا طرياً، لأن الصحراء لا مكان فيها للضعاف.

الصحراء التي يشعر من يسلكها بهوانه وعظمتها، وصغره وجلالها، فيخشع قلبه ويحيا في نفسه إيمانه، لذلك كان أهل الصحراء مؤمنين حقاً، ليس فيهم ملحد ولا زنديق. يا سادة إننا ما فقدنا عزنا، إلا منذ فقدنا أخلاق الصحراء.

ومررنا على المخافر العسكرية، وفيها الجنود من العرب، وإنه لمشهد يأخذ القلب، أن ترى البدوي بلباسه العربي، وكرم نفسه وأصالة عروبته، قد أتقن فن الجندية، ودخل في النظام، وما فقد من عروبته شيئاً.

وأعطونا صرة تمر، وجرة ماء، لنوصلها إلى (الولد دهام)، قلنا: ومن الولد دهام؟ قالوا: العسكري اللي جدّامكم.

وحسبنا على بعد مئة متر، ولكنا سرنا ساعتين في السيارة، حتى وقفنا عليه فإذا هو وحده في هذه البيداء التي لا أول لها ولا آخر، يحرس النقطة، وإذا هذه الصرة، وهذه الجرة، هي طعامه وشرابه يومه كله.

فذكرت الجيش العربي الأول الذي حمل راية الإسلام، وخرج، بعد الجندي فيه سلاحه لنفسه، ويعد مركبه لنفسه، ويعد طعامه لنفسه، وقد يصبر على حفنة التمر يومين، ومع ذلك فتح الدنيا.

وقلت أن العربي اليوم هو العربي في صبره وشجاعته وصفاء نفسه وطيب عنصره، ما تبدل الجنود لكن تبدل القادة، أعني بعض القادة!.

وسرنا والصحراء تمتد من حولنا في صمتها وجلالها، حتى مررنا على محطة البترول الرابعة H4 (أتش فور)، قطعة صغيرة جداً، من ريف إنكلترا، قد نقلتها الأيدي الصناع إلى هذه الصحراء، لتقيمها حجة ظاهرة، على كل جاهل أو كاسل أو خامل، ومدرسة لنا نتعلم منها بالنظر، أن الله ما أعطانا العقل والطاقة، وتركنا في هذه الصحراء إلا لنجعل منها مدناً وجنات. فلما عطلنا عقولنا، وأهملنا قوانا، وتركنا بلادنا قفاراً مجدبات، جاء بآخرين من وراء البراري والبحار، ليعلمونا كيف يكون الفكر، وكيف يكون العمل.

رأينا في المحطة البيوت التي تجمع الراحة من أطرافها، فيها الفراش الوثير، والطعام النافع اللذيذ، والوسائل إلى دفع الحر والقر، والكتب والمجلات، والمجامع والملاعب، وكل ما يكون في المدينة الكبرى.

إن البدوي الذي كان يمر بهذه المحطات، مندهشاً مأخوذاً، يعجب من هؤلاء الإفرنج، وما يقدرون عليه، ويتضاءل أمامها ويصغر، حتى يفارقها إلى خيمته وجماله، يهرب من السيارة التي تسيّرها الجن ويفزع من الرادّ الذي تغني فيه العفاريت، ويرتجف قلبه هلعاً من المحرك (الموتور) الذي تديره يد مارد لا يرى، غدا يسوّق اليوم السيارة التي كان يهرب منها، ويصلحها إن

فسدت، وصار يفكك أجزاء الراد ويجمعها، ويحرك (الموتور) ويعرف كيف يدور، عرف الحقيقة فبطل السحر، ورأى الغربيَّ مثلَه، بل لقد رآه دونه ذكاء ولكنه نال نصيباً أكبر من العلم فسعى العربي لينال مثل نصيبه، ثم أنكر عليه عدوانه على ما لغيره، واستئثاره بما لسواه، ولقد سمعت بدو الصحراء في الأجفور يقولون: لويش بالله نطيهم النفط مالنا، حَنّا والله إلْ لازم نطلعه ونبيعه، هو حنّا ناقصين، ولاّ عيال؟.

وليس عجباً أن تظهر روح الحرية والاستقلال في هذا الشرق الأدنى، وقد غمرت أقاصي الشرق، حتى لم يكد يبقى في آسيا العظيمة للاستعمار مكان.

* * *

وعدنا نسير، وعادت الصحراء إلى صمتها وجلالها، وكان الظهر، واليوم الجمعة، فسمعت من السيارة حديثي عن أعلام الإسلام، علي الطنطاوي يسمع وهو وسط الصحراء حديث علي الطنطاوي الذي حدث به في غرفة من دار الإذاعة في شارع جمال باشا في دمشق، قبل أسبوعين.

لو قيل لأكبر علماء الأرض قبل مئة سنة أن هذا سيكون، لجنّ أو لحسب القائل مجنوناً، ونحن لو سمعنا بما سيكون من العجائب بعد مئة سنة لصرنا كلنا مجانين.

ومررنا بالإتش فايف (H5) ووقفنا عليها ساعة، وعدنا نسير وعادت الصحراء إلى صمتها وجلالها، ونحن في كفها كنملة في كف فيل (إن كان للفيل كف)، بل إن النملة هناك لأعز منا وأقوى، وماذا ترى الصحراء في هذا الصندوق المغلق الذي يتدحرج بين جنباتها، وهي التي عاشت خمسة ملايين من السنين، رأت فيها كباراً وصغاراً وأقوياء وضعافاً، وجيوشاً كانت ترج بسيرها الأرض، وتزاحم بكبريائها الفلك وقوافل كان فيها الغنى والمال، والأجام كان فيها الأسد الكواسر، والمدن فيها القصور العوامر، فطوت الأرضُ الجيوشَ والقوافل، والأسد والآجام، والقصور والآكام، ودولاً كباراً كانت لها في الأرض هيبة وجلال، وكانت لها الأعلام والرايات، فعادت كلها

إلى الأرض فصارت تراباً في الأرض التي تطؤها هذه السيارة، فتثيرها غباراً.

إن كل ما على الأرض، سيعود إلى الأرض.

والمجنون من اغتر بما في الأرض من غنى وجاه وسلطان.

* * *

ووصلنا الرطبة في آخر النهار، وذكرتني الرطبة بسوالف أيامي كم جزت بها في طريقي إلى بغداد وعودتي منها، مررت بها من عشرين سنة بالضبط وأنا ذاهب إلى بغداد أول مرة مدرساً في الثانوية المركزية، خلفاً لأديب العراق الأستاذ الأثري، وأستاذاً في كلية دار العلوم في الأعظمية، ولم يكن لبغداد في ذهني إلا صور تتراءى من وراء القرون، لها بريق كأنها البدر تتراءى أنواره من خلف الغمام، فقلت: سلام على بغداد، وأين نحن من بغداد؟ وكانت الرطبة يومئذ محطة سيارات، ومركزاً للجوازات، ولا شيء وراء ذلك، فصارت اليوم قرية فيها زرع وبساتين؛ ولقد حدثني مدير الناحية عن أماني الحكومة فيها، وقال لي: إنك ستراها بعد عشرين سنة أخرى مدينة هي جنة الصحراء وستمر بها وتكتب عنها، ولكن هل يقدر لي أن أعيش حتى أراها، وما أصنع برؤيتها والكتابة عنها، وأنا يومئذ شيخ على أبواب السبعين، همه أن عقل الاستعداد للقاء ربه، والعمل لآخرته[1].

وفارقنا الرطبة ودجا الليل وامتد، وأظلمت معه من الملل نفوسنا، لقد تحدثنا حتى مللنا الحديث، وسمعنا الإذاعات حتى انتهت الإذاعات، وأكلنا وشربنا، ثم جعنا فأكلنا وشربنا، ثم جعنا فأكلنا وشربنا، والطريق لا ينتهي.

قلت: يا نفس، إنك في سيارة مستقلة، تقف إن شئت، وتسير إن أردت، ومعنا طعامنا وشرابنا، والرادّ يغني لنا، وقد مللنا مع ذلك كله وتعبنا، فكيف جاء خالد من العراق إلى الشام، يسلك هذه الصحراء لا على

---

(١) عشت بحمد الله حتى بلغت الآن (سنة ١٤١١) خمساً وثمانين، ولكن هل صار همي كله العمل لآخرتي. اللهم حسن الختام والوفاة على الإيمان ـ رحم الله من قال من قلبه آمين.

طريق (مزفت)[1]، وليس معه سيارة ولم يمر على محطة، وليس في الطريق ماء ولا ناس، ولما وصل لم يذهب إلى الفندق ليستنقع ساعة في الحوض (البانيو) وينام عشر ساعات متتاليات، بل ليخوض معركة من أكبر معارك التاريخ، مع أقوى دولة في العالم: الروم؟ أين نحن من أولئك الرجال؟

أعود مرة ثانية فأقول: إننا ما فقدنا عزنا، إلا منذ فقدنا أخلاق الصحراء.

* * *

وعدنا نسير، حتى إذا مال ميزان الليل، وقارب السحر، لمعت في الأفق مصابيح الرمادي (ولعلها هي الأنبار) ثم وضحت، ثم بيّضت حواشي الأفق الأضواء الساطعة لمشروع مجلس الإعمار هناك. ودخلنا شوارع (الرمادي)، تحت صوب من المطر والريح تعصف تصيب الوجه والأطراف بمثل لذع السياط، وإذا نحن بفتية وشبان، ينبعثون من سواد الليل، وأكثرهم بثياب النوم قد هجروا فرشهم، وعافوا دفء بيوتهم، وخرجوا في هذه الساعة ليحيونا وأخذونا إلى دار فسيحة ولست أدري كيف سرى الخبر بوصولنا في هذا الليل، فاجتمع عشرات من الناس، عشرات؟ لقد أخطأت التعبير، بل إن المجتمعين كانوا أكثر من مئة خرجوا من فرشهم في هذه الليلة الباردة، فكيف لو وصلنا في رأد الضحى، أو ألقِ الأصيل؟

وكانت جلسة تعارف وتوجيه وسمر[2]، كانت كشفاً لهذا المنجم الزاخر بالتقى والفضيلة والكرم في هذه النفوس الخيرة، وودعتهم وكأني أودع أصدقاء عرفتهم روحي من عشر سنين.

يا شباب الرمادي ويا شيبة عليكم سلام الله وتحياته، وبارك الله فيكم.

* * *

وسرنا مع الفرات، وهو يسير لا يبالي بنا ولا يلتفت إلينا، يسير كما كان

---

(١) ولا تقولوا (مسفلت).

(٢) وكان ذلك كله بفضل الله ثم بسعي الشيخ محمد محمود الصواف.

يسير منذ مليون سنة، فهل ترونه يبالي بنا، وقد أدرك ظهور طلائع هذه الأسر الكثر من المخلوقات الحية، من الحشرة والدودة، إلى الفرس والقرد والفيل، ثم شهد الحادث العجيب، لما نزل الأرض أول فرد من هذه الأسرة الفاضلة المحترمة أسرة والدنا آدم، ففرح بها ورأى أنها لا ظفر ولا ناب فحسب إنها ستختفي بظهورها مشاهد الصراع والقتال، وحرب الظفر والناب، وإسالة الدماء وإزهاق الأرواح، فإذا هذه الأسرة السامية، تركب لنفسها أنياباً من الحديد، ومخالب من النار، وتقتل بالجملة لا بالأفراد، وترتقي، ثم ترتقي، حتى تصل من الرقي الإنساني، والسمو البشري، حتى يرى أعلى شعوبها قدماً في الحضارة، وأطولهم لساناً في دعوى الديموقراطية، والحقوق الإنسانية، يلقي قنبلة ذرية على مدينة فيها أربعمئة ألف، فلا يبقي على أحد من نسائها وأولادها وشيوخها. . .

إنه يمشي صامتاً مطرقاً، ما رفع رأسه ونظر إلا مرة واحدة، رأى فيها لوناً من البشر غير من عرف في طريقه الطويل على الأرض من ضهور الأناضول إلى شط العرب، وفي طريقه الطويل في الزمان، من قبل ظهور البشر إلى الآن، رأى ناساً هم أقرب الناس إلى الإنسانية، وأحقهم بوصف البشرية، وأسماهم نفساً وأطهرهم قلباً، أولئك هم الذين جاؤوا من الصحراء، ترفرف فوق رؤوسهم رايات محمد.

ومررنا بـ (الفلّوجة)، ورأينا من بعيد (الحبانية) ومنازل الإنكليز وتواردت على الذهن صور لماعة زاهية، للنار التي أضرمها مرة رشيد عالي الكيلاني ليحرق بها الاستعمار ويبدد ظلامه، ولكن رياحه كانت أقوى من لهيبها، فما كان أسرع ما انطفأت.

ودنونا من بغداد، وازداد الشوق إلى بغداد:

وأكثر ما يكون الشوق يوماً   إذا دنت الخيام من الخيام

ودخلنا أرباضها، وجزنا بمدينة المنصور وبغداد الحديثة، ثم ولجنا المطار وقد دنت طلائع الفجر.

واستيقظت في نفسي الذكريات التي كانت نائمة في جنباتها، كما يستيقظ في الصباح مئات من أطفال الروضة، يملؤون الدنيا بشراً وبهجة وضجة وصخباً، كلٌ ينادي وكلٌ يصيح، وكلٌ يطلب أن تنصرف إليه وحده، وأحسست أن رأسي يدور من دورانها فيه. صور أيامي في بغداد، سقى الله أيامي في بغداد، ولقد عشت فيها أكثر من ألف يوم فلو أن لكل يوم ذكرى لكانت في النفس عنها ألف ذكرى.

فانظر ما حال من تصطرع في نفسه ألف ذكرى؟.

وكان المكان خالياً، والمراقب وراء بابه يحتمي به من لذعة البرد في هذه الساعة من الليل، فقرعنا عليه الباب، فخرج يتلقانا بالبشر والترحيب، لا تلقى فيه مراقب مكس وموظف جوازات، بل تلقى المضيف الكريم، للضيوف الأحبة، وأشهد أن في أهل العراق سجية يقرُّ بها العدو قبل الصديق، سجية لهم جميعاً موظفين وتجاراً وكباراً وصغاراً، هي الكرم.

ووصلنا بغداد نحن وفجر يوم السبت ٢٣ كانون الثاني ١٩٥٤ وخرجنا من بغداد في أواخر آذار ١٩٥٤.

من بغداد إلى جاكرتا

أذيعت سنة ١٩٥٥

وكانت بغداد في يوم من أيامها الشداد، قد عمها الذعر، وطار بألباب أهلها الفزع، وأشهد (وقد عشت في العراق أربع سنين) أن ليس في العراق جبان، ولكن كان في بغداد تلك الأيام، ما يجبن أمامه كل شجاع. عدو لا ترده المدافع ولا تدفعه النار ولا الحديد. غضب على بغداد وكان صديقها الذي يحنو عليها، واشتد عليها هو اللطيف الرقيق الذي يكاد من لطفه ورقته يسيل سيلاناً، إنه النهر يا سادة، دجلة ودجلة في الفرنسية وفي الإنكليزية اسمه النمر: تيكر تايْكرِس. إنه الفيضان، ولقد رأيت الفيضان العظيم سنة ١٩٣٦ وكنت في بغداد ووصفته في كتابي (في بلاد العرب) ولكن فيضان سنة ١٩٥٤ لم يسبق له مثيل.

علا الماء حتى قارب الأرض، ثم حاذاها، ثم صار أعلى من الأرض بمتر، لا يمسكه إلا أكياس الرمل التي رصفت على الشط، لا يحمي بغداد إلا هذه الأكياس فإذا وقف الإنسان من ورائها رأى وجه الماء يحاذي صدره، يموج كأنه أسد هائج يمسكه قيد ضعيف، فإن نفذ الماء من مكان واحد غرقت بغداد كلها.

وكانت ليلة سفرنا، ليلة لا تنسى، ليلة ما غمضت فيها في بغداد عين، بل جمع كلٌّ أطفالَه والغالي من متاعه واستعد للهرب، يستوي في ذلك الغني والفقير، لأن دجلة لا تفرق إن غضبت بين الكوخ وبين القصر، وفي الساعة الرابعة من غد تلك الليلة كان موعد سفرنا.

وفي الساعة الرابعة تماماً حطت الطائرة الضخمة على أرض المطار، لم

تسبق دقيقة ولم تتأخر دقيقة، وشرعت تأخذ البنزين، فصب فيها أكثر من مئة وخمسين (تنكة)... ولم تكن مستودعاتها فارغة، بل كان فيها نقص فملؤوها بهذا الذي صبوه فيها.

ولم أحس بها وهي تقوم، ولم أعلم بأنها طارت حتى نظرت من تحتي فرأيت بغداد، والنهر الفياض يطيف بها يلمع في شمس الأصيل كأنه ثعبان ضخم قد التفّ على فريسته.

وابتعدنا حتى غابت بغداد عن عيوننا، ولكن صورتها لا تزال في قلوبنا نحاذر عليها الغرق، ونرجو لها السلامة، ولكن السلامة لم تتم، وكانت الفاجعة بعد ذلك بيومين. سمعنا بها، ونحن في السفارة العراقية في كراتشي.

ومرت بنا الطيارة إلى البصرة، فلم تنزل بها، ثم سارت فوق أرض إيران، فوق البلاد التي ملأ ذكرها تاريخنا، وخلدت بلدانها في ألقاب العلماء الذين خرجوا منها، والذين غدوا من دعائم صرح مجدنا العلمي، الرازي (نسبة إلى الري وهي بجوار طهران) والقزويني والجرجاني والتبريزي والأصفهاني والشيرازي والأهوازي وعشرات لهم مثل هذه الألقاب لكل واحد منها في نفوس المتعلمين منا والمتأدبين ذكريات مثقلة بالأمجاد.

ولكنني لم أكن أرى من هذه البلاد الواسعة، إلا أضواء متناثرة، تلوح لحظة من أعماق الأعماق، ثم تختفي. فقلت في نفسي، ما أشد غرور ابن آدم بهذه الدنيا، إن في هذه الظلمة التي تمتد من تحتي، لَعالماً يتنازع أهله ويتقاتلون، ويبيعون لأجله الآخرة وما فيها، ويحسبونه كل شيء، وأنا حين علوت قليلاً في الجو، رأيته ظلاماً تلوح فيه مصابيح ضئيلة، فكيف يراه، كيف يرى أرضنا هذه من يعيش في الكواكب البعيدة؟ إن هذه الكرة كلها لا تبدو لعينيه أكثر من ذرة مضيئة تعبر الفضاء، كهذه الذرات التي نراها تسبح في جو الغرفة في أشعة الشمس فما أحقر الدنيا، وما أشد غرور الإنسان.

وشعرت كأني أعيش في التاريخ، أمشي مع القوافل التي كانت تحمل خيرات الأرض من الشرق إلى الغرب، وتعود بمثلها من الغرب إلى الشرق.

وأساير الطلبة الذين كانوا يقطعون هذه المراحل الطوال ويصبرون على المشقات والأهوال، ليأخذوا حديثاً أو يتعلموا مسألة، وأخطر تحت الرايات المظفرة التي كان يحملها القواد.

أعيش في الماضي، أيام كان الحكم في الأرض لنا، والعلم فينا، والمال معنا، والمجد في ركابنا، وكل خير بأيدينا، لأن أيدينا كانت ممسكة بمفتاح كل خير، القرآن.

وعاد بي إلى الحاضر، صوت مضيفة الطائرة، تقول بالإنكليزية: العشاء. وهي فتاة مولدة نصفها هولندي ونصفها جاوي، جمعت الجمال من أطرافه: فتنةَ الغربِ وسحر المَشرقِ.

وجاءت بالعشاء سخناً، قد طبخ في الطيارة، وهذه الطيارة عجب من العجب، لولا الألفة والعادة، لرأينا فيها معجزة، ففيها ثمانون مقعداً، كل مقعد له زر تكبسه بالإصبع فينقلب المقعد سريراً كاملاً، وفيها بهو للمدخنين فيه أرائك لا تؤجر ببطاقات بل هي مباحة لكل راكب يريد أن يدخن، وفيها أسرة للأطفال، مخبوءة في الجدران إن كانت ثَمَّ أم وأرادتها مسّت زراً فوجدت سريراً.

فندق كامل يطير في الجو، وهي لا تهتز ولا تتحرك، لأنها تستطيع أن تعلو حتى تجاوز مكان الاهتزاز، ولقد نظرت مرة فإذا تحتنا، تحتُ في الأعماق، سحاب مركوم يحجب الأرض، وإذا فوقنا، فوق في السماء سحاب مركوم يحجب الشمس، ونحن نمشي بينهما في جو ليس فيه ذرة من السحب...

ولما انقضت سبع ساعات كاملة، قيل: لقد دنونا من كراتشي، وسنهبط فشدوا الأحزمة على أوساطكم.

سبع ساعات قطعنا فيها خطاً مستقيماً طوله ثلاثة آلاف وخمسمئة كيل، من مشاها على طرق الأرض الملتوية الدوارة مشى ستة آلاف كيل، سبع ساعات قطعنا فيها ما كانت تقطعه القوافل في ثمانية أشهر.

هذه كراتشي التي دخل منها الإسلام إلى القارة الهندية، فكانت فاتحة

كتاب أمجادنا في تلك الديار، وستكون إن شاء الله فاتحة كتاب المجد الجديد.

من هنا دخل محمد بن القاسم، القائد العربي، الذي فارق منازل قومه في الطائف، وضرب في الأرض حتى بلغ كراتشي باب الهند يقود الجيش، ويحوز النصر، ويكتب في التاريخ أروع فصول البطولة، وهو لم يبلغ العشرين.

وكانت الأرض تقترب منا على حين كان فكري يبتعد، يبتعد موغلاً في ضباب الماضي، أفكر في هؤلاء الفرسان الأماجيد، كم حملوا من مشاق وكم قاسوا من أهوال حتى استطاعوا أن يصلوا من الحجاز إلى كراتشي.

نحن نجيء في الطيارات، نرخي أجسادنا، وننظر حالمين إلى ما تحتنا، كل ما نشتهي أمامنا: الطعام والشراب والدخان، وإن نعسنا استلقينا وأغفينا، والأوانس الغيد الفواتن في خدمتنا، ثم نشكو بعد الشقة، وكثرة المشقة، من الحجاز إلى كراتشي، وأولئك جاؤوا على خيولهم أو على ظهور إبلهم، وربما كان منهم من يمشي على رجليه، وهم يقاسون فوق طول الطريق، وقلة الزاد، وفراق الأهل، عدواً جاثماً لهم في كل مكان، كامناً لهم في كل واد ووراء كل أكمة. فهم أبداً في حروب ومعارك، وهم يريقون على كل ثرى دماً زكياً، ويتركون في كل أرض شهيداً عزيزاً، ويخلفون في كل بلد من يشعل للناس المصباح الهادي، في ليل الجهل والظلم، ومن يدلهم على طريق الحق والخير، ومن يلقنهم أحكام الإسلام.

إن التارخ مليء بأخبار الفتوح، لقد شرق الإسكندر حتى بلغ بفتحة الصين، وغرب المغول حتى وصلوا إلى روما مرة، وإلى حدود مصر مرة، وفتح نابليون أوربّة، وجاء مئات الفاتحين، ولكن كان ذلك كله فتحاً عسكرياً، يبقي ما بقي السيف أو المدفع، فإذا زال زال، أما الفتح الإسلامي فكان فتحاً للقلوب، وفتحاً للعقول، فبقي أثره إلى يوم القيامة.

إنه لم يكن فيه غالب ومغلوب، ولكن أخوة في الله، وشركاء في الدين،

ومن هنا بقيت إيران والأفغان وتركستان وباكستان مسلمة أبداً. وقطع على تفكيري صوت المضيفة تقول: حلوّا الأحزمة. هذه كراتشي.

وخرجنا من كراتشى بعد شهرين إثنين (سيأتي الحديث عنها وعن أيامي في الهند، في كتاب آخر يصدر قريباً إن شاء الله)[1] وكانت الدنيا في رمضان، وكان السفر قبيل المغرب، فما هي إلا أن أظلم الكون وكان تحتنا غيوم ثقال، فلم نر إلا قليلاً من الأنوار، حتى إذا مضى هزيع من الليل، كنا قد قطعنا الهند من غربها إلى شرقها في أعرض بقعة منها مسافة ألفي كيل فوصلنا كلكتا.

وكان منظر كلكتا ليلاً من الجو، من أروع المناظر. رقعة واسعة جداً، تتسلسل فيها أضواء الشوارع، خطوطاً مستقيمة ومنحنية ومتقاطعة لا يرى طرفاها، وما ظنك بمدينة فيها خمسة ملايين ونصف المليون؟

فنزلنا في مطارها ساعة، أكلنا فيه واسترحنا، ثم قامت الطيارة فمرت على رانغون (عاصمة بورما) ولم تنزل بها. ومضت مشرقة حتى وصلت بانكوك (عاصمة سيام) وبينها وبين كلكتا مسافة ألف وسبعمئة كيل.

وكانت أراضي سيام تبدو من الجو محروثة مزروعة، فيها الأنهار الكثيرة، على ضفافها البيوت ذات الطراز الآسيوي، سقوفها (جبلونات) مائلات مزخرفات، وحولها الأشجار صفوفاً على أشكال هندسية، وليس فيها بقعة جرداء.

ولما نزلنا وجدنا في المطار حشداً كأنه (كما بدا لنا) وداع عروسين مسافرين في شهر العسل والعقود الكبيرة من الزهر الفواح الأريج، معلقة بالأعناق، فيها زهر كالفل، مرصوف رصفاً عجيباً كالسجاد الملون، ومربوط بشريط له عقد فنية على أشكال الفراشات.

---

(١) ولكن الله لم يشأ، فما صدر الكتاب، . ومرّت الأيام وتراخى الذهن، وأدركني الكبر حتى بلغت حين كتابة هذه المقدمة الخامسة والثمانين، أسأل الله دوام الصحة وحسن الخاتمة.

ونساؤهم ذوات سحن صينية، ولكنهن وديعات جذابات، يلبسن ثياباً ضيقة مشقوقة من الجانبين تكشف عن السيقان والأفخاذ، وهم مجوس لا يرون في ذلك بأساً. . . والصدور باديات والأيدي مكشوفات إلى المناكب. . . أما الرجال فباللباس الأوربي. حللهم بيضاء ولم أر في المطار (على كثرة من فيه يومئذ من أهل سيام)[1] إلا ضاحكاً أو ضاحكة يمزحون ويصيحون. ويظهر عليهم أن هذا الانبساط خلق فيهم دائم، لا يتكلفونه.

وقمنا منها فتركنا الهند الصينية عن شمائلنا، واصل شبه جزيرة الملايا عن أيماننا، وطرنا فوق البحر إلى الجنوب. خطاً مستقيماً، سلكنا في آخره على الشاطىء الشرقي للملايا، حتى انتهينا إلى سنغافورة وسيأتي الكلام عنها في الفصل الآتي. وذلك مسافة خمسمئة كيل.

ثم سرنا على الخط نفسه فوصلنا جاكرتا (عاصمة أندونيسيا) عند أذان العصر. . .

(١) التي صارت تدعى (تايلاند).

في الملايا

نشرت في سنة ١٩٥٩

لقد كان من أبرز أخبار الصحف، وأنباء الإذاعات، من يومين، خبر استقلال سنغافورة، وقد كنا في مجلس ما فيه إلا من يعد من سراة المثقفين في هذا البلد، فجاءت جريدة (الأيام) وفيها الخبر، فسألتهم:

ماذا تعرفون عن سنغافورة؟ ما وصفها ما طبيعتها؟ من يسكنها؟ هل تعرفون عن الملايا وهي من بلادكم، وأهلها مسلمون من إخوانكم، عشر الذي تعرفونه عن باريس ولندن ونيويورك وهوليود؟.

فنظروا وفكروا، فلم يكن عند أحد منهم شيء من صفتها ولا من خبرها، بل إن منهم من لم يعرف مكانها على ظهر هذه الكرة، التي أسمها الأرض.

ذلك أننا نرى في السينما مشاهد من أوربّة وأميركا ، ونقرأ في الصحف أخبارها، أو نسمعها ممن زارها منا، فعاد يحدثنا عنها، فنعرف الكثير من أنبائها، وهذا الشرق شرقنا، لا نعرف عن أكثر أقطاره إلا الأسطر التي كنا قرأناها في درس الجغرافية، فأودعناها أذهاننا ريثما نؤدي الحساب (يوم الامتحان) عنها، ثم أغفلناها وأهملناها حتى نسيناها، ثم لم نسمع عنها خبراً مذاعاً، ولم نر لها صورة منشورة، وليس فينا من زارها فوصفها لنا، وأحسبني كنت أول سوري وصل إلى تلك الأقطار: إلى الملايا وأندونيسيا وتكلم عنها. . .

على أنه لم يكن في حديثي في الإذاعة شيء عن سنغافورة، وما عليَّ من حرج إن سقت إلى القراء شيئا من خبرها يوم استقلالها. . .

وقد مررنا بها في طريقنا إلى أندونيسيا، وفي عودتنا منها.

تماثيل الشمع:

وكانت طيارتنا تسير بمقدار، وتقف بمقدار، فإذا كان موعد طيرانها في الدقيقة الثالثة من الساعة الخامسة مثلاً، لم تطر في الدقيقة الثانية ولا الرابعة، وكان مقدراً لها أن تقف في سيام نصف ساعة فمضى نصف الساعة، ومرت الساعة وتبعتها ساعة وأنا أنظر إليها فأراها جاثمة على الأرض، كأنها عمارة مستقرة، فضاق صدري، ونفد صبري، فكنت أسأل وأبحث فلا يجاب لي سؤال ولا يثمر بحث، والركاب (وكلهم من الإنكليز إلا أنا وصاحبي) لا يتحركون ولا يبالون، ولم يقم منهم واحد يسأل لم وقفت، فعجبت منهم وازداد عجبي حتى شككت فيَّ وفيهم، وحسبتني في متحف الشمع في القاهرة، لا في مطار بانكوك في سيام.

ثم نادى المنادي أن الطيارة ستقوم فتحركت تماثيل الشمع ومشت على هينتها[1] كأنها لم تتأخر طيارة، ولم يتوقع حادث، ولم يخش خطر...

وطارت بنا حتى إذا اقتربنا من سنغافورة[2] نظرت تحتي فإذا أنا أرى خريطة مجسمة لشبه جزيرة الملايا وفي آخرها جزيرة صغيرة جداً، محاذية لها هي سنغافورة، ثم أسفّت الطيارة ودنت لتهبط، فرأيت المدينة في نصف الجزيرة الجنوبي، شوارعها فساح، وأبنيتها عالية، وفيها عمارتان رفيعتان، كأنهما برجان، والمرفأ فيها واسع وحياله مستودعات ضخمة جداً ونصف الجزيرة الشمالي حدائق متصلة وبساتين متسلسلة.

عرب سنغافورة:

وكنا قد أبرقنا بوصولنا إلى وجه العرب في سنغافورة، وهو السيد إبراهيم السقاف، فلما نزلنا وجدنا وفداً من العرب في استقبالنا، وكان بينهم واحد وعشرون مندوباً عربياً، عن إحدى وعشرين جمعية عربية، ودعونا إلى

---

(١) الكلمة من العامي الفصيح.

(٢) وأصلها سينغا (أو سينيا) بور، أي ميناء الأسد.

حفلة شاي صغيرة في مطعم المطار، ففهمنا أن هذه الجزيرة كانت إلى ما قبل مائة وأربعين سنة حدائق وبساتين ومنتزهات وجنات فحلّ بها الوباء البشري أعني الإنكليز فاشتراها قائدهم (رفلس) المشهور من سلطان جوهور لتكون ميناءً حراً ونصب فيها العلم البريطاني في ٢٩ كانون الثاني ١٨١٩، وشرع يقيم فيها المدينة التي بلغ سكانها اليوم مليوناً ونحو ربع المليون، منهم ثمانمائة ألف من الصينيين، وفيها جالية كبيرة من العرب الحضارمة، والعجيب أن حضرموت، هذه البقعة الصغيرة الفقيرة، قد غزت بأبنائها الشرق كله، فما في الملايا كلها ولا في أندونيسيا، بلد ليس فيه ناس منهم، وهم تجار بارعون، ومغامرون شجعان، ولكن عيبهم وعيبنا معشر العرب، في كل مكان، هو الانقسام وما ذاك عن ضعف فينا، بل عن قوة في نفوسنا، وإن كل واحد منا يرى نفسه رأساً، والرأس يقود ولا ينقاد، لذلك كانت الأعمال الفردية أنجح فينا من الأعمال الجماعية، ولذلك كان في استقبالنا واحد وعشرون مندوباً عربياً عن إحدى وعشرين جمعية عربية وكان الكهول منهم بأزياء بلادهم، أي بالعمامة الحجازية التي تكون على القلنسوة المطرزة المزخرفة، والجبة، وهم يحافظون عليها في كل أرض ينزلونها.

في الفندق الصيني:

وأخذونا إلى فندق صيني ما كدت أدخله، وأنشق ريحه، حتى رجعت من فوري أبادر الباب، ووقفت في الشارع تحت المطر، وأي مطر؟ إن أمطار البلاد الحارة أعجوبة في كثرتها وانسكابها، فما ظنك بمطر سنغافورة وهي على خط الاستواء.

وكنا ننتظر وهم يبحثون في اختيار الفندق المناسب، فما انتهى البحث حتى كان الماء قد اخترق ثيابنا وجلودنا، وأحسسنا به في عظامنا، ثم أخذونا إلى الفندق الكبير وهو فندق (رفلس) ولم يكن إعراضهم عنه أول الأمر جهلاً به، فهو معروف، ثم إن عمارة الفندق ملك للسيد إبراهيم السقاف، ولكن كرهاً بالاسم الذي يحمله، وهو اسم القائد رفلس، وبالقوم الذين يديرونه، وهم من قوم رفلس والناس في سنغافورة يكرهون (الرفاليس) جميعاً.



فتاة أندونيسية تتلو كتاب الله



نبات الكوبرا في أندونيسيا

والفندق كبير، وله حديقة فخمة وأنت ترى صورة جانب منها[1] مع هذا المقال، يبدو فيها طائفة من غرائب الأشجار. وفي سنغافورة من ألوان الزهر، ومختلف الورود، تحمله الأشجار الكبار، صيفاً وشتاءً، ما لا مثيل له في بلادنا، فالشجر العالي في يسار الصورة هو النارجيل: جوز الهند، وفي الأيمن النخل، وهذا الشجر الذي يبدو في الوسط، هو أعجب شجر رأيته ولست أعرف اسمه وأغصانه (كما ترى) صفّ كأصابع الكف، بل هو لا يختلف في شيء عن مروحة من المراوح الصينية قد فتحت.

سرقونا:

والفندق فخم الفرش، واسع الغرف لكن طعامه من أسوأ الطعام، وقد سرقونا فيه من أول ساعة. أعطيتهم البذلة لكيها، والكي وصبغ الحذاء يكون عادة في الفنادق الكبيرة مجاناً، محسوباً مع أجرة الفندق، أو يكون بأجر زهيد فأخذوا مني أجرة كي البذلة الواحدة نحواً من جنيه استرليني، وكانت كل ليلة في الفندق لكل واحد منا بخمسة جنيهات.

وذهبنا ندور في البلدة، فإذا هي جميلة نظيفة، بالغة الأناقة، والمواصلات فيها كثيرة وسائلها، متعددة أنواعها من الركشة إلى الأتوبيسات ذات الطبقتين، والمرفأ فيها من أعظم مرافئ الدنيا، وأوسعها وهو أكبر مركز تجاري وحربي في آسيا، أو من أكبر هذه المراكز، تقف عليه كل سنة ستة آلاف سفينة، قادمة من عشرين دولة، فإذا تركت المرفأ وسرت في الشارع المفضي إليه، وجدت عمارة المحكمة العليا وهي بناء فخم، له واجهة قائمة على أعمدة عالية، وعلى ظهر البناء قبة مشمخرة من أرفع ما رأيت من القباب، ومن حولها الأبنية البارعة، وقد بنى الإنكليز في هذه البلاد بناء من ظن أنه سيقيم في البلد إلى الأبد، ومن روائع آثارهم، بل من روائع الأبنية في الدنيا، قصر نائب الملك في دهلي، ودار البلدية في كراتشي، والمحكمة العليا والعمارات العظيمة في بومباي، عروس الشرق.

ووراء المدينة من جهة البر البساتين والحدائق، فإذا جزت بها وجدت

(١) تراها مع الصور في آخر الكتاب.

بين الجزيرة أي سنغافورة، وشبه جزيرة الملايا، مضيقاً لا يجاوز عرضه عرض نهر دجلة، عليه جسر ثابت يوصل إلى مدينة جوهور.

الصينيون:

وأكثر السكان من أهل الصين، والأسواق ممتلئة بهم، تعرفهم من الحروف الصينية على مخازنهم، ومن هيئاتهم وملامحهم، ونساؤهم يشاركن الرجال الأعمال كلها، ولباسهن هذا الإزار الضيق الذي وصل مع الأسف إلى نسائنا، وهن يتخذن له شقين من الجانبين فتبدو منه أفخاذ المرأة أو أكثرها لا يرين في ذلك بأساً، وهن يمارسن كل عمل، ولست أدري من يتولى عنهن أمر بيوتهن، فإن طلبت سيارة وجدت مكان السائق امرأة صينية، وإن أردت أن تحلق شعرك وجدت بدل الحلاقين نساء صينيات، وفي الدكاكين بائعات من أهل الصين، والصينيون شعب تجاري بارع وأولادهم يحملون السلع في الشوارع، يعرضونها على السياح والأجانب بأساليب عجيبة، وقد تعلق بي صبي صيني صغير ليبيعني علاوة للنظارات لا أحتاج إليها، ولم يزل بي يكلمني بلغته كلاماً لا أفهمه، ويدل بإشارات وجهه وحركات يديه على ما يريد، ثم وثب ليضع العلاوة على نظاراتي، فضحكت منه، وأعلنت الهزيمة بعدما سار معي دقائق، فباعني العلاوة على رغم أنفي، ولم يأخذ مني إلا ثلاثة أضعاف ثمنها فقط لا غير!.

وسنغافورة ميناء حر، مثل هونغ كونغ، ليس فيها مكوس ولا جمارك، لذلك تجد فيها منتجات الدنيا كلها، تباع البضاعة فيها بأقل من سعرها على باب المعمل الذي صنعها، وقد اشتريت منها أشياء بربع ثمنها في جاكرتا وعشر ثمنها في كراتشي.

المطاط:

كل شيء فيها رخيص، وأرخص ما فيه مصنوعات المطاط، ومنها ومن أندونيسيا، يأتي ثلاثة أخماس مطاط العالم، وشجره يشبه شجر الأوكالبتوس الذي يملأ شوارع دمشق، ونسميه الكينا، ولكنه أكبر ويكون منه غابات، وهم

يشقون جذع الشجرة فيسيل منها ماء قليل يجمعونه في أوان، ويحملونه إلى المعامل فيعالجونه فيها، ولم أزر معامله لأرى ما يصنعون به حتى يصير المطاط الذي نعرفه.

الحركـة الوطنيـة:

وكانت الحركة الوطنية في الملايا على أشدها لما زرناها، فكان الوطنيون يخرجون ليلاً إلى الغابات فيفصدون الشجر، ويسيلون ماءها هدراً، على رغم ما يتخذ الإنكليز من وسائل لحراستها، لأن أكثرها ملك لهم أو لمن يلوذ بهم.

والأحزاب الوطنية كثيرة، وأكبرها حزب (أمانو) واسمه الحزب الوطني الاتحادي، ولم يكن يرى التعاون مع الحكومة، يؤيده الحزب الصيني الكبير، وهو حزب (صيني ملايا) أي الحزب الصيني الملاوي، وحزب فارتي نكارا، أي حزب البلاد، وكان رئيس أمانو (توكو عبدالرحمن فترا) وقد لقيته في حفلة فلسطين وسيأتي حديثها.

اللغـــة:

واللغة الشعبية في المـلايا، هي المـلاوية، لغـة أندونيسيـا، وهي لغة عجيبة سهل تعلمها، يرى علماء اللغات أنها ستكون في الشرق كالإنكيزية في الغرب، وليس فيها تصريف، ولا ماض ومضارع وأمر، وهم يأخذون المصدر فيُضمون إليه الضمائر والظروف فإذا أراد المرء أن يقول أعطي مثلاً، يقول أنا عطاء، وإن أراد أن يقول أعطيت، يقول: أنا عطاء أمس وأنا عطاء أنت أمس، مكان أعطيتك والجمع يكون بتكرار اللفظ مرتين فكلمة (سودارا) مثلاً معناها (أخ)، فإن قال: «سودارا سودارا» كان معنى ذلك (إخواني)، والعدد يكون بالأرقام المفردة فإن أراد المرء أن يقول مئة وسبع وخمسون، قال واحد سبعـة خمسة، ولفظ الأعـداد من واحد إلى تسعـة هي (ساتـو، دوا تيغا، أمبات، ليما، اومان، توجو، دولابان، سامبيلان).

مدارس العرب:

وفي الملايو نحو ثلاثة ملايين من المسلمين، وقريب منهم من غير المسلمين، وعدد العرب قليل وأكثرهم من الحضارمة، وهم مختلفون، منهم العلويون الذين يدعون أنهم سادة أشراف، ومنهم من ليس له مثل هذه الدعوى، مع أن قيمة الإنسان في دين الإسلام بعمله وتقواه لا بنسبه، والكريم هو التقي، والشريف هو الذي يكون شريفاً في معاملته وفي سلوكه، ثم إن طائفة من هذه الأنساب التي يدعى فيها الاتصال بالرسول ﷺ ليس لها ما يثبتها ويؤكدها.

وللعرب مدارس دينية، زرت بعضاً منها فحسبتني والله في مدرسة شرعية من مدارس دمشق قبل ستين سنة، يقرأ فيها الطلاب ما يقرأ في هذه المدارس، النحو والصرف والفقه والتجويد والحديث والتفسير. الكتب هي هي، والأساليب هي هي، والأزياء هي هي، لا يختلف شيء فيها عما كان في مدارس الشام ومصر.

جوهور:

قلت لكم إن بين سنغافورة والملايا جسراً ممدوداً فوق البحر، فإذا قطعتم هذا الجسر، وتقوم وسطه الحدود وفيها الجمارك، التي تخلو منها الجزيرة، رأيتم تسع سلطنات، فيها تسعة سلاطين، لم يأت بها اختلاف دين ولا جنس ولا لسان، ولا جاءت بها إرادة الشعب، ولكن مصلحة المستعمر، وأقربها من سنغافورة وأكبرها سلطنة جوهور.

وكنا كلما وصلنا بلداً، ألقينا فيه الخطب والمحاضرات للتعريف بقضية فلسطين وشرح أدوارها، ثم عملنا على تأليف لجنة لفلسطين فيها، وكانت الحفلة قد أقيمت في عاصمة جوهور، وهي بلدة صغيرة ما بينها وبين سنغافورة إلا هذا الجسر، ليس لها عظمة سنغافورة، ولا ضخامة بنيانها، ولكنها بلدة شرقية هادئة، أحسست فيها بالأنس والاطمئنان، وكانت الحفلة في ناد كبير فيه مسجد واسع، وكانوا قد أوصوني وأنا في الهند، ألا أتكلم عن

الإنكيز في سنغافورة، لأن سنغافورة مستعمرة إنكليزية، وليس من مصلحة القضية، كما قالوا أن أتكلم عنهم في بلاد الحكم فيها لهم، وسمعت ذلك منهم، وكتمت أمراً فلما كانت الحفلة وقمت لأخطب قلت للحاضرين:

لقد أوصوني ألا أعرض للإنكليز بشيء، ولا أذكر شيئاً عما عملوه في فلسطين، وما كاد المترجم ينقل هذه الجملة إلى الحاضرين وهم آلاف حتى ضجوا ضجة عجيبة، وتكلموا بكلام ترددت فيه كلمة أمانو، وإذا نحن في نادي حزب (أمانو)، وهو الحزب الذي يناوىء الإنكليز، ويقاومهم، ويناضل لاستقلال البلاد، وإذا الضجة احتجاج منهم على هذه الوصية وإلحاح على أن أقول عن الإنكليز ما أريد، ولم أكن احتاج إلى أكثر من هذا، فانطلقت بخطبة وصفت فيها نكبة فلسطين، ومصاب أهلها، ووفق الله فكان من أثر الخطبة أن أفلتت الدموع من الحناجر، وعلا صوت البكاء، ونزع السيدات والله حليهن، وقدمنها، وألقى الرجال ما معهم، وكان من خطتنا ألا نستلم قرشاً واحداً، فسلم ما جمع إلى لجنة من أهالي البلاد، لترسله إلى فلسطين.

وأذن المغرب فقام الحاضرون جميعاً إلى الصلاة، ولقيت رئيس الحزب، فإذا هو أمير من الأسرة التي تحكم إحدى هذه السلطنات هو توكو عبدالرحمن فترا والسلطان شقيقه، ولكنه آثر العمل لمصلحة بلاده، وخدمة أمته، على أبهة الملك والقاب الشرف.

أمـــانـــو:

وكان حزب (أمانو) قد قرر قبل يوم الحفلة التي خطبت فيها مقاطعة الوظائف الحكومية، وكان هذا الأمير رئيس المجلس التشريعي، وله راتب ضخم، ومنزلة عالية، وكان نائبه الدكتور إسماعيل وزيراً فاستقالا وتبعهما كل الموظفين من حزب أمانو.

و(أمانو)، كلمة مشتقة من أوائل كلمات الحزب الوطني الإتحادي باللسان الملاوي.

المسجـــد:

وذهبنا بعد الحفلة إلى مسجد جوهور وهو في بقعة لم أر أجمل منها ولا أهدأ، هضبة مستوية كأنها قبة ضخمة، فيها الأشجار الإستوائية البارعة الجمال، المتعددة الأزهار، التي لا نظير لها في بلادنا، تتخللها بقاع مكشوفة، أرضها خضراء لينة كأنها سجادة فاخرة، وفي وسطها المسجد وهو من الرخام الأبيض الناصع، نظيف نظافة عجيبة، والمكان هادىء حتى ليسمع الإنسان فيه صوت السكون.

ولكن ما كل ساكن هادىء هذا الهدوء مستحب مطلوب فالسجن الإنفرادي فيه الهدوء كله ولكن ما فيه السعادة ولا فيه الأنس، في عالم تداخلت فيه الأصوات، أصوات السيارات في الشارع، والآلات في المعمل، والناس في السوق، والأولاد في المدرسة، حتى تكاد تتحطم فيها الأعصاب، وحتى تمنى المرء مخلصاً منها، وأين تجد المخلص إلا في الصحراء، ولكن الصحراء لا ظل فيها ولا ماء.

فلما جئت هذا المكان قصدت الهدوء وأمان النفس واطمئنان القلب، في بقعة جمعت جمال الطبيعة التي طبعها الله، وجلال الدين الذي يعبر عنه المسجد وطيب الصحبة مع هؤلاء الإخوة الكرام، وفي مقدمتهم الرجل العالم الصافي النفس الرفيع الأدب، المفتي الذي أحببته من أول نظرة.

وقد صلينا فيه ثم ذهبنا إلى دار المفتي السيد علوي بن طاهر الحداد، وهي على الهضبة بعد المسجد، وكان مجلس علم ومذاكرة ونكت ونوادر، والمفتي رجل حضرمي عالم حاضر النكتة عذب الحديث أعلم من لقيت منذ خرجت من الهند متجولاً في جنوب آسيا إلى أن رجعت إليها.

الكلية الإسلاميــة:

وكانت الهيئات الإسلامية عاملة على تحقيق مشروع عظيم، هو إنشاء كلية إسلامية، قدر لبنائها مليون دولار ملاوي، والدولار أو الربية الملاوية يزيد عن الليرة السورية شيئاً قليلاً. وقد كان أول من سعى إلى إنشائها

الشيخ عبدالعليم الصديقي الداعية الإسلامي المعروف، لمحاربة المدارس التبشرية الأجنبية، وقد بلغني أنه تم جمع المبلغ بعد سفري وافتتحت الكلية.

تبرع ضخم:

وكان قد سبقه مشروع آخر هو بناء مسجد كبير له مدرسة فتبرع سلطان بروني بخمسة ملايين ربية للجامع، ومليون لمدرسته وهذا السلطان يملك من البترول الذي ظهر في بلاده ثروة لا تحدها الأرقام.

يقظة المسلمين:

والمسلمون في الملايا من أكثر المسلمين يقظة وانتباهاً، يقومون بالدعوة إلى الإسلام، وقد رأيت في رياسة الشؤون الدينية في جوهور دائرة خاصة للدخول في الإسلام، يزدحم على بابها الصينيون، ليعلنوا دخولهم فيه، وهم مقبلون على إنشاء المدارس والمساجد والكليات الإسلامية، ويبذلون لذلك الأموال الوفيرة، ولما كنت في سنغافورة كانت هنالك معركة الحروف اللاتينية والعربية، واللغة الملاوية كانت تكتب بحروف عربية كاللغة الفارسية اليوم واللغة الأردية، فحولها الهولانديون في أندونيسيا إلى الحروف اللاتينية، فلم يبق من يكتبها بالحروف العربية اليوم إلا الكهول والشيوخ، وأراد الإنكليز أن يصنعوا ذلك في الملايا فأباه المسلمون عليهم.

دعوة للعرب:

وليس ينقص هذه البلاد إلا العلماء والدعاة إلى الله، ولو أن البلاد العربية قد أدت أمانة تبليغ الإسلام في هذا العصر، كما أدتها من قبل حين خرج العرب من صحرائها يحملون هذا النور، تحت راية محمد ﷺ ينشرونه في الأرض لو أنها سلكت اليوم سبيلهم، ومشت على سننهم، وبعثت بعثات من العلماء إلى أقطار الإسلام كلها لعاد لنا مجد الماضي، ولرجعت لنا عزة الجدود، ولكتبنا في التاريخ مرة ثانية مثل هاتيك الصفحات.

إن في باكستان ثمانين مليوناً من المسلمين[1] وفي الهند أربعين مليوناً، وفي الملايا وأندونيسيا وسيام وسيلان (وهما اليوم تايلاند وسريلانكا) أكثر من مئة وعشرين مليوناً، وهؤلاء كلهم لا يحتاجون ليكونوا عالمين بالإسلام ناطقين بالعربية، إلا إلى معلمين يعلمونهم لغة القرآن.

وبعد فهذه كلمة عن سنغافورة التي مشت اليوم في طريق الاستقلال، وهي آخر معاقل الاستعمار في آسيا، فإذا نزح عنها لم يبق فيها كلها مستعمرة أجنبية إلا هذه الضيعة التي لا يزال البرتغاليون يزعمون أنها لهم، لا يدرون أنها قد تغيرت الدنيا، ودار الفلك وطوي كتاب الاستعمار إلى الأبد.

---

(١) كتب هذا الكلام سنة ١٩٥٤.

رفيقي في الرحلة

كان الأستاذ الصواف معنا، فاضطر إلى الرجوع من كراتشي، والأستاذ الصواف هو المحرك لهذا المؤتمر، ولولا المحرك (الموتور) لوقف المصنع كله بآلاته وأجهزته، ولولا الصواف لتوقف المؤتمر. وهو الذي دبر أمر الرحلة، وهو الذي أعدّ كل شيء لها، وكان يعد كل شيء فيها. ولما فارقنا، صحبنا الأستاذ الدكتور أمين المصري، فمشى معنا إلى جاكرتا ولكنه اضطر كذلك إلى العودة، فبقيت أنا والأستاذ الجليل الشيخ أمجد الزهاوي، وكان هو رفيقي (أو كنت أنا رفيقه) في بقية الرحلة، من جاكرتا إلى جوكجا إلى سورابايا، إلى كراتشي. وقد استأذنه قبل أن أنشيء هذا الفصل، فأدون فيه ما له وما عليه، فأذن لي.

وأنا أشهد قبل أن أبدأ أن الشيخ هو بركة العصر، وإني لا أعرف في العلماء مثله، وأني استفدت من صحبته فوائد كثيرة في خلقي وفي تفكيري.

عرفت الشيخ أو كان لما عرفته في الكلية الشرعية (في الأعـظمية) وكـان استاذاً فيها، وكنت أدرّس فيها الأدب، وأنام فيها، وذلك سنة ١٩٣٧ أو قريباً منها، ثم تركت العراق وعدت إلى الشام فلم أره إلا في المؤتمر.

ولقد عجبت من هذا النشاط الذي عراه في شيخوخته، في السن التي يخمد فيها في نفوس أهله النشاط، وعهدي به أنه كان قاضياً منعزلاً منفرداً بكتبه وتلاميذه وأولاده، وَلِيَ قضاء الموصل أمداً، فما عرف فيها أحداً. فلما ترك العمل وبلغ السن التي يستريح فيها أمثاله، انتفض انتفاضة، فإذا هو يرجع شاباً، شاباً في جسده، وفي همته، وإذا هو ينتقل بقفزة واحدة من حياة بلغ فيها الغاية في العزلة، إلى حياة بلغ فيها الغاية في الاختلاط، وإذا هو

رئيس جمعية انقاذ فلسطين، ورئيس جمعية الآداب الإسلامية، ورئيس جمعية الأخوة الإسلامية، ورئيس جمعية التربية الإسلامية، وإذا هو يصلح مدارس الأوقاف، ثم يفتح مدرسة ابتدائية وثانوية أهلية. وإذا هو يرحل إلى الهند أولاً وثانياً، ويرحل مرات ومرات إلى الشام والحجاز ومصر.

وكانت له في نفسي صورة لست أدري من أين دخلت إليها، هي أنه شيخ عنيف متشدد في رأيه، فلما رأيته في المؤتمر، وسلمت عليه وذكرته بنفسي، فقال لي:

ـ أنا لا أذكرك.

ثبتت له هذه الصورة واغتظت، (لا أكتم القارىء) ونفرت منه، وحسبت ما بدا منه من الكبر والترفع والاعتداد بالنفس وتجاهل الناس، ثم علمت بعد (لما صحبته) أنه كثير النسيان، وأنه صادق لا يعرف المداهنة ولا المجاملة، فإذا كان لا يذكرني، فيستحيل أن يقول لي أنه يذكرني، أو أن يجامل فيسكت إيهاماً وتضليلاً.

وقد ينسى من أمور الحياة القريب منها والبعيد، أما مسائل العلم فهو يذكرها مهما طال المدى.

وأخذت آلفه ثم أحببته، ثم حلّ من نفسي من التجلة ومن المحبة محلاً لم يحتله إلا القليل ممن لقيت من الرجال.

ولما رأيته في المؤتمر، بهذه العمامة المشوشة، التي اتسخت جوانبها من كثرة العرق، واحمرت من صبغ الطربوش، ورأيت ثيابه الرثة، وشعره الذي لم يعرف الحلاقة من شهور، ظننته فقيراً، حتى لقد سألته إن كان يسمح أن أجيئه بقميص، فأحسّ بما وقع في نفسي، وقال:

ـ أفندي. ظننتني فقيراً، أنا أملك ستة عشر ألف دونم.

وعلمت من بعد أن له ذلك كله، ولكنه لا يباليه ولا يفكر فيه، ورأيته لما كانت الرحلة قد تركه ومشى في سبيل الله، ولما فاض دجلة وغرقت بغداد كنا في كراتشي، فحاولت مراراً أن أسأل عن مصير أرضه، هل غرقت مع ما غرق، أم هي قد سلمت مع ما سلم، فكان يغضب ويقول:

ـ إني خرجت في سبيل الله، فلا تشغل ذهني بها.

ورأيته لا يبالي طعاماً، إن جئته بطعام أكل من طيباته، وإن لم يجد صبر، وكان لا يقول لشيء منه: هذا طيب، ولا لشيء منه: هذا رديء، بل يأكل كل ما يقدم إليه.

وكنت أنا على الضد منه، قلما أستطيع أن آكل في هذه الرحلة ما أجد، وطعامي في بلدي ألوان قليلة معدودة، فإذا تبدلت أو تبدلت طريقة طبخها لم آكلها، فلذلك كنت القى منه عنتاً، وهو والحمد لله صحيح الجسم، قوي المعدة، وأسأل الله أن يديم عليه ذلك، فلا يبالي اختلاف ألوانه، ولا تبدل مواعيده، وإن تركته بلا طعام لم يذكر الأكل، ولقد حسبت ذلك تظاهراً منه، فأحببت مرة أن أختبره وهو لا يدري لأعلم أيتجاهل أم هو لا يدري حقيقة، فقلت لغلام الفندق: الشيخ لا يريد اليوم طعاماً. فلم يأته بطعام، فلم ينتبه ولم يسأل.

ولما شك في الطعام في الهند، لأن الدار دار مجوس، ليست دار أهل كتاب، بقي شهرين لا يذوق إلا الخبز والشاي وهو يشكو القبض حتى مرض.

ولباسه ما قد رأيت وسمعت. أما المال فلا يباليه، والجاه لا يلتفت إليه، وطالما دخلنا على ملوك وأمراء، فكانوا يقدمونه ويمدحونه فلا يزدهيه المدح ولا يؤثر فيه التقديم، لأن همه كله الأمر الذي رحل من أجله وهو فلسطين.

وأمره في الوضوء والصلاة عجب، فهو موسوس في الطهارة لا في النجاسة، فإذا لم ير النجاسة عياناً لم يبال، لذلك كان يصلي على الأرض، وفي ممر الطيارة، ولكن المصيبة فيما إذا تحقق النجاسة، وهنالك وسوسته وشكه. ولطالما كنا على موعد مع ملك أو رئيس جمهورية أو رئيس وزارة أو في مؤتمر صحفي، فكان يخرج ونصف جبته مبتل، يقطر منه الماء، فإذا لمته قال:

ـ أفندي. تنجست!.

وإذا سمع داعي الله ودخلت الصلاة، قام من فوره أينما كان وكيفما كان، فهو يترك المائدة الملوكية والحفلات الرسمية، رأيت هذا منه مراراً: على مائدة الملك حسين في عمان، ومائدة رئيس وزراء باكستان، وفي حفلات رسمية عديدة، ويراه شيئاً عادياً ولا يفكر في مخالفته للعرف، ولا يمكن أن تجعله يعدل عنه، أو يغيره. وأدركنا رمضان في سفر، وفي مناطق إستوائية فلم يفطر رغم الحر والسفر. وهو في الحقيقة رجلان مختلفان، إن جئت للعلم، وجدت له ذهناً نفّاذاً عجيباً، يخترق كل معضلة علمية، لا بالرأي المقول بل برأيه هو، ولقد بقيت معه أكثر من سبعة أشهر، وكنت أجالسه كل يوم أربع ساعات أو خمساً على الأقل، يتكلم فيها على الغالب وحده، وهذا يزيد (إن صح حسابي) على ألف ساعة فما سمعت منه من الأحاديث المعادة أو الآراء المكررة إلا القليل، وربما ذكرت بالمناسبة بعضاً من آرائه في هذا الكتاب ولكنه إلى جانب ذلك لا رأي له في المشكلات اليومية، ولا يحاول أن يعالجها. وربما ترك الطريق اللاحب المستقيم وسلك الطريق المعوج. لما كنا في كلكتا ترددنا بين الذهاب إلى دهلي أو الذهاب إلى بومباي، فقال: إنه لا نفع لنا من دهلي، وذهبنا إلى بومباي، ثم نصح له من فيها بالعودةإلى دهلي، فعدنا إليها واضطررنا أن نقطع عرض الهند مرتين، وكانت أقرب إلينا لو قصدناها أولاً.

وأغرب من هذا أنه كان بين دهلي ولاهور، مثل قاعدة المثلث المتساوي الساقين ورأسه كراتشي، فسألته ونحن في دهلي: أنزور لاهور؟ قال: لا. فلما وصلنا كراتشي، قال: إلى لاهور، فقلت: أنا: لا.

وهو ينقاد فيما لا يعرفه كالطفل. كنا نركب الطيارة فأقول لـه: شد الحزام، وأنسى أن أنبهه لحله إذا طارت الطيارة، فيبقى الساعة والساعتين وهو مربوط، فيقول: أفندي، هذا الحزام!.

فأفكه له.

وورعه الورع الحق لا ورع التظاهر والرياء. كان ينفق عن سعة من أموال الجمعية في السفر والفنادق، ولكن لا يرى إنفاق قرش في حلاقة رأسه

مثلاً، لأن ذلك ليس من نفقات السفر، ولولا اني أقسمت له مرة في بومباي أن أدفعها مني ما حلق.

وكانت رحلته لقضية فلسطين، فإن لم يكن للقضية مصلحة من المقام في بلد لم يقم فيه يوماً، ولم يمش في غير هذا المقصد متراً حتى أن (تاج محل) أجمل بناء على ظهر هذه الأرض، لم يره ولم يمكني من أن أراه[1]، وقد كنا في دهلي وهو في أكرا وبيننا وبينه ساعتان في السيارة، والناس يقصدونه من أقاصي الدنيا، لأنه لا مصلحة للقضية في رؤية (تاج محل).

وإذا وقف للصلاة، نقى قلبه ثم صرخ (الله أكبر)، فتحس أنها قنبلة ألقيت في وجه الشيطان. وهو يكره المتفرنجين ويألف المشايخ، يجلس حيث يجلسون على الأرض، ويأكل بالأصابع، وأنا لا استطيع أن آلف هذا الأسلوب ولا أسلوب الإفرنج في الولائم الرسمية فكنت أتضايق في الحالين.

وهو يكره تقليد الإفرنج، مع أنه يروي عنهم ويقرأ كتبهم، ويضيق صدره إن حدثته عنهم، أو قلت له ما يشتم منه رائحتهم، لا سيما فيما لا يعرف من أمورهم.

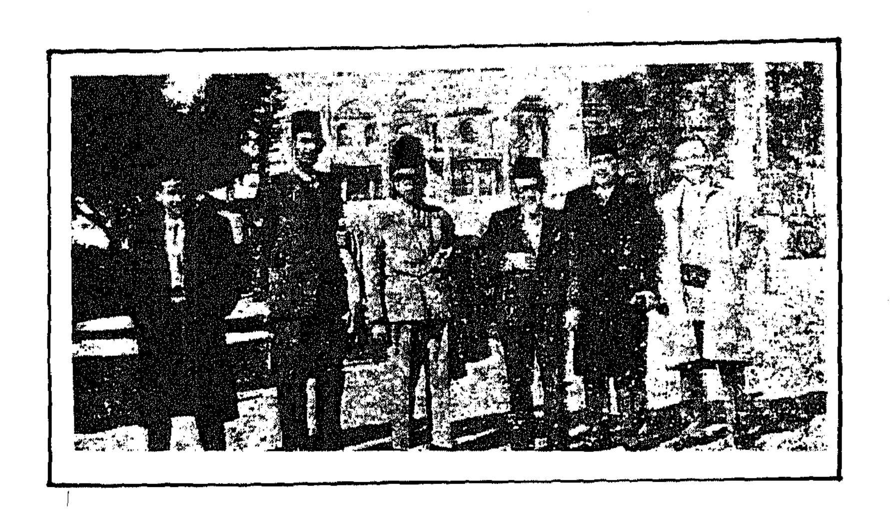
وهو لا ينتظر تمام الجملة، ولا يرقب الشرح بل هو يثور بك ويسكتك لما دخلنا بومباي، وتلقانا الرجل الطيب الكريم الذي منّ علينا السيد عبدالله البسام، سألنا: هل تنزلون (بنسيونا)؟ فغضب الشيخ وحسب البنسيون مأخوراً أو نحوه... وحاولت أن أشرح له ما هو (البنسيون) فما تركني أتكلم.

أما ذهوله ونسيانه فعجب من العجب. ولقد جمعت في فصل من كتابي (صور وخواطر) بعض أخبار الذاهلين النسائين من العلماء، ولكني ما وجدت فيهم مثله، إنه ينسى ما كان قبل نصف ساعة، ويذهل عما حوله.

زرته في الفندق في إحدى قدماته دمشق، وكان يوماً بارداً، وكان بقميص رقيق مشقوق الصدر، فقلت له:

---

(١) ووصفي له في كتاب رجال من التاريخ، كان على السماع من الصديق الشاعر عمر أبي ريشة.



الوفد الأندونيسي في المؤتمر الإسلامي بفلسطين



المؤلف (إلى اليسار) وهو يشرح قضية فلسطين في محاضرة في جوكجا، وإلى جانبه المترجم الأستاذ السعيدي

ـ ألا نشتري لك قميص صوف؟ قال: لا.

ـ قلت: أفتش في الحقيبة لعل معك قميصاً.

ـ قال: لا، ما معي.

ـ قلت: هل أفتح، فأنظر.

ـ قال: أفندي، ما معي.

ففتحت فوجدت قميصين. فتعجب وقال:

ـ ما أدري والله من أين جاءا.

واحتاج إلى طبيب وهو في دمشق، فأخذته إلى الطبيب الفاضل الدكتور الطرقجي، فأكرمه وداواه وتأدب معه.

وخرجنا. فما مرّ نصف ساعة حتى لقينا الدكتور في الترام، فسلم عليه الشيخ سلام منكر. فقلت:

ـ ألا تعرفه؟.

فتوسمه، وقال:

ـ يمكن شايفه مرة، ولكني لا أعرفه!.

وقال لي مرة، ونحن في بومباي: إذهب بنا إلى القنصلية السعودية ثم إلى العراقية، فذهبنا وكانت القنصلية العراقية على طريقنا فقلت:

ـ ندخل هذه أولاً؟

ـ قال: بسم الله.

فدخلنا، وجلسنا جلسة طويلة، وتحدثنا عن العراق وأهله، فلما خرجنا، قال:

ـ (يلا بنا) إلى العراقية. ـ قلت: كنا فيها. ـ فغضب وقال:

ـ ليش ما تقول لي؟ أنا أحسبها السعودية.

ـ قلت: أما رأيت العلم؟ وصورة فيصل؟ أما حدثتهم عن بغداد؟

ـ قال: ما أدري حقيقة.

ولكنه إلى جنب هذا يذكر من مسائل العلم ما قرأه من ستين سنة، كما يذكر ما قرأه من يومين. وهو فقيه حنفي متمكن، وله مشاركة في كل علم. كان محامياً، ثم صار قاضياً، ثم أمضى عشرين سنة رئيساً لمحكمة التمييز، وأستاذاً في الحقوق في بغداد، ومدرساً في مدرسة قديمة من مدارس الأوقاف هي المدرسة السليمانية، ثم منع القانون الجمع بين الوظائف، وخيّر بينها فاختار التدريس في المدرسة الوقفية لأنها مدرسة أبيه، ولأن العمل فيها لله وللآخرة، وترك لها رياسة التمييز.

وكان الشاعر الكافر الزهاوي عمه، ولكنه قاطعه وهجره، وأبغضه في الله، ولم يخرج في جنازته لما مات.

هذا هو الرجل الذي كان لي شرف صحبته، فكسبت منه علماً وديناً وخلقاً.

أطال الله بقاءه، وأدام نفعه، وأكثر من أمثاله.

في جاكرتا

يسافر المرء من دمشق إلى حلب، أو من القاهرة إلى أسيوط، فيشكو بعد الشقة، وطول السفر، ويقول: متى نحط الرحال، وينتهي الترحال، فكيف بنا وقد سافرنا في رحلة واحدة من كراتشي، في غربي القارة الهندية، إلى جاكرتا في غربي جاوه.

رحلة لو كانت على أيام ابن بطوطة لأكلت من عمره سنة ، ولو كانت من نصف قرن لاستغرقت شهراً، قطعناها في أقل من عشرين ساعة، نرى الأرض تطوى من تحتنا، ونبصر البلاد كأنها في (مصور) مجسم موضوع على المكتب، ونحن مشدودون إلى المقاعد، لا نمشي إلا هذه الأمتار المعدودة بين المقعد والمغسلة، أكلنا ولبثنا حتى جعنا، ثم أكلنا ولبثنا حتى جعنا، ونمنا وأفقنا، وتكلمنا حتى مللنا فسكتنا، وسكتنا حتى مللنا السكوت فتكلمنا والطيارة ماضية بنا حتى إذا بلغ السأم منا، قالت المضيفة:

ـ اربطوا الأحزمة، هذه جاكرتا.

فصحونا، وجعلنا ننظر من نوافذ الطيارة كحالنا كلما وردنا بلداً جديداً، وأجمل ما في ركوب الطيارة منظر الأرض حين ندنو منها، ونسفّ لنحط فيها ننظر فإذا نحن نمشي على ظهور البيوت ونثب على المآذن والمداخن كأننا نطير في المنام ونظرنا فرأينا البلدة بساتين واسعة، فيها بيوت صغيرة ملونة، وجعلنا نبتدر النزول، ونتسابق إليه والمسافر يصبر الطريق كله، فإذا قرب الوصول، وبدا له المنزل، ضاق صدره، وتصرم صبره، وهذه طبيعة الإنسان:

وأشوق ما يكون المرء يوماً   إذا دنت الخيام من الخيام

المستقبلـون:

ولما مست أقدامنا الأرض، تشهدنا، وأقبلنا ننظر، وإذا في استقبالنـا وجوه القوم، وكيل وزارة الخارجية جاء باسم الحكومة، يستقبلنا ويـدعونـا لينزلنا ضيوفـاً عليها، ما بقينا في بلدها، وسفير مصر الذي رأينـا من نبله وفضله وتواضعه ما لا ننساه قط، الأستاذ علي فهمي العمـروسي، والقائم بأعمال المفوضية السعودية الأستاذ عزة الكتبي، وهو أخ وفيّ، وعربي نبيل، ولم يكن في جاكرتا من ممثلي الدول العربية يومئذ غيرهما، وزعيم عرب أندونيسيا السيد علي سنكر وآخرون إذا لم أذكر أسماءهم، فإني أذكر كرمهم وفضلهم.

الصـــلاة:

وكان العصر قد أذن، وما يشتغل الشيخ أمجد حفظه الله إذا دخل وقت الصلاة إلا بالصلاة، سواء لديه أين كان، ومع من كان، ولقد كـان على مائدة الملك حسين في عمان يوم دعا أعضاء المؤتمر الإسلامي (وقد اعتذرت فلم أحضرها) فسمع الأذان، فترك الطعـام وقام، لا يصنـع ذلك تـظاهراً وتفاخـراً، ولا يخـطر له التـظاهـر عـلى بـال، بـل يفعله لأنـه يـراه الشيء الطبيعي[1]، لا يفكر لم يفعله.

فلما وصلنـا إلى المستقبلين، أقبلوا يسلمـون علينـا، وهـو يصـافحهم مشغول الذهن، يتلفت يسألني:

ـ أفندي، أين نصلي؟.

ـ فقلت له: إن الوقت متسع، وسنصل في الفندق.

فغضـب وتركني، وسأل واحداً من المستقبلين عن القبلة فدله، فبسط جبته على أرض المطار، وقال: الله أكبر.

فوقفنا نصلي معه، نحن ووكيل الوزارة والسفير والقائم بالأعمال وأكثر المستقبلين، وكانت ساعة خشوع، وكانت خير فاتحة لأيامنا في أندونيسيا، إذ

---

(١) الطبيعي لا الطبعي.

ألقى الله محبة الشيخ وإكباره في نفوسهم، ومن أحب الله بامتثال أمره، واتباع شرعه، حبّبه إلى الناس، وأعلى منزلته فيهم.

إلـى الفنـدق:

ومشينا في شوراع تظللها الأشجار الكبار، وتكتنفها البساتين، تخفي البيوت الملونة، فتبدو من خلال الغصون والأوراق، كأنها فكرة تلوح لكاتب.

أما الفندق الذي أخذونا إليه، فهو فندق الشركة التي جئنا بطياراتها شركة الـ (ك. ل. م)، وهي من أكبر شركات الطيران وأقدمها، ولكن فندقها هذا عجب، أنه يشبه ثكنة أو شيئاً كالثكنة، ولم أرَ مثله إلا الفندق الأميركي الذي نزلنا فيه في دهلي الجديدة.

وهو ساحة مربعة، حولها صفوف من الغرف، كل غرفة منها لها شرفة واسعة تفضي إلى غرفة أخرى للنوم فيها حمام، ووراء هذه الساحة ساحة أخرى وما شئت من ساحات مربعة وغرف محيطة بها، وكل ساحة تفضي إلى الأخرى كأنك في قصور الجن في حكايات ألف ليلة.

وكان علينا إذا أردنا الطعام أن نجتاز ست ساحات، ونمشي مثل ما بين الأموي وباب السلام..

والعجيب أن جاوة أزحم بلاد الدنيا بالسكان، لا أعرف لها مثيلاً إلا باكستان الشرقية[١]، وفيها ثلاثة وخمسون مليونـاً من الناس[٢]، في جزيرة لا تعدل ثلثي الأقليم السوري، وفيها أزمة سكن لا شبيه لها، وبيوتها مع ذلك من طابق واحد، أو طابقين..

الـدليـــل:

لقد تفضّلت علينا الحكومة الأندونيسية، فأنزلتنا ضيوفاً عليها، وربطت بنا دليلاً موظفاً من وزارة الخارجية، يتكلم العربية كما نتكلم بها نحن،

(١) بنغلادش.

(٢) يوم كتابة هذا الكلام.

وزوجته مصرية، وجعلت لنا سيارة، فأفسد هذا الدليل كل ما صنعته، وهدم كل الذي بنته. . .

دعانا من أول يوم ليدوّرنا في البلد، ولم يكن الشيخ يمشي إلا إلى اجتماع فيه منفعة للقضية التي جاء من أجلها، أو إلى عمل يفيدها، أما التفرج والتجوال، والتمتع والاطلاع، فلا يباليه ولا يلتفت إليه، فذهبت معه وحدي، فأراني البلدة كلها، وذهب بي إلى (بنشه)[1] في طريق جبلي طويل، وأدخلني مطعماً، لم أستطع أن آكل من طعامه شيئاً، وأكل هو كل شيء، ولما كان الحساب حلفت أنا فدفعت أجرة السيارة، وثمن الطعام، وصار ذلك قانوناً لنا، يأتي هو بالسيارة ويختار هو المطعم، وينتقي أغلى الطعام، فيأكل هو وأنظر أنا، فإذا جاء الدفع دفعت أنا ونظر هو، قسمة عادلة، وشركة مشروعة!.

ومضت على ذلك أيام، ثم علمت أن السيارة وضعتها الحكومة قيد أمري أنا، وإنه يقدم حساباً بنفقاتي كلها فيأخذها من المالية.. أي إنه يأكل على حسابي، ثم يزعم أني أنا الآكل، ويأخذ من الحكومة الثمن. . .

وكانت هذه مزية واحدة من مزاياه التي لا تعد ولا تحصى واسم هذا الموظف الصادق. . . الأمين. . . الذي اختاروه ليكون إعلاناً عن بلده وناطقاً بلسانها، اسمه (تاج الدين يوسف).

على أني أسارع فأشهد أنه لا يصلح مثالاً لإخواننا الأندونيسيين وأنهم أفضل وأجل من أن يكون هذا مثالهم، ولقد رأينا بعد من محا بحسناته سيئات هذا الرجل، وهو (الأستاذ محمد صالح السعيدي) الذي صحبنا إلى شرقي جاوة، مبعوثاً من وزارة الشؤون الدينية، فرأيت من استقامته وأمانته وعلمه، ما كاد ينسيني اعوجاج الأول وخيانته وجهله.

إلى الفندق الكبير:

وضاق صدري من هذا الفندق، فأفهمونا أنهم اختاروه لنا ريثما يفرغ الجناح الفخم الذي أعدوه لنا في فندق الهند Hötel des Indes (هوتيل دي

(١) وهي من أجمل ضواحي جاكرتا، وكل ضواحيها جميل.

زينـد)، وهـو فندق عظيم حقاً، رأينا الجناح الذي أعدوه لنا فإذا هو منزل ملوك لا فندق واحد من أمثالي، من عباد الله الفقراء. . .

الفندق عمارات منفصلة، بينها حدائق وبساتين، يشبـه في منظره وفي سعته الجامعة الأميركية في بيروت، لولا أنه بعيد عن البحر بنحو ألف متر.

وكان نزلنا في أعظم عمارة فيه، يصعد إليه على درج عريض من الرخام مفروش بالسجاد النفيس، وفيه غرفة نوم، فيها سرير عرضه ثلاثـة أمتار، يكفي لينام عليه العبد الفقير، الذي هو أنا. . . وأولاده جميعاً، ويبقى فيه متسع لثلاثة من أولاد الجيران. . . وإلى جنبها بهو استقبـال، فيه الآرائـك الضخمة المذهبة، والأثاث الملوكي، وله شرفة لا تقل في السعة ولا في الفرش عنه، تطل على حديقة من أجمل ما رأيت من الحدائق، تظللها أغصان الدوح الباسق، المزهر دائماً زهراً ما رأيته إلا في تلك المناطق الإستوائية.

وأبى الشيخ أن ينزل فيه، لأن إدارته أجنبية، وأصرّ على الإباء، فأنزلوه في فندق صاحبه عربي حضرمي، وهو دكاكين على الطريق صنعت لها أبواب ونوافذ، ووضع فيها مرحاض ومغسلة. . . وجاءها ساحر فقال لها:

ـ يا دكاكين، كوني فندقاً.

فكانت فندقاً. . .

حياتي في الفـندق الكبيـر:

والذي يقرأ هذا الكلام، ويرى أني نزلت في هذا الجناح العظيم، وإني كنت ضيف الحكومة، يحسب أني عشت فيه في النعيم المقيم، لا يدري أني كنت منه في جحيم.

ذلك أن من طبعي العزلة والابتعاد عن الناس، وإني لا أستريح إلا في حضرة النفـر القليل من الإخـوان والأصدقـاء، الـذين انـطلق معهم عـلى سجيتي، وأمضي على طبيعتي، هذا في بلدي وبـين صحبي فما بـالك ببلد غريب بين قوم أنا فيهم كالأخرس لا أفهم عنهم ولا يفهمون عني.

وكان الدليل الفاضل، يهرب بالسيارة من صباح كل يوم يركب بها أهله وأصحابه، وينفق عليهم ما (خصصته) الحكومة لي ولصاحبي، وأبقى وحدي، فأذهب إلى الشيخ، وبين فندقي وفندقه مسافة كيلين، فأجده يقرأ أو يسبّح، فأقعد عنده ساعة، ثم أمشي على غير هدى، لا أكلم أحداً ولا يكلمني أحد، ثم أعود إلى الفندق، أمضي الليل كله وحدي، مع هواجسي وأفكاري أرى الأسر الهولندية من حولي (وهم يقيمون في الفنادق دائماً) وحولهم أولادهم وبيني وبين أولادي ربع محيط الأرض، ولبثت على ذلك شهراً، كانت تمر عليّ فيه ليال أحس فيها بالجنون.

ومضى عليّ عيد لم أجد فيه من يقول لي فيه: السلام عليك، إلا السفير العمروسي والسيد الكتبي.

ولطالما أمضيت أياماً وأنا بلا طعام، أشتري (كعكاً) آكله مع الشاي، لأن الأجراس في الفندق معطلة، ومن أراد شيئاً اتصل بالإدارة بالهاتف فكلمها، فكيف تراني أكلمهم بالهاتف، وأنا لا أعرف لسانهم ولا يعرفون لساني ولا يرونني لأخاطبهم بلغة الإشارات، كما تفعل القرود في الغابات؟

وإذا نزلت إلى المطعم، وهو سلسلة أبهاء يضل الداخل إليها، آخذ قائمة الطعام، فلا أميز فيها حلواً من حامض، ولا حاراً من بارد، فأضع أصبعي كيفما جاءت، وأشير إليه أن يأتيني بما تحتها، ثم أرى (حظي) فربما جاء طعام يؤكل وهذا شيء أندر من النادر، وربما جاء خليط عجيب لا يساغ ولا يبتلع، وهذا ما يكون دائماً.

غـــداء:

وما أذكر أني فرحت بطعام في عمري كله، كما فرحت يوم دعاني السيد عزة الكتبي، القائم بأعمال المفوضية السعودية، للغداء، وكانت قد مرت عليّ أيام بلا طعام، إلا الكعك والشاي وما أجد من الفواكه، فوجدت عنده، فاصوليا كالتي نعرفها، ووجدت شيئاً أعجب وأغرب، شيئاً ظننتني لما رأيته في حلم.

خفت أن أصحو منه فلا أجده: فولاً مدمساً. فولاً حقيقياً في جاكرتا، جاءه بالعلب المختومة من مصر.

إنكم لا تعرفون مبلغ نعمة الله عليكم، إذ تستطيعون أن تلقوا من تكلمونه، وأن تجدوا ما تأكلونه، حتى تتغربوا مثلي، فتلبثوا سبعة أشهر لا تسيغون طعاماً ولا تملكون كلاماً.

ولما عرف السفير المصري ما نحن فيه، فتح لنا بيته، وأباح لنا مائدته، وأرادنا أن نجيء كل يوم، فكنا نؤم هذه الدار المباركة كلما ضاق بنا الصبر، واشتد علينا الأمر.

وأقام لنا متفضلاً حفلة تعارف كبرى، استعد لها، ودعا المئات من وجوه القوم، ووكل الدليل المحترم (يوسف) بتوزيع البطاقات، فأبقاها عنده، وأهمل توزيعها، ولم يحضر أحد!.

حمام بلا مغطس:

ولم يكن في حمام الفندق مغطس (بانيو)، وما فيه رشاش، بل هو حمام حسبت نفسي لما دخلته في واحد من حمامات دمشق القديمة، غرفة رطبة أرضها من الرخام، فيها بحرة صغيرة عميقة (مصنع)، يملأ بالماء، ويغترف منه المستحم بـ (الطاسة) التي يكون مثلها في حماماتنا، ويراق الماء على الجسد وحمامات الفنادق التي رأيتها في أندونيسيا كلها على هذا المثال، ولست أدري هل جاءهم من الهولنديين، أم اتبعوا فيه عادات البلاد.

شاي العصر:

ولقد كنا رأينا العجب في باكستان من تأخر المواعيد، فلا تبدأ حفلة في موعد افتتاحها ولا يسافر قطار في ساعة سيره، ومن وعدك بالزيارة الساعة الثامنة جاءك في التاسعة، أما أندونيسيا فكل ما رأيناه فيها مضبوط، وكل شيء يجيء في وقته، ومن عجائب الضبط أن شاي العصر، يأتيك به

الفندق الساعة الرابعة تماماً، لا يتأخر دقيقة ولا يتقدم دقيقة، وهم يلبسون الإبريق (البراد) غطاء كالسيدارة مطرّزاً منقوشاً، كما تفعل بعض ربات البيوت في دمشق ـ ولكنه يضعه أمام غرفتك ويمضي، لا يؤذنك به ولا يقرع عليك الباب، ولعلك تكون نائماً قد امتدت بك القيلولة فلم تحسّ به، ولعلك قد شغلت عنه فلم تنتبه له، فتشربه بارداً.

ومن عجائبهم أنك إن لم تطلب الشاي محلّى بالسكر، جاؤوك به بلا سكر، وإن لم تؤكد لهم القول بأنك تريده حاراً، حملوه إليك بعدما برد.

مشكلة السكان:

قلت لكم، أن جاوة لا تزيد مساحتها عن ثلثي مساحة الإقليم السوري، وكان فيها سنة ١٩٥٣ ثلاثة وخمسون مليوناً، يزيدون كل سنة ثمانمئة ألف، والجزر الأخرى تكاد تكون خالية، فليس في سومطرة (ومساحتها أكثر من ثلاثة أضعاف جاوة) إلا إثنا عشر مليوناً، وكلمينتان التي كانت تسمى بورنيو (ومساحتها نحو ضعف سومطرة) ليس فيها إلا ثلاثة ملايين، لذلك تعمل الحكومة دائماً على ترغيب الجاويين بالهجرة إلى إحدى هذه الجزر، تعطيهم الأرض فيها مجاناً، وتبني لهم قرى ومدناً، على أسماء قراهم ومدنهم، وتنقلهم إليها على حسابها، والناس يعرضون عن هذا كله ويتعلقون بمساكنهم.

حصاد الرز:

وجاوة خاصة، وأندونيسيا عامة، من أغنى بلاد الله بالثروة الطبيعية، فمن محاصيلها المطاط (ومنها ومن الملايا يصدر قريب من ثلاثة أرباع مطاط العالم)، والشاي والسكر والبن والتبغ وزيت النخيل، و (الكوبرا) وهو جوز الهند أي النارجيل وفول الصويا، وهو من الأطعمة المألوفة في أندونيسيا والبترول، ومنها يصدر أكثر من نصف قصدير العالم، والكينا، والخيزران، والأسماك المجففة، والفحم الحجري.

ولهم في زراعة الرز عادات عجيبة، منها احتفالهم بحصاده، يجمعون لذلك أجمل البنات، فيتخذن له أبهى الثياب وأزهاها، ويأتين ضاحكات مغنيات، فيكون هذا الاجتماع أشبه بمهرجان أو عيد، ومن عاداتهم أن من احتاج إلى حاصدات أو حاصدين، صاح في القرية فلباه من يسمعه، عرفه أم لم يعرفه، ويكون لكل حاصد نصيب مما حصد، ويكون الحصاد بالأيدي، ثم تربط سيقان الرز، ويترك لها في أعلاها مثل خصلة الشعر، وتقام كأنها خيمة.

ولقد رأيت مشاهد الحصاد، من نافذة القطار، فرأيت مشهداً عجيباً ومنظراً لا ينسى.

أزمة المساكن:

وأول ما أنصح من يفكر أن يزورها أن لا يتوجه إليها حتى يضمن لنفسه غرفة ينام فيها وإلا نام في الشارع، وهذه نصيحة لم نبال بها لما قدمها إلينا الوزير الأندونيسي المفوض في بغداد، ولكنا وجدناها لما جئنا حقاً وأكثر من الحق إن كان شيء أكثر من الحق.

ولقد أعقبت هذه الحرب العالمية أزمة مساكن في كل مكان من نيويورك إلى أقصى الشرق، ولكنه ليس في الدنيا بلد تمكنت منه هذه الأزمة كجاكرتا، فإنه ليس فيها على سعتها، وكثرة دورها، وكبر فنادقها، مكان لنزيل جديد وسبب ذلك أنه كان فيها إلى سنة ١٩٤١ ستمئة وثمانون ألفاً فقط، فلما صارت هي العاصمة وانتقلت الحكومة إليها، بلغ سكانها سنة ١٩٤٩ مليوناً ونصف المليون وسنة ١٩٥٢ مليونين وربعاً، وفيها الآن قرابة ثلاثة ملايين.

ولقد كانت سنة ١٩٤١ على قلة سكانها تحتاج إلى زيادة ٢٥ ألف بيت، فبلغت الحاجة سنة ١٩٤٩ إلى ثمانين ألفاً.

والقوم هناك في يقظة وعمل والحكومة لم تقصر فقد أنشأت مدينة جديدة قرب جاكرتا هي كيبايوران، بعضها تنشئها الحكومة بمالها لموظفيها، وبعض ينشئه الناس بأموالهم، بدىء بها في أواخر سنة ١٩٤٨ فلم تأت سنة

١٩٥١ حتى تم بناء ٣٥٠٠ بيت، ألف منها للحكومة، ولا يزال البنيان مستمراً ولكن الأزمة لا تزال كذلك ممسكة بالخناق.

والغريب أن الأرض رخيصة، والفنادق واسعة، ولكن ليس فيها مكان لنزيل، بل لا تلقى في كل مئة غرفة، غرفة واحدة فيها مسافر، وإنما هي أسر تقيم فيها تتخذها دوراً، ونصفها تستأجرها الحكومة لموظفيها، ولقد وجدنا نحن غرفاً فخمة بل أجنحة كاملة لا ينقصها شيء، ولكن المصيبة في الطعام وفي الكلام.

الطعام:

أما الطعام فإني لما دخلت بغداد، قلت أين مني طعام الشام؟ ويا شوقي إليه!.

فلما جئنا كراتشي قلت: واشوقاه إلى طعام بغداد.

فلما أوغلنا في الشرق وبلغنا جاكرتا، تمنيت أن أجد مثل طعام كراتشي.

ولما قعدت إلى العشاء أول يوم وصلت فيه إلى جاكرتا، رأيت على طرفي المائدة طبقين صغيرين، طبقاً فيه زبد، وطبقاً فيه شيء أحمر ما شككت في أنه مربى، فأخذت بطرف السكين شيئاً من هنا، وشيئاً من هناك، ووضعته في فمي، وإذا بي أضع في فمي (والعياذ بالله) جمرة ملتهبة، وإذا هذا الشيء الأحمر نار حامية، نوع من الفلافل، التي لم نسمع بها ولا نقدر على تصورها، وإذا القوم الذين يألفون الحارّ ويحبونه، يأخذون منه مثل رأس الدبوس، وأنا أخذت منه ما أخذت، فماذا تظنونه فعل بي؟...

لقد بقيت يوماً كاملاً لا أستطيع أن أُدخل فمي شيئاً، ولا أقدر أن أبلع ريقي، والطعام كله فيه هذه الفلافل الفظيعة.

والعجيب أن الخبز مفقود، وإذا طلبت قطعة من الخبز في الفندق الكبير الذي يقدم الطعام اضطررت أن تدفع ثمنها، لأن هذا الترف لا يدخل في

القائمة، وإنما يأكلون الرز، الرز المسلوق بلا ملح ولا سمن هذا الرز الذي لازمنا ملازمة الظل، حيثما سرنا، في باكستان والهند والملايو وسيام، وإذا تأنق الأندوسيون فيه قدموه لك في أكلة نسيت اسمها، أكلة وطنية عظيمة كالقوزي عندنا أو الرز البخاري، وهي رز مطبوخ بدهن النارجيل(جوز الهند)، وما أدري أطعمة أقبح أم ريحه، والحقيقة أن ريحه أقبح من طعمه، وطعمه أقبح من ريحه، ومعه (الشطا) الفليفلة الحمراء مقطعة قطعاً يزيد عددها عن عدد حبات الرز، ومعه اللحم وأشياء أخرى لا أعرف ما هي . . . ولكنها على كل حال مما لا خير فيه. ويقدمون معه أنواعاً من الخضر أكثرها غريب عنا بنوعه، وغريب بأسلوب طبخه، وكلها فيه هذه الفلافل المحرقة.

والشيء العجيب في أندونيسيا، طباق رقاق مثل الجرادق التي تباع في رمضان تماماً، يأكلونه بدل الخبز وهو على كل مائدة، من الكوخ إلى القصر، وطعمه طيب، وقد حسبته نوعاً من الخبز، وإذا هو سمك، ولا أدري كيف يعالجون السمك حتى يكون كذلك. ومن هذا السمك، ومن الرز، تجد الصحة العامة في أندونيسيا تدعو إلى الإعجاب، وأشهد أني لم أجد خلال شهر كامل مررت فيه بجاوة من غربها إلى شرقها إلا ستة شحادين على حين ترى في الهند وباكستان كل عشرة أمتار شحاداً . . .

الفواكه والثمار:

أما الثمار فغريبة عنا، لا نكاد نعرف منها إلا البرتقال والعنب، وكان ثمن كيلو العنب لما كنا في جاكرتا ستين ربية، أي نحو عشر ليرات بالسوق الحرة، لأنهم يأتون به من أوستراليا، وأجرة المغنى المتوسط (أي الفيلا) ستون ربية في الشهر!.

وعندهم أنواع من البرتقال، منها شيء بحجم البطيخة الكبيرة جداً، يوضع على المائدة منه حزتان أو ثلاث، وعرض الحزة الواحدة ثلاث أصابع، وطولها شبر ونصف، وعندهم البابايا، وهو كالبطيخ الأصفر المستطيل، وقد حدثتكم أن شجره عالٍ مثل النخل، يرتفع عن الأرض أربعة أمتار، موجود

في كل مكان، في الهند والملايو، وأنواع كثيرة لا أجد لها شبيهاً في ثمارنا[1]. أما الموز فعندهم منه أكثر من ثلاثين نوعاً، منه ما يشوونه ويبيعونه مشوياً، ومن أنواعه ما يفضل أكله مطبوخاً، ومنه ما يعقد بالسكر كما يعقد المشمش في بلادنا، ومن أحلى ثمارهم الأناناس، وطعمه وهو غض غير طعمه الذي تذوقته منه محفوظاً في العلب، وأشهر الثمار في جاوا (النارجيل) جوز الهند، وأشجاره في كل مكان، وقد قلت لكم أنها لا تختلف عن النخل، إلا بأنها أعلى وأن جذوعها أنعم ملمساً، وهم لا يأكلونه في أندونيسيا والهند أكلاً، وإنما يقوّر البائع رأس النارجيلة، ويدفعها إليك تشرب ماءها، وتكون وهي غضة ممتلئة بالماء، أما الذي نأكله منها هنا، فإنه لا يتجمد إلا بعد أمد طويل، فإن كانت غضة (طازجة)، كان هشاً كالقشطة، ومن أحب أكله أعطاه البائع ملعقة صغيرة، فاستخرجه بها وأكلها، ورأيتهم في جاكرتا، يشكون من غلاء النارجيل إذ بلغ سعر الواحدة (الجوزة الكبيرة جداً) ما يعادل ثلاثة فرنكات بنقد بلادنا.

ولقد عشت هذا الشهر، كما عشت شهوراً قبل ذلك وبعده، لا آكل إلا الحليب وبعض الفواكه، وقطعة من اللحم، لأن الطعام الإنكليزي يضرّني بما فيه من اللحم، وأنا ممنوع منه، والطعام الوطني فيه هذه النار المحرقة، لذلك كتب علي أن أعيش بلا طعام.

وخطب الطعام أيسر من خطب الكلام.

الصناعات:

وفي أندنوسيا من طرائف الصناعة الفضية الدقيقة ما ليس له مثيل في الدنيا، وفيها أنواع من القماش النادر يتخذون منه هذه (الفوط) التي تعتبر اللباس الرسمي للرجال والنساء على السواء من أيام ابن بطوطة (وقد وصفها) إلى الآن.

وهذه الأُزُر مألوفة في كل البلاد التي رأيناها، ولكنها قليلة في باكستان،

(١) وأطيب ثمرة اسمها عندهم مثل لفظ (كالسمك) مع تشديد الميم!.

ومن يتخذها من العملة والحمالين وسواق الركشات، يلفها على وسطه ثم يجمعها من بين رجليه ويشدها، حتى تكون مثل تبّان المصارع، وفي الهند يتخذونها من القماش الأبيض الرقيق، ويلفونها على الوسط بحيث تستر رجلاً وتدع رجلاً مكشوفة من باطنها إلى أعلى الفخذ، ورأيت الموظفين في الدواوين في كلكتا، يأتون بها إلى دواوينهم، ويدخلون بها على رؤسائهم، أما في جاوه، فيتخذونها من أقمشة خاصة منقوشة مزركشة منها الرخيص ومنها ما يبلغ ثمنه نحو خمسين ليرة، يلفونها حول الوسط لفاً كاملاً ساتراً، ويربطون فوقها نطاقاً من الجلد، أو القماش، وفوقها قميص ورداء (جاكيت)، وأكثر الموظفين والطلاب والنساء في داخل جاوة، يلبسون هذا اللباس، أما جاكرتا فيغلب على أهلها اللباس الإفرنجي، والصينيات يلبسن ثوباً ضيقاً جداً لا يمكن التحرك فيه ولا المشي لولا شقان له من الجانبين، يكشفان الفخذين جميعاً، وأول ما رأيت ذلك على كاتبة في الفندق، فحسبتها راقصة وتجنبت الوقوف عليها، ثم أفهمت أن هذه العادة الشنيعة هي عادة النساء الصينيات.

في هدأة الليل:

لما دخلت الفندق الفخم في جاكرتا، ورأيت هذا السرير العريض الذي يشبه سرير فاروق، حسبت أني سأنام أنعم نومة، ولكني ما كدت أغفى حتى رأيت في المنام ولداً عفريتاً قد أخذ قضيباً وراح يضرب به على طبق الغسيل ضرباً أحسست من شدته كأنه ينزل على رأسي، فقمت فزعاً، فإذا المنام حقيقة، وإذا في الفندق من يضرب في هدأة الليل على شيء كطبق الغسيل، وخرجت لأنظر ما هو، فانقطع الصوت وعاد الفندق إلى سكونه فعدت إلى نومي، فما هي إلا ساعة حتى رجع الضرب فوثبت، وخرجت أنظر فانقطع، وتكرر ذلك مرات، فلما أصبحت سألت، فإذا هي طريقة مبتكرة للحراسة، كلما تمت من الليل ساعة، ضرب الحارس على صينية معه بعدد ما مضى من ساعات الليل، ليدل على أنه مستيقظ ساهر أمين. . . أما النائم المسكين فلا يبالي به أحد، وهي طريقة عبقرية لإزعاج النائمين لا يماثلها إلا ما يجده

النائم في دمشق تحت مآذن الجامع الأموي، إذ يسمع كلما مضت ساعة من الليل، مؤذناً قد صعد المئذنة فغنى وطرّب، وجاء بما يسميه (التراحيم) ويظنه تقوى وفناً، وهو في رأي الدين بدعة، وفي رأي الفن (نشاز)، وفي رأي الناس إزعاج.

صحة ونظافة:

في أندونيسيا أمران أغبط أهلها عليهما وأتمنى لكل أمة مسلمة مثلهما هما الصحة والنظافة.

فلا ترى حيثما سرت إلا أجساداً سليمة، ووجوهاً نضرة، وصحة بادية، ولا ترى وساخة في ثوب، ولا في طريق، وقد رأيتهم لا يطيب لهم عيش ما لم يغتسلوا كل يوم، ومن حبهم للنظافة يغتسل فقراؤهم في النهر، الرجال مع النساء، عادة لا يرضاها الله ولا تقرها المروءة وليس هذا الحرص على الاغتسال، لحرارة الجو وكثرة العرق، فإن هذه البلاد وإن قربت من خط الإستواء، معتدلة الهواء، لا تزيد حرارة جاكرتا عن حرارة القاهرة، بل لطبيعة ركبت فيهم.

ومن حبهم للنظافة، تجد مساكنهم مرتبة الفرش، منسقة الأثاث، ما فيها بيت إلا له حديقة، وفي حديقته الأوراد والأزهار، يستوي في ذلك الغني والفقير.

الخال:

ومن غرائب عاداتهم، أن الأب لا ينفرد وحده بحمل أثقال الأسرة، بل يعاونه الخال، والخال مسؤول عن بيت زوجه أي بيته، وعن بيت أخته أي بيت صهره، وإذا تزوجت البنت كان جل نفقاتها على خالها.

الزواج:

إذا بلغت البنت سن الزواج ولم تتزوج، عيّرت بذلك وانتقصت لذلك تعمد الأسرة الفقيرة إلى بيع أملاكها أو رهنها، وإعداد نفقات زواجها وإذا

مات ميت لم تقسم تركته بين وارثيهـا، حتى يتم زواج بناتهـا، وإن تزوج الشاب لم يحمل وحده غرم النفقات، بل حملها معه كل قادر في أسرته.

وسن الزواج هي (على الأكثر) السادسة عشرة للبنت والثانية والعشرين للشاب، ولا يعرفون هذه العادة الفرنجية التي يسمونها زواج الحب، يرى الشاب الفتاة فيرضاها، ثم يتصل بها فيهواها، بل يكون الزواج عن طريق الآباء والأخوال، هم يختـارون للفتى أو للفتاة، من يصلح لـه أو لها، ثم يشاورونه أو يشاورونها، ويكثر أن يزوج الرجل إبنه بنت أخته، وبنته لابنها، ويعدونه أوفق زواج.

وربما رأى الشاب الفتاة في الولائم، فخطبها له أبوه أو خاله، وقد تمتد أيام الخطبة سنة.

وللخطبة عادات، فالمخطوبة لهـا أن تزور أسرة الخـاطب متى شاءت ولكن الخاطب لا يزور أسرتها إلا بدعوة منها إلى وليمة تعدها له ولا يجيء وحده بل يجيء معه أحد من أهله.

ولا بد في هذه الولائم، من إلقاء الخطب، التي تشتمل على عجائب من الثناء والمجاملة، وهم لا يحبون الثناء المباشر، ولا يطيقـونه بـل يلفون ويدورون ويأتون بعجائب من التلميح والتلويح، ليصلوا إلى الثناء.

رمـضـان:

وصلنا جاكرتا في رمضان، ولرمضان (في بلد إسلامي) بهجة وجمال، لا تظهر بهجته، ولا يبدو جماله، في المدن الكبرى التي فتنها بريق الزجاج في حضارة الغرب، عن حقيقة الألماس في دينها، فأضاعت سجاياها بتقليدها، ولكن يظهر هذا الجمال في المدن الصغار وفي القرى الأندونيسية حيث يصوم القوم النهار، لا تجد فيهم مفطراً معلناً، فإذا كـان العشاء أمـوا المساجـد، فصلوا التراويح ثم تجمعوا للسهرات في بيوت الإخوان والأصدقاء، سهرات قد تطول حتى تصل الفطور بالسحور، يكون في بعضها المطالعة في الكتب، والمذاكرة في العلم، ويكون في بعضها البحث في شؤون التجـارة، وأحوال

البلد، ويكون بعضها للتسلية واللهو ولكنه لهو لا يصل إلى الحرّام، ولا يبلغ حدّ العبث.

يقدم فيها لونان لا تكاد تخلو منهما أو من أحدهما مائدة:

الرز بالحليب، لا كما يصنع في الشام، إذ يفتن القوم في (ترقيده) في (الصواني) حتى يصير كأنه القشطة، بل يصنع مخلوطاً بسمن النارجبيل (جوز الهند) فيكون له طعم، يقولون إنه طيب، أما أنا فلم استطع أن أسيغ لقمة واحدة منه...

والثاني: هو الـ (أبام) وهو شيء يشبه القطائف الشامية، وشتان ما بين هذا وذاك، فما في الدنيا مثل طعام الشام، وما أكل الشامي في غير بلده طعاماً فاستطابه، ولا أكل أحد من طعام الشام، إلا فضلة على كل طعام.

العيـــد:

أما عيد أندونيسيا، فأشهد لقد أنساني أني غريب، وأني بعيد عن أهلي وولدي، لقد رأيت فيها العيد، الذي كان يمرّ في دمشق من قديم ثم افتقدته ولم أعد أجده.

وما دنا العيد حتى رأينا تباشيره تلوح، ففي الأسواق ضجة وازدحام، وفي البيوت حركة واستعداد، فما أهلّ، وأصبح صباحه حتى خرج النـاس بأبهى الثياب، بهذه الإزر (الفوط) الملونة المبرقشة التي تحكي ألوان الزهر، ولبست البنات كل زاه من الألوان فاقع، وزيّن الأولاد، وانتشروا في ساحات (كمبير) في جاكرتا، كأنهم طاقات من الورد، يخطرون في الحدائق إلى جانب الورد، وعرضت الألاعيب، وعلت في الجو طيارات الورق، ولهم فيها افتنان عجيب، وهي تعلو حتى لترى كأنها طيارة حقيقية...

وأمّ الرجال كلهم المصلى، فملؤوه على رحبه، حتى أني لأظن أن من حضر صلاة العيد في جاكرتا، يبلغون مئات الألوف يكبرون معاً، ويركعون معاً ويسجدون معاً، مشهد عظيم، عظيم، عظيم، لا يرى الإنسان مثله إلا في بلد عاد إلى هذه السنة المتبعة في صلاة العيد.

وإذا كانت صلاة الجماعة المؤتمر اليومي لأهل الحارة يتكرر كل ساعات، وصلاة الجمعة المؤتمر الأسبوعي لأهل الحي، فإن صلاة العيد هي المؤتمر السنوي لأهل المدينة، أما المؤتمر الإسلامي العام، الذي لا تعرف مثله أمة إلا أمة محمد، فهو الذي يكون في عرفات.

ويعد ربات البيوت للعيد، حلويات كالفطائر و (الكرابيج) يقدم منها للضيوف والزوار، ويوزع منها على الأهل والجيران، ويتخذون من الرز المطبوخ بالسكر حلوى يعبئونها في صرر من أوراق الموز، تباع في الأسواق، وتهدى إلى الإخوان والخلان، وهي قديمة من أيام ابن بطوطة، وقد رأيتها أول مرة، فلم أدرِ ما هي، فاشتريت منها فإذا هي من الرز.

الرز:

والرز لكل شيء، ولقد أكلت الرز حتى مللته، يقدمون لك بدل الخبز الرز، وبدل الحلوى الرز، ويا ليتهم يطبخونه كما نطبخه في بلادنا، إنهم يقدمونه مسلوقاً بلا ملح، ولقد لبثت بعد أن رجعت من الرحلة شهوراً لا أستطيع أن أذوق فيه الرز، ولا أراه.

لذلك يحتفلون بزرعه وحصاده، ويبالغون في احترامه، كما نبالغ نحن في احترام الخبز، حتى لنرفعه من الأرض، ونقبله، ويحلف عوامنا به فيقولون (وحياة هذه النعمة) مع أنه لا يجوز الحلف إلا بالله، لا بالمصحف ولا بالخبز ولا بالشرف ولا بالآباء والأمهات.

البامبو:

إذا كان الرز عماد الأندونيسيين في طعامهم، فالبامبو عمادهم في مساكنهم وأثاثهم، والبامبو يشبه القصب في بلادنا، لكنه أغلظ ساقاً، وأعلى فرعاً، وهو نوع من الخيزران.

والخيزران قليل، أما البامبو ففي كل مكان من أندونيسيا، تراه يملأ الغابات، ويزدحم على الشطوط، ويقوم على أطراف الطرق في القرى، لا يكلف الفلاح إلا أن يحمل فأسه، فيقطع منه ما شاء، فيبقيه على طوله

ليكون منه قوائم الجدران، وعوارض السقف، أو يقطعه ويديره فيصنع منه المقاعد والموائد والسرر ومهاد الأطفال وربما عملت منه الآرائك الفخمة التي تزين أغلى الأبهاء، أو يصبر عليه ويدقق في صناعته فيكون منه الصناديق وعلب الدخائن والقدور والصحون، أو يصنع منه أجود أنواع النايات والمزامير.

وهو فوق ذلك يؤكل، يؤخذ وهو غض طري، فيغلى في لبن جوز الهند فيكون منه طعام حلو سائغ.

فهو كالنخل في جزيرة العرب، شجر مبارك يصلح لكل شيء، ولا يرمى منه شيء.

رز وبيض:

الرز هو عماد المعيشة في أندونيسيا وفي أكثر بلاد آسيا، لذلك يكثر الحديث عن الرز، ومزارعه بقاع تسرق من الغابات، فتجرد من أشجارها، وتجعل مدرجات كبساتين التفاح في جبال لبنان، فإذا انتهى الحصاد، رأيت مشهداً طريفاً، مشهد رعاة البط، يسوق كل واحد منهم مئات منها، يدخل بها حقول الرز المحصود، فتلتقط بقايا الرز، ويكون لصاحب الحقل بدلاً منها، قسم من بيضها

على ضوء الكاز:

كنا عائدين إلى جاكرتا في الليل، فكنت أرى في الظلام مصابيح الكاز، كالتي كنا نتخذها في دمشق، موضوعة في فوانيس يتراقص ضوؤها، على حلقات من البنات، ونسمع لهن على البعد ضحكات ترن في سكون الليل، أو نغمات أغان يهتفن بها، وكان ذلك المشهد يتكرر كلما مررنا بقرية، وجاوة كلها قرى متصلة، ما لواحدة منها آخر يمتاز من أول التي بعدها، فسألت، فإذا هن صانعات الخوص يصنعن منه السلال والقبعات العراض التي تشبه الواحدة منها الشمسية، والحصر ولا يعملن إلا في الليل، يجتمعن تحت هذه المصابيح...

ألفـاظ عـربيـة:

في اللغة الأندونيسية ألفاظ عربية كثيرة، منها مـا هو لأسـماء البلدان فعندهم: المدينة المنورة، والكوفة، والبصرة، وخور سليمان[1] وخور صالح وجبل الفتح.

ومنها ما هو لأسماء الناس، فعندهم:

محمـد وأحمد ويـوسف وداود وعيسى وناصر وعبـدالله وزين العابـدين وتاج الدين وفؤاد وسراج الدين وعبدالحكيم وأمثالها.

وربما أضيف الاسم الأندونيسي للاسم العربي، كمحمد سوكـارنـو، وزوجته عائشة، محمد حتا وزوجته رحمي رحيم، أحمد سوبارجو ومحمد روم، وبرهان الدين هاراهاب، شمس الدين سوتن معمور، علي ساسترو.

ومنها ما هو مستعمل بلفظة كشركة بمعنى جمعية، ودولت بمعنى سيادة، ورعيت بمعنى شعب (رعية)، وسؤال بمعنى قضية، وفائدة وحـاصل، وأخـلاق، وعناصر، ومسألة وسياسة.

أو بلفظ محرف مثل لاهير أي ظاهر، وآكال أي عقـل، ونسكة أي نسخة، وخلاياك أي خلائق (خـلايق) وسابـار أي صبر، ومن أعجب مـا عندهم أنهم يحرفون لفظ الشعر إلى الشعير، فيشترك فيه إخواننا الشعراء مع إخواننا... الحمير...

مشهـد عجيـب:

هذا مشهد رأيته في جاكرتا، وقد أخذونا يوماً إلى دار واسعة: غرف مصفوفة حول حديقة فسيحة، وممرات تطيف بها، سمعت لما اقـتربت منها ضجة أولاد، وبكاء أطفال، فقدرت أنها مدرسة للصغار، فلما دخلتها لم أجد التلاميذ الذين يتعلمون، بل وجدت أطفالاً منهم من يزحف على الأرض،

---

(١) الخور كلمة عربية ومنه خور حمار في البادية انظر كتاب (من نفحات الحرم).

ومنهم من يــدرج، ومنهم الكبـير، ومنهم الصبيــان ومنهم البنـات، أولاد بالعشرات، في كل غرفة أولاد، وفي الحـديقة أولاد، وحيثـما سرت أولاد، أولاد في الأسرة، وأولاد أكبر منهم يخدمـونهم أو يطعمـونهم أو ينظفـونهم، والهيـآت مختلفات، والألوان متباينات، فمن بيض ومن سمر ومن سود، ومن لهم هيـآت صينية، أو سمات عربية أو ملامح هولندية.

فقلت: ما هذا؟ مستشفى؟

قالوا: لا.

قلت: روضة أطفال؟

قالوا: لا.

قلت: ما هؤلاء؟

قالوا: أسرة واحدة، لهم أب واحد وأم واحدة.

قلت: لكل هؤلاء أم واحدة وأب واحد؟

قالوا: نعـم ولا.

قلت: ما هذه الأحاجي والمعميات؟

قالوا: هاك من يخبرك الخبر اليقين.

ونظرت فإذا امرأة أندونيسية في نحو الخمسين أو تزيد، ورجل شيخ أندونيسي فوق الستين، قد أقبلا علينا، وعرفوهما لنا، فإذا هما صاحبا الدار.

وإذا خبرهما أن هذه المرأة ورثت من أبيها مالاً عظيماً، وكان قد توفي وهي صغيرة، فرباها خالها، فلما كبرت خطبها هذا الرجل وكان من الأغنياء، ووفق الله بينهما، وألقى بينهما المودة والرحمة، فعاشا سعيدين، اجتمع لهما المال الذي يملأ اليدين، والحب الذي يملأ القلبين، ولكنهما اشتهيا الولد فما جاءهما الولد، وما نفعهما طب طبيب، ولا وصفة مجرب، ولا سحر ساحـر، ولا شعوذة دجال، وتفطر قلبها، وكرهت حياتها وضاقت بها، وضيقت على الرجل

حياته، وكرهتها إليه، وأوشكت الحال أن تصل بهما، إلى أن تجن هي أو تجنّن الزوج، أو تختم فصول الرواية بالطلاق، لولا أن كانت مصادفة بدلت حياتهما، كما تبدل موجة صغيرة مسير الزورق من الشرق إلى الغرب، أو تحول لحظة عارضة وجهة الإنسان من طريق النار إلى طريق الجنة.

ذلك أنهما وجدا يوماً إزدحاماً أمام مخفر الشرطة، فسألت:

ـ ما الخبر؟

ـ فقالوا: إنه لقيط، ابن حرام، وهو طفل مولد.

والمولد الذي يجيء من أب جاوي وأم هولندية.

فدفعتها غريزة الأمومة المتوثبة بين جوانحها، إلى رؤية الولد، فإذا هي طفلة فتانة.

وكان الناس بين مشفق على الطفلة، أو لاعن لها غاضب من والديها، فلم تتمالك أن أمسكت بها فضمتها إلى صدرها، فأحست كأنها قد ضمت يداها على كنوز الدنيا.

وكان زوجها معها، فلمعت فكرة واحدة في ذهن الزوجين، هي أن يأخذا الطفلة فيربياها.

وأخذاها من المخفر، وتعهدا بالإحسان إليها، وحسن القيام عليها، وتجددت بها حياتهما، وعادت النضارة إلى وجه المرأة، ورجعت المسرة إلى قلبها، ودخلت عليهما السعادة مذ دخلت هذه البنت، وأقاما عليها يغدقان عليها الخيرات، ويلفانها بالحنان، وكبرت فكانت فتنة الأنظار، فزوجاها.

وما فارقتهما حتى أحست المرأة كأن شعبة انشعبت من قلبها، وكادت ترجع لها عوارض المرض في نفسها، فوجد لها غيرها، ومرت الأيام، وانتهى بهما الأمر، أن عرف الناس جميعاً خبرهما، فكلما وجد أحد لقيطاً حملوه إليهما.

وفتحا هذه الدار، ووقفا عليها ريع أموالهما، وفاضت عليهما العطايا والتبرعات ولما زرت الدار سنة ١٩٥٤، اطلعت على دفاترها، فوجدتهما قد

ربيا إلى تلك السنة مئتين وخمسة وثلاثين ولداً، وكان عندهما لما زرتها ستة وأربعون ولداً، من كل أمة وجنس، ومن كل لون ولسان، يربيانهم جميعاً على دين الإسلام، وحب الوطن، وعلى الخلق والفضيلة، وممن نشأ عندهم محامون وأطباء وعلماء وصناع وتجار، وكلهم يتردد على الدار، ويرى في هذه المرأة أماً له، وفي هذا الرجل أبا.

لقد حرما ولداً أو ولدين، فاتخذا مئات من الأولاد، واتخذا مع ذلك الثواب في الآخرة، والمجد في الدنيا، وعلو المنزلة وبقاء الذكر.

لقد صبرا على ما لا يصبر عليه أحد، وأنا لم أستطع أن أكمل الدورة في غرف هذه الدار إلا بصعوبة، ولقد أحسست أن أعصابي قد توترت من بكاء الأطفال، وضجيج الأولاد، وسددت أنفي وغضضت بصري مرات لئلا أشم أو أرى ما يؤذي وهما يصبران على ذلك الدهر كله، ويعيشان أبداً في هذا البيت.

إن الواحد منا يكون في بيته خمسة أطفال أو ستة، من دمه ولحمه، فلا يطيق القعود معهم ويهرب منهم، فقدروا مبلغ ما يكابد هذان الإنسانان الكريمان؟.

ولقد سألتها، عن مبلغ وفاء هؤلاء لهما، ففهمت أن منهم قليلاً أنكر الفضل، وجحد المعروف، ولكن ذلك لا يزيد على ثلاثة في المئة، ولا عجب فيه فإن من الناس من يبلغ به اللؤم أن ينكر فضل أمه التي حملته وسط أحشائها، وأرضعته من لبن ثدييها، والباقون كانوا لهما أبر من أولاد الأصلاب.

وسألتهما إلى متى يقومان على هذه الدار، ولم لا يسلمانها إلى جمعية أو مؤسسة؟

قالت: لما ضممت تلك البنت إلى صدري كان عمري إحدى وعشرين سنة، وقد نيّفت الآن على الخمسين، ولكني لن أدع هذا العمل، حتى يقعدني الكبر، أو يقطعني الموت، إلا أن يمل فلان (وأشارت إلى زوجها).

فنظر إليها نظرة يقطر منها الحب، وقال لها:

ـ أنا معك حتى الموت.

* * *

صورة من الطريق

نشرت سنة ١٩٥٥

كنت في عيد الفطر الماضي في (جاكرتا) وكنت ضيف الحكومة الأندونيسية، وتفضلت فأنزلتني في (فندق الهند) أكبر فنادق الشرق. في جناح فخم، أبهى وأوسع من منازل الأمراء، وكان عندي كل ما يشتهي امرؤ أن يكون له: المال في جيبي، والسيارة على بابي، والمرافق قيد أمري، ولكن شيئاً واحداً لم يكن عندي هو بهجة النفس.

كنت وحدي، أرى الأسر الهولاندية من حولي، وشملها جميع، وأهلها حاضرون، وأنا بعيد عن أهلي وبناتي، بيني وبينهن ربع محيط كرة الأرض، وكان الناس في عيد وأنا في كرب، لا أجد من أكلمه كلمة، أو أفهم عنه أو يفهم عني، وما العيد إن لم يكن معه الأنس ببلدك وأهلك وأصدقائك؟ وما العيد إن لم يكن فيه للنفس متعة، وللقلب راحة؟.

إنه لا يبقى منه إلا رقم على التقويم!.

وهمت على وجهي، أمشي على غير هدى حتى بلغت ساحة (كامبير)، وكانت قد نبتت فيها عشرون ألف زهرة في ليلة واحدة، لا يعني زهرات الحقل، ولكن زهرات البيوت. كان النساء نساء جاوة الحلوات [1] وأطفالهن يختَلن في الثياب العجيبة الملونة، بمثل ورد الروض، وكان لهن أفانين من التسليات والألاعيب، ولكني كنت عن ذلك كله في غفلة، كنت أمشي بلا قلب لأن قلبي بعيد، بعيد في المكان وفي الزمان، إنه يهيم في أودية الماضي،

(١) لا الجميلات.

ويسرح على تلك السفوح الحبيبة من (قاسيون)، حتى بلغت حديقة لحظت أنها مرتع أطفال الأغنياء، لما يبدو عليهم من آثار الترف والسرف، وكان على باب الحديقة عجوز ظهر عليها الكبر، رغم أن نساء (جاوة) قد منحن الشباب الدائم، فلا يشخن أبداً، قد أثقل ظهرها حمل السنين، وفي يدها بنت كأنها الفلة المتفتحة جمالاً وطهراً، في ثياب قديمة لكنها نظيفة، وكانت تنظر إلى هذا العالم كأنه غريب عنها، وكأن الله خلقها هي من الطين، وخلق أولاد الأغنياء هؤلاء من الزبد والحليب، وكانوا يمرون بها لا يلتفتون إليها، ولا يرونها، ولو كانت هرة صغيرة أو كانت كلباً لوجدت من يمسح شعرها ويبسم لها.

وكان الأولاد يشترون أكف (الشُّكلاطة) من بياع هناك، وكانت تنظر إليهم وهم يمزقون أوراقها ويأكلونها، بعيون يلمع فيها بريق الرغبة المحرقة، يعقبها خمود اليأس المرير، ثم غلبها الطمع، فلكزت جدتها بمرفقها، حتى إذا التفتت إليها، أشارت بغمزة من عينيها، وحركة سريعة من يديها إلى (الشُّكلاطة)، فتبسمت الجدة بعينيها، ولكن مقلتيها كانتا تبكيان بلا دموع، وقلبت كفيها، إشارة العجز والفقر...

فاشتريت أكبر كف من (الشُّكلاطة) وذهبت به فوضعته في حجرها هو وكل ما كان في جيبي[1] من مال، فنظرت إلي نظرة المشدوه، ثم حولت بصرها إلى جدتها كأنها تستنجد بها، تستشيرها، ماذا تعمل؟ فأشرق وجه العجوز إشراقة سريعة، كأنها بريق الشمس يسطع لحظة خلال الغمام، وأقبلت علي تقول كلاماً طويلاً، باللغة الأندونيسية، لم أفهم منه إلا (تريما كاسي، بنجاوم عمر) أي أشكرك الله يطول عمرك، وقامت البنت تجر جدتها تفر كما تفر الهرة أعطيتها قطعة لحم، تسرع حتى تعجز خطوات العجوز عن اللحاق بها، تتلفت إلي، تنظر هل ندمت فلحقت بها أسترد ما أعطيت! حتى غابتا عن عيني.

* * *

(١) الجيب في الأصل شق القميص مما يلي الصدر.

لقد خسرت مبلغاً لا يجاوز ما أنفقه أجرة ركبة في سيارة، أو ساعة في سينما، ولكني ربحت من اللذة ما لا أجده في مئة سيارة وسينما.

أحسست كأن ما كان في قلبي من الضيق قد انفرج، وما كنت فيه من الكرب قد زال، وإن نار الشوق إلى أهلي قد انطفأت، والمنظار الأسود قد رفع عن عيني فرأيت بهاء الكون، وبياض النهار، ووجدت العيد.

لقد تعلمت أن السعادة ليست بالأموال ولا بالقصور ولا بالخدم والحشم، ولكنها بسعادة القلب، وإن أقرب طريق إلى سعادة القلب، أن تدخل السعادة على قلوب الناس، وأن أكبر لذاذات الدنيا، هي لذة الإحسان.

لا أقصد الفرنك الذي تلقونه للسائل، ترمونه إليه وأيديكم عالية، ووجوهكم مقطبة، ولسان حالكم يقول، أنظر هوانك وعزنا، وفقرك وغنانا، بل ما تعطونه من قلوبكم لا من أيديكم وحدها، فيكون المال في اليد، والبسمة على الشفاه، والكلمة الطيبة المواسية على اللسان.

إنكم ترجعون إليه بذلك كرامته التي أضاعها، وإنسانيته التي افتقدها، تردون عليه روحه، والروح أثمن من الجسد، والكرامة والإنسانية أفضل من أموال الدنيا كلها.

مشكلة الكلام

لما كنت راجعاً من رحلة المشرق، وقفت بنا الطائرة في مطار البصرة، فصعد إليها الشرطي يقول: جوازات السفر من فضلكم.

فما أحسست بنفسي إلا وأنا أقفز إليه، فأصيح في وجهه بلهفة وفرحة وعجب أقول: هل تتكلمون باللغة العربية؟.

فنظر إلي مدهوشاً، وابتعد عني كأنه يحسبني مجنوناً، وخجلت أنا، وأحسست بالعرق يندي جبيني، وأطرقت أتمنى كأن الأرض قد وارتني.

تقولون: ولم فعلت هذه الفعلة؟

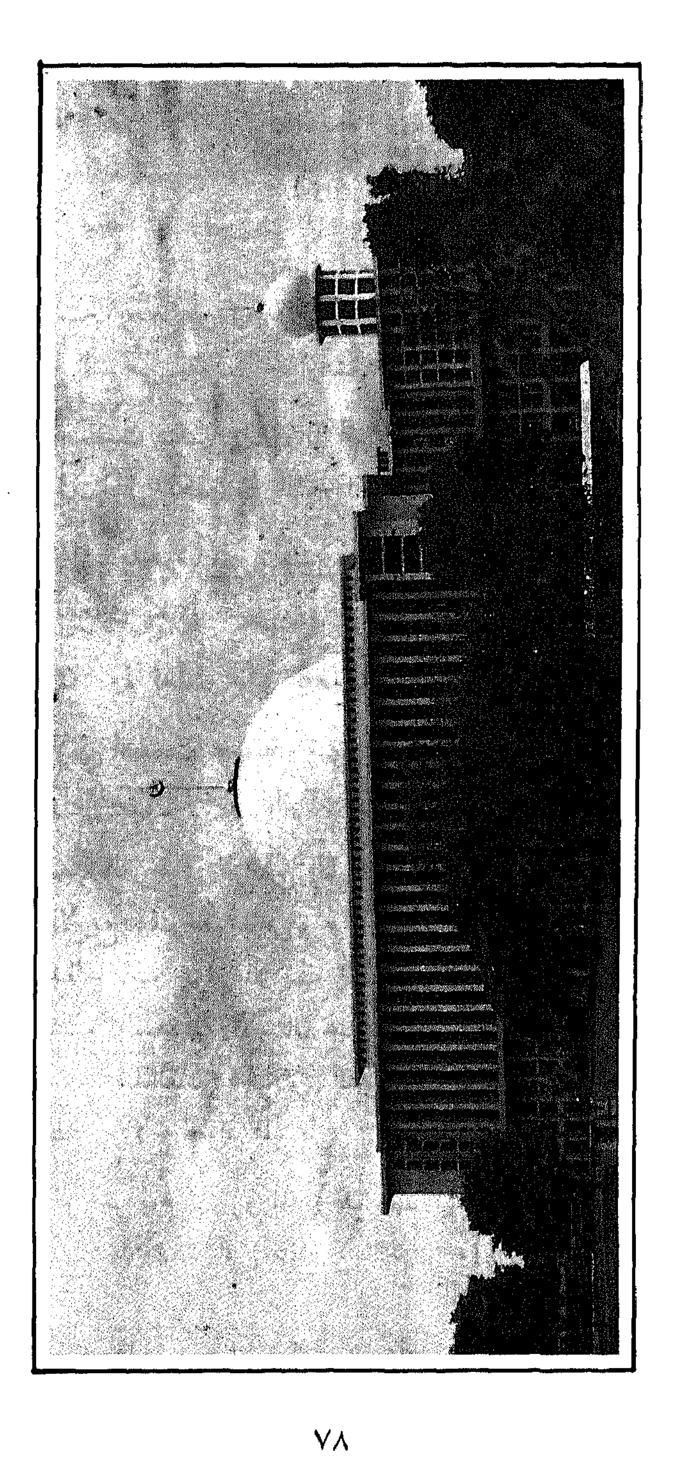
لمْ؟ لأنني أمضيت سبعة أشهر وأنا لا أستطيع أن أكلم أحداً، إلا بترجمان، (وأين مني الترجمان دائماً؟) أو بلغة الخرس بالإشارة.

لم أشعر بالغربة في كراتشي إلا قليلاً، لأني كنت فيها بين أهل وإخوان، السفارات الأربع مفتوحة أمامي، وفي كلها صديق كريم نبيل، سفير مصر الدكتور عبدالوهاب عزام الأديب الكبير الذي أعرفه من مصر من سنة ١٩٢٩[1] وسفير السعودية الأستاذ عبدالحميد الخطيب العالم المصنّف، وسفير العراق الأستاذ عبدالقادر الجيلاني الدبلوماسي الكامل، أما وزير سورية فالصديق القديم الأخ جواد المرابط.

ولم يكن يمر يوم لا يزورنا واحد منهم أو أكثر، أو نزور واحداً منهم أو أكثر، أو نلتقي في وليمة أو إحتفال.

---

(١) توفي رحمة الله عليه، كما توفي الخطيب والجيلاني.



صورة مسجد في أندونيسيا

وفي كراتشي كثير ممن يحسن العربية ويتقنها ويتحدث بالفصحى المعربة ولم يمر علي في كراتشي يومان حتى صرت خطيباً شعبياً برغم أني لا أعرف من الأوردي إلا عشر كلمات، وذلك أننا دعينا في صبيحة وصولنا إلى كراتشي إلى حفلة شعبية كبيرة في حديقة آرام باغ، وهي عكاظ كراتشي وهي تتسع لأكثر من عشرين ألفاً، وهم يقعدون على الأرض كما نقعد نحن في المسجد، على بسط تفرش لهم، فكانت الحفلة في المطالبة بدستور إسلامي، ودعيت إلى الكلام وكنت قد فهمت الموضوع، فقلت جملة واحدة، ما إن ترجمت لهم وفهموها، حتى زلزل الجو بتصفيق استمر أكثر من ثلاث دقائق، ونشرت الكلمة بعد في صحف البلد كلها بحروف كبيرة، أما الكلمة فهي أني قلت لهم:

إنكم انفصلتم عن الهند لأنكم مسلمون، فإذا لم تسنوا الدستور الإسلامي، ولم تكونوا مسلمين حقاً، لم يبق من سبب لقيام باكستان.

وكان وصولنا في موسم الحفلات، حفلات المعراج وحفلات ذكرى إقبال، وحفلات الدستور، وفي كل حي حفلة، ولكل هيئة حفلة، وكنت أدعى إليها كلها لأخطب فيها.

والأوردية لغة بيان، والقوم هنالك كالقوم هنا، تدفعهم العاطفة، وتثيرهم البلاغة، ويهزهم المقال الرائع، ولولا اختلاف اللسان، لظننت أني في دمشق، ما اختلف علي إلا الشعر، فإنه يلقي إلقاءً عجيباً، يغني الشاعر غناء، غناء بالنغم الكامل، ويفتنّ في ذلك، لذلك كان من صفات الشاعر عنا.هم أن يكون حسن الصوت، وما أدري ما يصنع أخونا الشاعر الكبير أبو ريشة إذا دعي لإلقاء قصيدة في الهند واضطر إلى تلحينها وغنائها بصوته على طريقة محمد عبد الوهاب!.

ومع ذلك فقد لقينا في كراتشي من جهل لغة القوم تعباً، ولقد كتبت في دفتري الكلمات التي أحتاج إليها، ومن ذلك: (كيتنا بيسا) أي بكم هذا؟ ومهما قال البائع، كان الجواب (كه قيمت زاده هي) أي هذا كثير. ثم أقف كما وقف حمار الشيخ في العقبة، وتتحول المساومة إلى إشارات، أو كتابة

أرقام، والمساومة في الهند (كما هي عندنا) الأسلوب الشائع في الشراء، فيكتب رقم ٩ مثلاً، فأكتب تحتها ٥، ثم نتبادل طائفة من الإبتسامات والتقطيبات، ومجموعة من الغمزات والإشارات، فينزل هو من التسعة إلى الثمانية، وأصعد أنا إلى الستة، ثم نقسم الفرق بيننا فنشتري بسبعة، وأخرج بالبضاعة مزهواً معجباً بنفسي، ثم يتبين لي أن الذي اشتريته بسبعة ثمنه الحقيقي أربعة!

ولا أتألم ولا أندم، لأني ما اشتريت شيئاً في بلدي هنا إلا دفعت ثمنه مضاعفاً، لذلك امتنعت أن أقف على بائع أصلاً أو أن أشتري شيئاً أبداً، لا الطعام ولا الشراب ولا الثياب، ولا أدري والله إلى الآن أي لحام مثلاً يبعث إلى داري باللحم ووظيفتي أن آخذ القائمة. هو يختار البضاعة، وهو يحدد السعر وهو يجمع، وعلي أن أدفع فقط، كما يدفع المغلوبون الجزية، عن يد وهم صاغرون.

وكنت أركب السيارة أو الركشة وأدع السائق يمضي حيث شاء. فإذا أزمعت العودة، أقول إلى أوتيل سنترال، وهو ثاني فنادق البلد، كبراً ومنزلة، ومع ذلك فقد لقيت الأمرّين أول مرة، حتى أهتديت إلى الفندق، وذلك أني أقول للسائق أوتيل سنترال باللهجة الفرنسية، فيحلق فيّ، ويوسع فمه ويمده من طرفيه، أعني أنه يبتسم، ويحرك رأسه من اليمين إلى الشمال، فأدعه وأكلم غيره، فلا يفهم عني، فكتبت في ورقة أوتيل سنترال وأقرأته الورقة، فضحك وقال: سنترل هطَل، ييس ييس، فهمها لما قرأها بالرطانة الإنكليزية.

ووقع لي مثل ذلك في آخر المشرق، في مدينة سورابايا في شرق جاوة، وكان اسم الفندق أوتيل دورانج على اسم الأسرة الحاكمة في هولاندة، فلم يفهم أحد عني، حتى كتبته فإذا هو يقرأ دورانيو وهي لغة قديمة لبعض قبائل العرب، يجعلون الجيم ياءً فيقولون للشجرة شيرة، ومنهم من هو على الضد من ذلك، يجعل الياء جيماً يقول لعلي علجّ، وللعشي عشج.

فلما خرجنا من كراتشي وبقينا وحدنا أنا والأستاذ الجليل الشيخ أمجد

الزهاوي لقينا الألاقي، ووقعنا في مشاكل لم ينجنا منها إلا كلمة سحرية تعلمناها، هي: (نو سبيكن)، فإن كلمونا بالإنكليزية قلنا (نو سبيكن) وإن خاطبونا بالأوردية قلنا: (نو سبيكن) وإن أعطونا في المطارات والجمارك من هذه الأوراق التي يجب أن نملأ فراغها بالبيان عن أنفسنا أرجعناها بيضاء وقلنا الكلمة السحرية.

وقد تأخرت الطائرة من أجلنا في مطار سنغافورة ربع ساعة وهم يكلموننا فلا نفهم، حتى لم يتركوا لغة من لغات الأرض (عدا العربية) إلا كلمونا بها، والجواب (نو سبيكن) وتطوعت مضيفة مولدة في شركةK.L.Mالتي نركب معها والمولدة نصفها هولندي ونصفها جاوي ففيها جمال الهولنديات وأنوثة الجاويات، وهن أكثر نساء الأرض أنوثة، فلزمتنا لتفهمنا شيئاً لم نفهمه، وطفقت تنتقل من لغة إلى لغة، فلما وصلت إلى الفرنسية هززت رأسي، رحمة بها أولاً، وظناً مني أن ما درسته من الفرنسية عشرين سنة، يجعلني إماماً فيها في هذه البلاد، وثقة مني بأني حين أفهم أبلغ نصوص الأدب لا أعجز عن فهم كلام عادي، فاستبشرت وسرت وانطلقت تتكلم كما يتكلم فرناندل بسرعته العجيبة ولهجته البلدية، فما كان مني إلا أن عدت إلى (نو سبيكن).

وكنت كلما وصلت بلداً أكتب الكلمات التي أحتاج إليها، ففي أندونيسيا تعلمت (برابا) أي بكم؟ و (تريما كاسي) أي شكراً و (تى انتشر) أي شاي خفيف، وأمثال ذلك، ولم أدر أن الأندونيسية لغة عجيبة المخارج، فيها حروف غريبة، منها حرف كأنه صوت القط إذا كان في موقف غرامي في شباط، ولقد قلت لهم في حفلة سمر، أقامتها لنا وزارة الخارجية الأندونيسية وكنا ضيوفها، مازحاً: هل تؤمنون بالطوطمية؟ وهل كان طوطم أجدادكم الأولين قطاً؟.

قالوا: ولم؟ قلت لأن في لغتكم حرفاً من لسان القطط.

وطلبت مرة ظرف رسائل، وكنت قد تعلمت اسمه، فلما سمعه مني النادل طفق يضحك ضحكاً غريباً، مع أنه في العادة جاد مهذب، فكررت

الكلمة، فزاد في الضحك، وجعل يشير إلى جوانب الغرفة، وإلى ما تحت السرير، ويهز كتفه هزة السائل، ثم خرج.

ولما سألت عن تفسير ذلك ممن يعرف العربية خبرني أني حرفت الاسم، فصار معناه (مصيدة فيران).

ولطالما بقيت أياماً بلا طعام، لأن أكثر ما يقدمون من الأطعمة، حاد فيه الفلفل الذي يحرق الفم كما حدثتكم من قبل.

فإذا أنا وجدت مرة أمام أحد في المطعم طعاماً أسغته لا أعرف السبيل إلى طلب مثله إلا أن أقوم فأشير إليه بيدي على ما في ذلك من الشذوذ ولو أني فعلت ذلك (ولا أفعله) فكيف أعرف به إن أردت مثله ولم يكن أمام أحد لأشير إليه.

وجربت كل وسيلة حتى وسيلة فخري البارودي لما طلب البيض في باريز ولا يعرف اسمه، فقوقى مثل الدجاجة، وكور يده، ففهموا عنه ولكن لم يفهموا عني إذ ليس كل طعام كالبيض سهل وصفه.

وكان الناس يحسبون أني كنت في تلك الرحلة في متعة ما يعلمون أني كنت في عذاب دونه عذاب السجن، أمضي الأيام والليالي وحيداً ما أكلم أحداً، حتى الشيخ لم أكن أكلمه لأنه كان في فندق في جاكرتا وأنا في فندق.

وكنت أرى الأسر الهولندية الأب والأم وحولهما الأولاد، وأنا بعيد عن أهلي وأولادي، والفندق مجموعة عمارات قائمة في بستان واسع، يكاد الفندق وحدائقه يقارب في سعته نصف الجامعة الأميركية في بيروت، وليس في الغرف أجراس ومن أراد شيئاً طلبه بالهاتف، فتصور حالي وأنا لا أستطيع إفهام قصدي بالهاتف، وليس أمامي أحد لأخاطبه بالإشارة؛ كنت أحتاج إلى الشيء اليسير فأضطر إلى لبس ثيابي وقطع مسافة مئتي متر، وبذل الجهد في الإشارة، متحملاً ضحك الناس عليّ، وعجبهم مني، وتكون النتيجة أني أفلح في واحدة من كل عشرين مرة، وأرجع في التسع عشرة خيبان.

لذلك صحت لما نزلت البصرة وسمعت من يتكلم العربية.

بوغور

كنت أزور صديقاً يستمع إلى إذاعة دمشق، فجاء في أخبارها، أن (المؤتمر الأسيوي التمهيدي) يعقد اليوم في بوغور، فقال لي: أتعرف بوغور؟ قلت: لقد زرتها. وحدثته عنها، وعن المؤسسة الضخمة فيها، التي تعد أعظم مؤسسة نباتية من نوعها في العالم كله.

قال: لماذا لا تجعل حديثك هذه الجمعة عن بوغور، فتجمع فيها بين مناسبتين، مناسبة المؤتمر الذي يعقد اليوم فيها، ومناسبة عيد الشجرة، الذي يحتفل به اليوم في سورية، وأنت تقول أن فيها أكبر مؤسسة تعنى بالأشجار. ثم إنه ليس في كل عشرة آلاف مستمع من طرق أذنه اسم بوغور، فضلاً عن معرفة وصفها، والعلم بمؤسساتها.

قلت: كذلك يكون.

(بوغور) شبه ضاحية من ضواحي جاكرتا، عاصمة أندونيسيا، وأنتم لا تعرفون أن أندونيسيا تتألف من أرخبيل ما بين أدناه وأقصاه مثل عرض أوربة بأسرها، وأن فيه نحو ٣٠ ألف جزيرة، وأن المسكون منها أكثر من ثلاثة آلاف، وأن أكبرها (بورنيو التي سميت بعد الاستقلال كاليمنتا)، وسومطرة، ولكن في هذه الجزر كلها كبيرها وصغيرها أقل من ثلاثين مليوناً، وفي جاوه وحدها ثلاثة وخمسون مليوناً فهي أصغر من بريطانيا مساحة وأكثر منها سكاناً.

وأنتم لا تعرفون أن في هذه الجزر البعيدة، شعباً مسلماً متمدناً متعلماً، مرهف الشعور متوثب العزيمة، يكاد يشتعل حماسة، ويتفجر صحة ونشاطاً،

يملأ أبراده الفخر بجهاده، الذي انتزع به الاستقلال انتزاعاً من أفواه الغاصبين والذي ضرب بسيفه أعداء المشرق اليابانيين وأعداء المغرب الإنكليز والهولانديين، يقوده اليوم في استقلاله، من كان يقوده في نضاله، حين كان يهتف مرديكا (الاستقلال)، فيهتف بهتافه ثمانون مليوناً، يقحمون لهب الموت ليجلبوا لأمتهم الحياة، ويخوضون لجج النار، لتعيش بلادهم في برد وأمن وسلام. وما انتهت المعركة بعد ولا أغمد السيف، إنها لا تنتهي حتى تتحرر (إيريان) غينية الجديدة الغربية، ولا يبقى في تلك الدار، من المستعمرين ديار.

أما جاوة، فقد برأها الله يوم خلق السموات والأرض، لتكون أجمل بلاد الله وأغناها، ربيع دائم، وخصب عميم وخضرة لا بداية لها ولا نهاية، وجو مقبول لا حر في الساحل ولا قر، ولا رطوبة ولا يبس، وعلى الجبال مصايف ما لها في الدنيا نظير، وأرض من أغنى الأرض غنى، وأكرمها عطاء، فيها ألوان الذهب: فيها الذهب الأصفر، وفيها الألماس وهو الذهب الأبيض، وفيها النفط وهو الذهب الأسود، وفيها ما هو أثمن من الذهب وهو المطاط والكينا والسكر والشاي. وفيها الأذهان المتوقدة، والأيدي الصناع، وأهلها أجرأ الناس على ركوب البحار، وعلى اقتحام الأهوال، ومكافحة الطغاة ولهم زهو بأوطانهم التي يحتاج إليها كل بلد في الدنيا، ولا تحتاج إن شاءت إلى بلد.

إذا بلغت بك الطيارة سماء جاكرتا، وحوّمت لتهبط، رأيت شاطئاً متعرجاً، تداخل فيه البحر والبر فكان رؤوساً وجزراً صغاراً وخلجاناً وبحيرات وبركاً، ورأيت مدينة واسعة، مغطاة بيوتها بقباب خضر من ذرى الأشجار، لا تكاد تبين، فإذا أسفّت الطيارة ودنت من الأرض، ووضحت المشاهد، لم تر فيها بناءً ضخماً، ولا عمارة عالية، ولكنها جميعاً كالبيوت التي تباع في مخازن لعب الأطفال، جدران من اللبن والخيزران والخشب الملون، وسقوف من القرميد مستطيلات متعارضات مائلات من كل جانب، على الأسلوب الهولندي.

فإذا هبطت في مطار (مايوران) وجلت في المدينة لم تر دوراً لها حدائق، لكن حدائق متصلة فيها بيوت. شوارعها منتزهات، وأحياؤها مرابع صبا، ومراتع ظباء، إن كان من الظباء ما يركب الدراجات.

ولقد حسبنا أنا ورفيقي الأستاذ الزهاوي، لما هبطنا المدينة أن الناس عائدون من رحلة كشفية، أو موسم سباق الدراجات. إذ رأينا موكباً منها متتابعاً لا يكاد ينقطع، ثم علمنا أن هذه هي سنة القوم هناك لا يكاد يمشي أحد على رجليه. والسيارات قليلة، وإنما هي الدراجات والركشات.

أما الدراجات فيركبها الصغير والكبير، والمرأة والرجل، ولقد أحصيت في جاكرتا، وقد أقمت فها نحواً من شهر أن بين كل ستة راكبين على الدراجة فتاة، وربما أردفت الفتاة وراءها أخرى، أو أردفت رجلاً، لا يرون في ذلك بأساً، وإن بدت من الراكبة بالضرورة ما تخفي الفتاة عادة وشرعاً من أعضائها. وأغرب من ذلك (في التكشف) أن في جاكرتا نهراً فيه ماء قليل شبه آسن، إن قيس بردى به بدا زاخراً نظيفاً، ولجوانبه أدراج ينزل منها النساء والرجال، عراة إلا ما يستر السوأة الكبرى، فيغتسلون معاً، في أكبر الشوارع، ولم أجد من ينكر عليهم هذا المنكر الذي يخالف الأديان والقوانين، والطبائع والآداب.

أما (الركشة)، وتسمى هنا بيشة، فهي المركب المألوف في آسية كلها، والركشة الأصلية عربة صغيرة لها مقعدان يجرها إنسان مثلي ومثلك يعدو بها حتى يتصبب عرقاً، ويلهث تعباً، ولم أجد منها إلا في كلكتا. أما الركشة الحديثة فأخف شراً وأيسر ضرراً، وهي دراجة قد وضع لها دولاب ثالث وركب عليها مقعد، وهي خفيفة وأجرتها طفيفة، والمقعد في باكستان وراء السائق، وفي سنغافورة إلى جنبه، أما في أندونيسيا فالمقعد من أمام والسائق من وراء، فإن كان خطر تلقاه الراكب بوجهه، فشوه وجهه، وهشم أنفه، وكسر رأسه، ونجا السائق! وفي جاكرتا نحو ٢٠ ألف ركشة. وقد استحدث الآن نوع جديد من الركشات، مركب على الدراجات النارية، وبدأت تصنعه المصانع الأميركية، ورأيت واحدة منها معروضة في مخزن تجاري في

دمشق، وأخذ الشاميون يستعملونها ولكن للتحميل والنقل لا لركوب الناس.

وكنا قد وصلنا جاكرتا في يوم عيد نزول القرآن. وهم يحددون له يوم ١٧ رمضان، يجعلونه أكبر أعيادهم، ويحتفلون به احتفالاً ضخماً في القاعة الكبرى من قصر الرياسة، ويشترك رجالهم ونساؤهم في الاحتفال يجلس في المقاعد اليمنى الرجال، وفي المقاعد اليسرى على طول القاعة النساء، لا يتجاورن في المجالس، وأكثر النساء الحاضرات قد ألقين المناديل فسترن بها شعورهن، وافتتحت الحفلة بآيات من القرآن، تلتها قائمة أمام المذياع زوجة الرئيس سوكارنو، بصوت رخيم، وقراءة فصيحة صحيحة المخارج، وقد عجبت من افتتاحها هي الحفلة بالقرآن دون الرجال فعجبوا من عجبي وسمعت الرئيس سوكارنو يخطب، فأدركت وأنا لا أفهم ما يقول، أني أمام خطيب من أعظم من عرفت من خطباء الحماسة الشعبيين، فلما ترجم إليّ كلامه وكيف تنقل في المعاني حتى وصل إلى قضية إيريان والاستقلال. (وهذا هو مجال بيانه) سمعت له كلاماً حاد المقاطع، مركز المعاني، يحس السامع أن له عند الهجوم وقع القنابل الصاعقة.

ثم صاح: (مرديكا)، فخرجت من فمه كأنها قذيفة مدفع. وصاح الناس صيحة أخرى أحسست أن قد زلزلت منها الأرض وارتجت القلوب وما أحلى أن يكون للأمة خصم معتد تجاهده، وقائد مخلص تتبعه، وشعار تهتف به، وأمل تعيش له وأصبح البلد في عطلة فأخذونا إلى بنشه.

ومشينا أكثر من عشرة أكيال في اتجاه واحد، ونحن نسلك شوارع تظللها وتظلل البيوت على جانبيها، بواسق الأشجار، فسألت: كم طول المدينة؟

فقالوا: إن طول القسم التابع للبلدية أربعون كيلا.

وأخذنا نعلو في سفوح متصلة، وجبال شجراء، لا كما تعرفون من جبال لبنان مثلاً، حيث تتناثر أشجار الصنوبر، كل عشرة أمتار شجرة، بل هي غابات كغابات أفريقية، التي ترونها في السينما، سقوف خضراء فوقها سقوف، تحجب عين الشمس أن ترى المكنون من أسرار هذه البقاع. طبقات

من الخضرة كل واحدة بلون، ففي الأعالي أشجار النارجيل (جوز الهند) تكاد تمس برؤوسها ذيول السحاب، وهي كالنخيل تماماً لا يفرق بينهما إلا بالثمر، لكنها أطول، ولم نر القردة التي تقول القصة أنها لا تقطف إلا بيديها، يضربها الناس بالحجارة فتضربهم بالنارجيل، وهي التي زعم ابن بطوطة أنها شجر يثمر ثمراً كرؤوس بني آدم، ولعله رآه من تحت في ليلة ظلماء، فحسبه رؤوس الناس، ومن تحتها أشجار المطاط كثيفة الورق، كبيرة طويلة الجذوع كأنها من بعيد الصفصاف، وأكثرها لا يزال مع الأسف ملك الشركات الأجنبية، وتحتها أشجار لها ألياف كالكتان وهي أجمل أشجار رأيتها، لها أغصان يابسة، مكللة بفروع دقيقة لها ورق ناعم، منتشرة كالمظلات والشمسيات، وتحتها أنواع وأنواع من الأشجار، كالموز والببايا، وهو شجر جذعه وفروعه كالنخل، وأوراقه تشبه التين، ويحمل بطيخاً أصفر، خلافاً لنظرية جحا!

ودرنا بسفوح منبسطة مملوءة بنجم أخضر، شجيرات بعلو قامة الإنسان، لها ورق كأنه ورق الليمون الحلو، بشكله لا بريحه، قلت: ما هذا؟ قالوا: أشجار الشاي. فقطعت منه أوراقاً دقيقة، قالوا: إنه يصنع منها الشاي الأخضر الفاخر، وتركتها تجف في الفندق فلم تصر شاياً، ولكن شيئاً له طعم الملوخية والسبانخ، فعجبت، ولكني لما زرت معامل الشاي بعد، رأيت أنه يعالج معالجات طويلة قبل أن يصير شاياً. وكل أنواع الشاي من شجرة واحدة.

ورأينا شيئاً تفردت به مصايف جاوة، هو انتشار المسابح الأنيقة البالغة العناية والجمال، في رؤوس الجبال. حتى بلغنا بنشه وهي في لغتهم الذروة، وهي مصيف من آنق ما رأيت من المصايف، أجمل من لبنان بعشرين مرة، وكنا في جاكرتا نكاد نشكو الحر، فارتجفنا فيها من البرد حتى اضطررنا لدخول الغرف.

وتقع بوغور التي ينعقد فيها المؤتمر في ثلث طريق بنشه، وبينها وبين جاكرتا نحو أربعين كيلاً. وفيها من السكان أكثر من مئة ألف، بمقدار مدينة

حمص، ولقد زرنا فيها الحديقة العالمية، التي أقامها رينوات الهولندي سنة ١٨١٧ لتكون مزرعة نموذجية، ومعرضاً دائماً ومعهد دراسات للنباتات الإستوائية.

وإذا قلت إنها حديقة لم أكن قد أحسنت الوصف، ولا أجدت التعريف، فهي غابة، أو هي بلد، طولها نحو ستة أكيال، أي أن دمشق كلها يمكن أن توضع فيها، وفيها معهد علمي، يعد أكبر معهد لدراسة النباتات الإستوائية، فيه نحو من أربعين عالماً عالمياً، وخمسين خبيراً، وأكثر من أربعمئة موظف.

وفيها مكتبة حافلة بكتب النباتات بكل لسان، وهي على اتصال بالمبادلة والمخابرة بأكثر من ١٥٠٠ مؤسسة نباتية تبادلها الكتب والمباحث والنماذج الحية والمجففة.

وفيها متحف نباتي، قالوا أن فيه أكثر من مليون نموذج مجفف لأنواع النبات وأقسامه كلها، مصنف مفهرس ومعمل (تروب) للأبحاث النباتية.

وقد نشر المعهد كتاباً وصف فيه حياة ثلاثة آلاف نبات ماليزي (ماليزيا هي أندونيسيا والملايا والفيلبين) وهذه المؤسسة هي التي عرفت أهالي البلاد فوائد زراعة الكينا والكاكاو والشاي والمطاط.

يرى الداخل إلى الحديقة مجموعة ضخمة من عمالقة الأشجار، إذا رفع الإنسان رأسه ليراها رأى شيئاً عجباً، قبة هائلة من الغصون والأوراق، يزيد علوها عن خمسين متراً، وعلى كل شجرة رقمها، ولكل شجرة في الحديقة بطاقة نحاسية فيها اسمها ونوعها ومصدرها وتاريخ زرعها، ترى فيها أشجاراً من الفيلبين وسومطرة وأفريقيا والمكسيك وأمريكا الوسطى ومن كل مكان، منها النخلة الزيتية الأولى التي جلبت إلى هذه البلاد من أفريقيا باقية لا تزال[1]، ونارجيلة (جوزة هند) عالية عجيبة جذعها مثل البريمة التي تفتح القناني، وشجرة اسمها (انيتادا) من المنطقة الباسيفيكية، علوها يزيد على

(١) وصناعة استخراج زيت النخيل وتصديره من الصناعات الناجحة في جاوه.

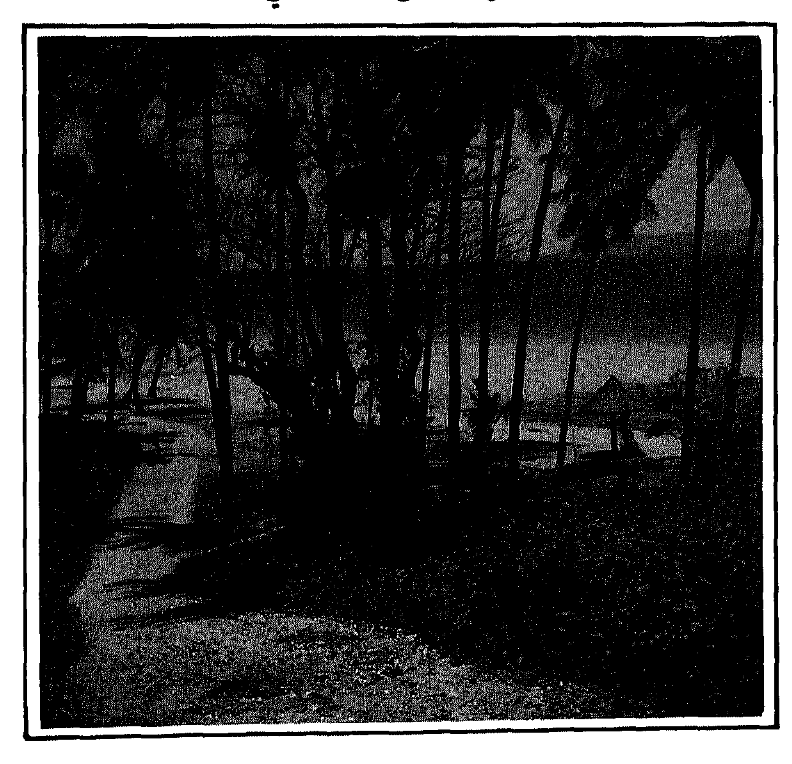
الستين متراً، وطول أكمام زهرها متر، وشجرة لها زهرة واحدة فقط، خضراء وسطها أحمر حوله كم أصفر طولها (أي طول الزهرة) متران ونصف المتر، ولها ورقة واحدة تظهر بعد ذبول الزهرة كأن هذه الورقة شجـرة عظيمـة. وقد بلغت النماذج المرقمة المعرفة من أنواع المزروعات في الحديقة عشرة آلاف.

وفي الحديقة برك صناعية، ويطفو عليها نبات عجيب ورقه كأنه الطباق الواسعة والصواني، ومنعطفات وملفات، وهضبات صناعية ومنحدرات.

وهي إحدى عجائب الدنيا.



صور من الشاطىء الأندونيسي



يوم في الجنّة

. . . ولست أعني جنة الآخرة، فإن دونها مصاعب وأهوالاً، وإن لم يتداركني ربي برحمته ومغفرته ما استحققت بعملي أن أريح ريحها ولكن أعني جنة الدنيا.

وليست جنة الدنيا الشام ولا لبنان، ولا سويسرة، ولكن جنة الدنيا جاوة، من رآها فقد علم أني أقول حقاً، ومن لم يرها لم يغنه عن مرآها البيان، وليس الخبر كالعيان.

وقد كان لي فيها يومان، عشت خمسين سنة، فما رأيت في حياتي يومين كانا أمتع لنفسي متعة، وأحلى في عيني منظراً، وأبقى في قلبي أثراً منهما.

يومان قطعت فيهما الجزيرة (أعني جاوة) من مغربها إلى مشرقها بالقطار، من جاكرتا إلى سورابايا، في طريق ما رأيت ولا سمعت، ولا أظن أني سأرى أو أسمع، أن في الدنيا طريقاً أجمل منه.

وإذا كان حقاً ما يقال من هبوط آدم في سرنديب (سيلان)[1] لانكشف سر ما هي عليه من جمال، ذلك أن آدم لما هبط كان في عطفيه بقايا من ريّا الجنة، فمن هنا كانت تلك البلاد جنة الأرض.

ركبنا القطار الكهربائي من محطة جاكرتا، فنزح بنا عنها والليل ينزح عن البلد، يمشي متسللاً كخيوط النور التي تتسلل من وراء الافق الشرقي، فترفع ستار الظلام عن هذه المشاهد كما ترفع تلك الخيوط ستار المسرح عن مشاهد الرواية. والصباح فاتن دائماً، ولكنه يبدو أشد فتوناً حينما تراه وأنت مقبل على بلد جديد، تتوقع الكثير من جماله وسحره.

---

(١) وصارت تدعى الآن سيريلانكا.

ولما أضاء النهار وبدت عين الشمس تضحك للدنيا من نافذة الأفق فتضحك للقائها الدنيا، كان القطار قد نأى بنا عن البلد، فكانت عن يسارنا مزارع الرز، وعن أيماننا الجبال تلبس فروة خضراء بادياً صوفها، تتزاحم على سفوحها وذراها، عمالقة الأشجار، يمشي في موكبها وبين أرجلها آلاف من أنواع النبات، فمن دخل هذه الغابات، لم تره عين الشمس، ولم ير هو وجه السماء، لأنه يكون تحت سبعة سقوف من الأغصان والأوراق ورأيت الزهر خلال الأرز، كالشقائق الحمر خلال خضرة القمح في بلادنا، فلما دنا بنا من ذلك القطار، رأينا ما حسبناه زهراً ليس بالزهر، وما ظنناه من النبات، إنما هو البنات الحاصدات بأزرهن الملونة (الفوط) التي تحكي الزهر بنقشها ولونها، وعلى رؤوسهن قبعات الخوص الكبار، كأنها المظلات الملونة المنقوشة، والقوم هناك يحصدون الرز بالأيدي، ثم يجمعون عيدانه الطوال، ويجعلونها كالأهرام[1]، ويعقدونها من فوق، ويدعون لها طُرَّة، فيكون منها منظر عجيب، كأنها الأكواخ المسحورة في حكايات الجن.

وليست مزارع الرز سهولاً، فما في جزيرة جاوة سهول، ولكنها جميعاً غابات فيها النبات المثمر النافع كالمطاط والنارجيل والخيزران والكتان والموز وقصب السكر، وما مزارع الرز إلا قطع من الأرض جردت من أشجارها، واستلبت من الغابة، فهي تحاول أن تتوارى مستحيية كأنها الفتاة العذراء جردتها من ثيابها وتركت المصون من جسدها نهب العيون، تحتمي بالغابة فيحميها دوحها، ويحف بها من كل جانب ليسترها ويخفيها، فترى على جوانب الحقل صفاً من الدوح يقوم كطلائع الجيش، ومن بعده أشجار الغابات تتابع صفوفها فإن أنت تغلغلت ببصرك فيها أحسست كأنك تنظر إلى الماضي المجهول من وراء الأطلال الماثلة... أو كأنك تطل على عالم الخفايا الساحرة من كوة الحب.

وكانت نافذة القطار، كلوحة (السينما)، ففي كل لحظة منظر جديد لا يشبه الأول، منها مناظر تنقلك إلى الهند فكأنك فيها، ومناظر يتعاقب فيها

---

(١) الأهرام جمع هرم.

أمامك النارجيل فهي تحملك إلى البصرة إلى طريق أبي الخصيب، التي عدها ياقوت إحدى منتزهات الأرض الأربع، يوم كانت تدعى الأبلة، أو إلى بغداد عند (الصليخ). ومناظر تجد نفسك إذ تراها في الشام، في العين الخضراء وزحلة تارة، وتارة في صوفر أو بلودان.

ثم توسط بنا القطار (جرادان) فلما جاوزناها، ودخلنا في منطقة الجبال، بدت لنا مشاهد إن قست بها ما كنا فيه من قبل، فقد قست هضبات نجد بسفوح (حاليًّا) وبلودان ولتلال نجد سحرها وجمالها، ولكن بلودان هي بلودان.

وكنا نسير أحياناً في واد ضيق كأنه وادي بردى في ضيقه، ثم يتسع حتى يكون أرحب من وادي (صوفر ـ حمانا)، وترى من تحتك جبالاً وأودية، لا يحصيها العد، كل جبل بلون، وكل واد على صورة والأنهار تتابع نازلة من الذرى، هادرة متكسراً ماؤها على أطراف الصخور، إلى قرارات الأودية، ونحن نجتاز بها ولقد عددت في ساعة واحدة سبعة وعشرين نهراً، ثم مللت العد.

وكان القطار الكهربائي يقطع في الساعة أكثر من ستين كيلاً وقد قطعنا ثلاثمئة كيل، وما انقطع العمران أبداً، فالقرى متصلات لا تعلم أين تنتهي القرية وأين تبدأ جارتها، والبيوت كلها كبيوت الخشب التي يلعب بها الأولاد، سقوف مائلة من (القرميد) الملون الزاهي، على عمد من نوع من الخيزران[1]، هو في جاوه في كل مكان، والجدران من الحصير الملون أو الخشب الرقيق المنقوش، بيوتا أنيقة حلوة لا تكلف شيئاً.

وما عجب أن يتصل في جاوه العمران، وهي (وباكستان الشرقية)[2] أزحم بلاد الله بالسكان فيها ثلاثة وخمسون مليوناً، وهي أصغر مساحة من الإقليم السوري، أصغر بكثير.

وكنا في ضيافة الحكومة الأندونيسية وهي التي أعدت لنا هذه الرحلة.

---

(١) من نوع منه يسمى (المامبو) يصنع منه كل شيء عندهم.

(٢) التي صارت بنغلادش.

وكان معنا مرافقان يتكلمان العربية واحـد من وزارة الشؤون الدينيـة، عالم فاضل أمين صادق هو الأستاذ صالح السعيدي، وآخر من وزارة الخارجية صاحبني فرأيت الكثير من شره وضره، وتعلمت منه أن الكذب والاحتيال بضاعة موجودة في كل مكان، وأن الواحد ربما أساء بفعله إلى بلد بكامله، فقد كان يأخذ السيارة المخصصة لنا ويدعنا بلا ترجمان نستـأجر السيـارات ويأكل في المطعم على حسابي، وهو يأخذ من الحكومة ما يدعي أنه صرفه علينا لأنا ضيوفها.

ولما قضينا على الطريق ساعات، وكنا قد خـرجنا بـلا طعام زقـزقت عصافير الجوع في بطوننا، والجمال في الطبيعة وفي الإنسان. . . مهما بلغ رواؤه وبهاؤه، ومهما اشتد فتونه وسحره، يملأ العين مسرة والقلب بهجة، ولكنه لا يملأ المعدة الخالية الخاوية طعاماً، ولو أن المجنون وليـلاه اجتمعا في أزهى الرياض، في خلوة غاب عنها الرقيب، ونأى العاذل، ولم يأكلا لكفرا بالحب ولعنا الغرام. ولآمنا بأن الرغيف الواحد أنفع لهما في تلك الساعة من كل ما قال شعراء الغزل في كل لسان.

وكان الرفيق الطيب إلى جنبي والآخر بجنب الشيخ، فقلت له:

ــ أما جعت؟ قال: بلى والله.

ــ قلت: أما من طعام؟ قال: لا أدري.

قلت: قم بنا ننظر في القطار فلا بد أن يكون فيه ما يؤكل وقمنا نقفز من حافلة إلى أخرى نتخطى الركاب ومنهم من يقوم عند الأبواب ومنهم من يضع صرته وحقيبته على الأرض ويقعد عليها.

وكان قطاراً طويـلاً فلم نبلغ آخره حتى بلغت أرواحنا التراقي، ولكنا كشفنا أخيراً عربة الطعام، كما كشف كريستوف كولومبس أميركا وصحنا: أوريكا، كما صاح أرخميدس وقعدنا لنأكل، وكان الطعام في القطار هو الـذي نلقاه في كل مكان في جاوة الطعام الذي لا يتبدل ولا يتغير وهو طيب ولكني لا أدري كيف لا يملونه ولا تعافه نفوسهم وهم يـأكلونه دائـماً، ولو أنـك

أطعمت إنساناً القوزي والنمورة كل يوم، ظهراً وعشياً شهراً كاملاً، لاشتهى المجدرة والمخلل وهؤلاء يأكلون دائماً الرز المسلوق الذي يخلطونه بالفليفلة الحمراء المدقوقة التي تشعل ناراً في الانبوب الهضمي من الفم إلى المعدة إلى الأمعاء إلى آخر الطريق! وهذا السمك الذي يعملونه كجرادق رمضان والموز المشوي والمقلي والمطبوخ... والشاي البارد بلا سكر.

والمضحك المبكي، أننا بعد أن قطعنا هذا الطريق الطويل، من عربتنا الفاخرة إلى مطعم القطار، ودسنا على أرجل عشرين إنساناً، وشيعتنا النظرات المتسائلة واللعنات المستترة وكدنا نسقط أربع مرات، تحت دواليب القطار، فنروح ضحية أكلة رز مسلوق بالفليفلة الحمراء... بعد هذا كله قال لنا نادل المطعم (الكرسون) متعجباً:

ـ لماذا لم تقرعوا الجرس؟ ليجيئكم الطعام.

ولما رجعنا وجدنا صاحبنا (الشاطر) يأكل وهو في مكانه لأنه وضع إصبعه الكريمة على زر الجرس الذي لم يبصره صاحبي، فجاءه النادل بما يريد.

وكانت السخرية الثانية بنا أن في القطار طعاماً إنكليزياً مقبولاً على كل حال، ليس فيه شيء من هذه الفلافل التي ألهبت أجوافنا وأشعلتها ناراً، أكل منه صاحبنا، وأنا لم أدر به فأكلت هذه النار والعياذ بالله...

ولما شبعت البطون من الطعام، أحسسنا جوع النفوس إلى الجمال، فنظرنا، فإذا نحن قد صرنا في الأعالي نرى من شق الوادي، ما خلفنا وراءنا من حقول الرز، وغابات المطاط وهي أشجار كبار رأيناهم يشقون جذعها بالسكين، فيسيل منها ماء يجمعونه، فيكون منه إذا تجمد هذا المطاط.

ومن أعجب ما رأينا أن القطار كان يمر بنا حيناً على جسر ممدود بين خطمي جبلين عاليين، فننظر من النافذة منظراً يدور منه الرأس: ذرى تحتها ذرى، وسفوح تليها سفوح، وقرارات أودية لا يبلغ البصر مداها، وكل مكان منها ومن الطريق كله ممتلىء بالزارعين والأطفال العاملين.

ولم نزل نصعد ونصعد حتى بلغنا الذروة، وجزنـا بمنطقـة (دار الإسلام) وهي شبه حكومة مستقلة[1]، ثم أخذنا ننحدر، وما بعد الصعود إلا النزول، و:

مـا طـار طـير وارتفـع   إلا كـما طـار وقـع

والطريق كما كان، غابات متصلة وخضرة متسلسلة حتى بلغنا المسـاء مدينة الجهاد، مدينة العلم، وعاصمة البلاد الروحية جوكجا (جوكجاكرتا).

* * *

(١) تحكم بشرع الله، وتطبق أحكام الإسلام، ولها حديث لعلي أعود إليه.

في جوكجا

نحن اليوم في بلدة أنا واثق أنكم لم تسمعوا بها، لأني عشت هذا العمر وأنا لم أدر بها، ولم يطرق سمعي اسمها. هي جوكجاكرتا، وهم يختصرون اسمها فيدعونها جوكجا.

بلدة في وسط جزيرة جاوة. ليست في جدة جاكرتا وسعتها، ولا في كبر سورابايا وغناها، ولكنها، تفضلها بأنها أعرق في المجد أمس، وفي العلم اليوم. كانت عاصمة مملكة متارام التي حكمت البلاد قروناً طوالاً[1]، حتى امتد سلطانها إلى شبه جزيرة الملايا، والتي ساقت على هولاندة يوماً جيشاً فيه مئة ألف، والتي تسلسل الملك في ملوكها وسلاطينها دهراً من مؤسسها إلى الملك الذي زرناه وهو هامنكو بوانا (صاحب الدولة) السيد، حامي ذمار الدين، خليفة المسلمين، سلطان متارام السلطان عبدالرحمن العاشر.

وهذه القابة الرسمية، لم آت بها من عندي.

بلد العلم والجهاد:

وهي اليوم مدينة المدارس والجامعات، فيها الجامعة الحكومية المشتملة على ست كليات، (للطب والحقوق والآداب والعلوم والهندسة والزراعة)، لا يقل طلاب كل كلية منها عن ألف وخمسمئة، وفيها ما يبلغ طلابه ثلاثة آلاف. وفيها الجامعة الأهلية الإسلامية، وتشمل على ثلاث كليات (الحقوق والاقتصاد والتربية)، وهي تعنى بالعلوم الشرعية والسلوك الديني. والتعليم فيها مقتبس عن الأسلوب الهولاندي وهو أسلوب حر، رأيته أشبه شيء

---

(١) يرجع تاريخ إقامتها إلى القرن العاشر الميلادي.

بأسلوب الأزهر القديم، قبل أن يصير فيه صفوف وامتحانات. ولم أحضر الدروس فيها لأني جئتها في عطلة، والمدارس في أندونيسيا تعطل ثلاثة أيام في كل شهر، أما العطلة السنوية فمن آخر شعبان إلى ما بعد عيد الفطر، ولا يدور رمضان في الفصول كما يدور عندنا، لأنه ليس في أندونيسيا شتاء ولا صيف، يتعاقب فيه البرد والحر، وسنتها كلها فصل واحد.

وجوكجا فوق ذلك دارة الجهاد، ومثابة الأبطال. ولقد عملت للاستقلال كل جزيرة من الجزر الأندونيسية التي يعد المسكون منها ثلاثة آلاف، وكل بلدة فيها وكل قرية، ولكن ليس فيها ما عمل عمل جوكجا. فلقد كان فيها يومئذ قيادة الجهاد وكانت عاصمة البلاد. ولقد خرج مشايخها فيمن خرج، أطبقوا كتبهم، وأغلقوا مدارسهم، وحملوا السلاح، فخاضوا المعارك، وأتوا بالعجائب.

برنامج حافل:

ولقد كنت في جاكرتا أشكو الوحدة، والخمول، تمر عليّ الأيام لا أكلم فيها أحداً، لأني لا أجد من أفهمه ويفهمني، أخاطب الناس بالإشارة، كأني أخرس، أو كأنما أنا إنسان الغابات الذي عاش قبل اختراع الألسن واللغات، ولقد بقيت ليالي بلا عشاء، لأني لا أحب ما يقدم في الفندق ولا أستطيع أن أفهمهم ما أحب، ولطالما مرت عليّ ساعات خشيت فيها من الوحدة أو الضيق على عقلي. . . فلما خرجنا في هذه الرحلة إلى داخل البلاد، وضعوا لنا برنامجاً لم يتركوا لنا فيه لحظة انفراد، أو دقيقة راحة، فانتقلنا من برد الصقيع إلى لهب النار. كنا نتمنى أن نلقى من نكلمه، أو نجد ما نعمله، فصرنا نتمنى أن يكفوا عنا، أو يدعونا لأنفسنا ساعة من زمان. ولو أني وصفت لكم كل ما رأيت، لزاغت من السرعة أبصاركم، كما زاغ بصري، ولم تعوا من حديثي شيئاً، فدعوني أقصر الحديث على ثلاثة مشاهد في جوكجا: المدينة القديمة، وزيارة الملك، ودار المعلمين.

جوكجا مدينة رحبة الجوانب، واسعة الشوارع، حديثة العمران، فيها عجائب الصناعات اليدوية لا سيما الأدوات الفضية التي لا يتقن أحد نقشها

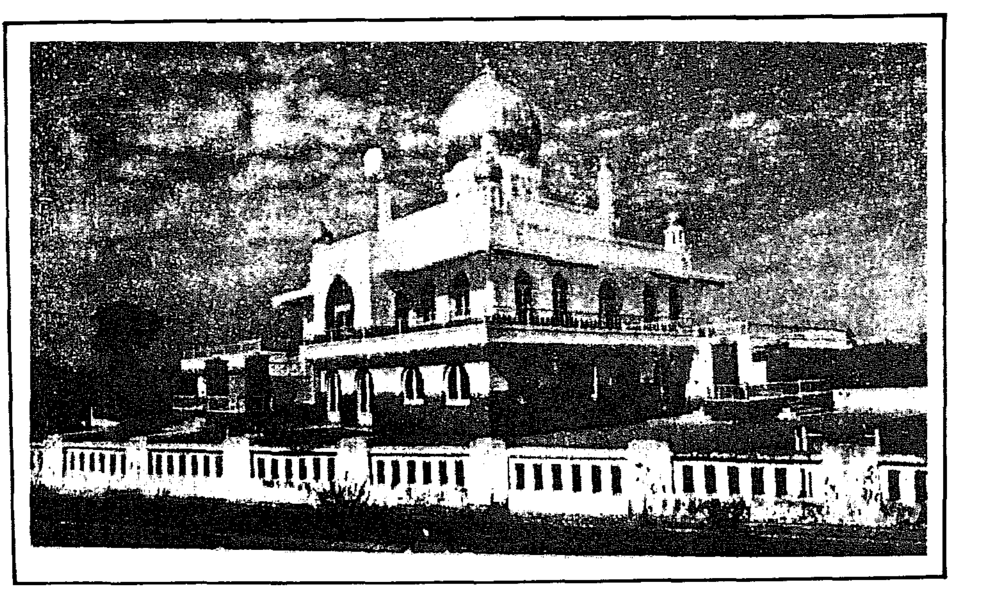
والافتتان فيها، إتقان الجاويين إياها، ونسج الأُزر (الفوط) المنقوشة المزخرفة، وهي اللباس الرسمي للرجال والنساء وطلبة المدارس وموظفي الدولة، وهي عادة قديمة وصفها ابن بطوطة ولا تزال باقية إلى اليوم.

البلـدة القـديمـة:

أما البلدة القديمة، فهي مربعة عليها سور قائم، طول كل ضلع من أضلاعه نحو ألف متر، يكاد قصر الملك يحتل ربعها. وما هو بالبناء المشمخر العالي، ولكنه دور صغيرة أنيقة، له باب كبير، وأمامه ساحة واسعة فيها صفوف من عمالقة الأشجار، تكاد تظللها على سعتها. وعلى جانبي الباب بيتان من الحجر، كانا مسكني الفيلين الملكيين، الفيل الأبيض وهو مركب الحفلات والمواكب، والفيل الأسمر وهو المركب العادي. وكان الفيل يومئذ العربة الملكية أو السيارة الخاصة في أيامنا. والباب يفضي إلى حدائق فيها من عجائب الزهر والشجر ما لا يوصف.

ومنازلها غاية في الأناقة، ودقة النقش. دخلناها كلها حتى انتهينا إلى قاعة العرش، وهي مشيدة على أسلوب من العمارة فريد، لها جدران سامقة، وسقف عال، مغطى بالنقوش والصور، وفي وسطها سدة مكشوفة الجوانب الأربعة، لها أدراج من كل جانب من الرخام الذي يزري بالمرايا، وأعمدة دقيقة من خشب الساج المنقوش بالنقوش الدقيقة الملونة، وفوقه مئات من القباب الصغيرة، القائمة على أعمدة دقاق، تؤلف سقفاً مثل الهرم الرباعي، يبدو للناظر كأنه تاج ملكي.

هـذه هي سدة الملك التي طالما رأت في سالف الدهر، من أبهة السلطان، وزهو النصر، ومظاهر الجلال، فانتهت... أتدرون إلام انتهت؟ إلى ما هو أجل وأعظم من ذلك كله. لقد أفاض عليها الملك الحالي مجداً وجلالاً، لم تفض عليها مثله هاتيك الفتوح كلها، وهاتيك الأنتصارات. هو أنه قدمها هي والقصر هبة منه للعلم. فصار قصر الملك كلية الطب، وصار عرش الحكم منبر العلم، ومجالس الوزراء مقاعد الطلاب، فازدادت بذلك فخراً وشرفاً.



جامع الشهداء في جوكجا

والمعلم دائماً ملك، بل هو فوق الملك. فالملك المطلق الجبار يتصرف بالأجساد وحدها، ما له على الأفكار سلطان والمعلم يتصرف بالعقول والقلوب، فهنيئاً لكم أيها المدرسون الذين يجلسون على عرش السلطنة في جوكجا، وهنيئاً لك يا أيها الملك. لقد أهديت إليهم عرشك، فأقمت لك مكانه عرشين: عرشاً في القلوب دعائمه الحب والإكبار، وعرشاً في التاريخ يبقى أبداً.

زيارة الملك:

وكان في البرنامج موعد للزيارة الملكية، وكان يوم عطلة، ولكن السلطان تفضل فنزل إلى مكتبه في ساعة الموعد، لنتشرف بلقائه. وكان المكان كله خالياً، فانتظرنا دقائق في غرفة السكرتير، ثم أخذونا إليه، في دار واسعة، كأنها إحدى الدور الشامية القديمة. فتلقانا عند الباب شاب صغير السن، أسمر اللون، ببذلة بيضاء، وقادنا إلى كراسي مصفوفة في رحبة الدار، فقعدنا نتحدث، والمترجم يسفر بيننا. وقدم لنا الشاي فشربناه، وطال المجلس، ومللنا الانتظار فقلت للترجمان: ما هذا التعقيد في مراسم الاستقبال؟ ومتى ندخل على السلطان؟ فابتسم ولم يتكلم فاستفهمه الشاب فقال له (بعد تردد) كلاماً. . . ضحك منه ضحكة مجلجلة، وضحك الحاضرون. ولبثت أنا وصاحبي واجمين لا ندري ما الحكاية، فأدرك ذلك الشاب فقال شيئاً لما فهمناه من المترجم عرفنا سر الضحك.

قال إنه يأسف لأنه لم يعرفنا بنفسه. وإذا هو السلطان بلحمه ودمه وقد وقع لنا مثل هذا بالضبط لما زرنا سلطان بَهاو ولبوْر في باكستان.

وما ذنبنا إذا كنا نرى صورة السلطان على الجدار وهو مثقل بالتاج المرصع، وعقود اللؤلؤ التي تملأ العنق، والأوسمة التي تستر الصدر، ونرى أمامنا شاباً أسمر صغيراً، لا يختلف في مظهره عن واحد منا نحن عباد الله الصعاليك. . .

وثقوا يا سادة أني لم أدر من الخجل كيف أودع هذا الملك العظيم حقاً،

العظيم بإصلاحه ودينه وحبه للعلم، وكرم أصله ويده، وتواضعه الذي دفعه أن يمشي معنا مودعاً إلى الباب.

الجمعية المحمدية:

أما المشهد الثالث، فهو مدرسة المعلمين، هل قلت مدرسة؟ أنا إذن أعتذر. فما هي مدرسة بل هي حي كامل، وإنها أكبر من داري المعلمين والمعلمات معاً في سوريا، وليست مدرسة حكومية تابعة لوزارة المعارف بل هي مدرسة خاصة أنشأتها الجمعية المحمدية لتخرج معلمين لمدارسها.

وسأحدثكم عن الجمعية المحمدية، لتروا أنها عملت لنشر العلم ما لم تعمله جمعية في الدنيا، وحسبكم الآن أن تعلموا أن لها نحو سبعمائة مدرسة ثانوية، فضلاً عن الإبتدائيات والمتوسطات. وإن الحكومة تمنحها معونة رمزية قدرها مليون ونصف مليون ربية، أي ما يعادل نصف مليون ليرة سورية. وفي البلاد جمعيات غيرها تنشر التعليم وإن لم تبلغ مداها، جمعية الإرشاد التي زرنا مدارسها الكبرى في سورابايا، وجمعية نهضة العلماء التي رأينا من مدارسها المدرسة السلفية في قرية كرافياك على باب جوكجا، وهي مدرسة شرعية. ومعهد القرآن، وهو ثانوية عربية تعنى بالقرآن وقراءاته وتفسيره وعلومه.

وهذه المدارس كلها وأشباهها في سومطرة والملايو، تعلم العربية وخريجوها يتقنون العربية الفصحى قراءة وكتابة وفهماً، ويحسنونها كلاماً باللهجة الحضرمية.

وللحضارم فضل كبير في نشر العربية والإسلام في هذه البقاع، وهم منتشرون في أندونيسيا كلها والملايو لا يخلو منهم مكان.

ولهذه المدرسة قصة، فيها قدوة للعاملين، وعبرة للمقصرين، بدأت سنة ١٩٢٦، حين عز على الجمعية أن تجد ما تريد من المعلمين لمدارسها، ففكرت في أن تأخذ عشرة من نابهي الطلاب، فتعدهم ليكونوا معلمين وفرغت لهم غرفة في مدرسة من مدارسها، فما زالت الغرفة تلد غرفة،

والعشرة تجلب عشرة، حتى صار من ذلك دار معلمين قل نظيرها، دار بقينا فيها ثلاث ساعات، نرى قاعاتها ومهاجعها ومكتبتها وملاعبها. ولولا العطلة لرأينا دروسها وطلابها. ولقد هدمت هذه الدار بعد أن اكتملت، وذلك سنة ١٩٤٥ عند النكسة، حين خرب المجاهدون الوطنيون كل بناء كبير لما انسحبوا لئلا يحتله الإنكليز والهولانديون، ويتخذوه معقلاً وحصناً، فلما كان الاستقلال وكان الاستقرار، أعادتها همم هؤلاء الرجال أعظم مما كانت.

وزرنا مكتبة جوكجا التي تضم أربعين ألف كتاب عربي، ومسجدها العظيم، مسجد الشهداء الذي بنته أيدي أبناء جوكجا، بلدة الأمجاد والبطولات، بلدة الدين والعلم، البلد الذي ملأ قلبي الإعجاب به، وبملكه وبماضيه وبحاضره. فعلى هذا البلد الطيب، وعلى ملكه الشاب المصالح، المتواضع، وأهله المجاهدين الأخيار، سلام الله وبركاته وتحياته.

الجودك:

كنت كلما شكوت من الطعام في أندونيسيا، قالوا: ستذوق الجودك، فتعرف ما لذة الطعام الأندونيسي، إن طبق الجودك هو أفخر طبق طعام في الدنيا.

فكنت أقول: أرونا هذا الجودك؟

فيقولون: هيهات، إنك لا تأكله إلا في جوكجا.

ولما زرنا جوكجا، قلت: الجودك؟!

قالوا: نعم، ولكنه لا يقدمه إلا محل واحد، لا يوجد في غيره، تصنعه صاحبة المطعم بيدها، وهي التي ابتكرته، واختصت بمعرفة سره.

وأخذونا إلى مطعم مزدحم ما فيه موطىء قدم، فانتظرنا حتى خلت مائدة، فجلسنا إليها، وكان الجوع قد نال منا، فجاؤنا بالجودك...

ومددت يدي لأذوق أفخر طبق في الدنيا، وإذا بي أجد في فمي شوربة زيت خروع بصبغة اليود... ولم استطع أن أبتلع اللقمة، ولم أجد مكاناً أذهب فألفظها فيه...

وإذا الجودك المحترم، مجموعة من غرائب الخضر، طعمها كطعم ورق البـاذنجان، قـد طبخت مع البيض المسلوق، بسمن جـوز الهنـد، وملئت بالفلفل الأحمر الذي هو النار المحرقة، ووضع مع هذا كله (عجائب) أخرى، لم أعرفها لأنها هي سر الصنعة...

فقلت: واشوقاه إلى الشام وطعام الشام!.

* * *

إسلام أندونيسيا

أحب أن تولوني اليوم المزيد من انتباهكم، فإن هذا الحديث صعب، لأني حاولت أن ألخص حوادث ثلاثمئة سنة في خمس عشرة دقيقة. ما تسمعونه مني في الدقيقة الواحدة، صرم الدهر في تأليفه عشرين سنة.

ولئن كان صعباً عليكم سماعه، وتتبعه، لقد كانت كتابته أصعب علي، لأني قرأت أكثر من ألف صفحة، وسألت رجالاً كثيرين في تلك البلاد، حتى قدرت على كتابة هذه الصفحات العشر. لا أقولها منّا عليكم، فلكم المنّة إن استمعتم أمثال هذا الحديث، وتركتم ما يطرب ويسلي مما تذيع الروادّ[1]، ولكن لتعرفوا قدر ما بذلت فيه.

هذا الحديث عن دخول الإسلام ودخول الإستعمار إلى أندونيسيا، يتلوه حديثان من جنسه، حديث عن جهاد الأندونيسين واستقلالهم. وحديث عن الأحزاب والجمعيات في أندونيسيا.

على أني لا أستطيع أن أعرض عليكم من هذا كله إلا إشارات، لأن التفصيل في الكلام عن أندونيسيا يحتاج إلى كرسي مستقل في الجامعة، وسنة كاملة ينقطع إليه فيها المدرس والطلاب.

ويا ليت الجامعات في البلاد العربية تجعل من موادها تدريس اللسان الأندونيسي الذي يتكلم به أكثر من مئة مليون مسلم في أندونيسيا والملايا، واللسان الأوردي الذي يتكلم به أكثر من أربعمئة مليون في باكستان والهند، منهم مئة وعشرون مليوناً من المسلمين.

---

(١) الرواد جمع راد، وهي كلمة وضعتها للراديو لأنه يرد علينا الصوت المنتشر في الفضاء ولأن اسمه قريب منه.

وبعد فكيف دخل الإسلام إلى هذه الجزر النائية، حتى صار منها اليوم أكبر دولة إسلامية في الدنيا، وأكثرها أناساً، وأغناها أرضاً، وأكبرهـا همة، وأبعدها عزيمة، أو هي (على الأقل) إحدى الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين؟

من أين وصل الإسلام إليها؟ ومتى دخلها؟ وكيف انتشر فيها؟ لم أعرف ذلك إلا اليوم ولا عرفت من يعرفه. ولقد نظرت في الكتب التي وصلت إليها يدي فلم أجد فيها عن ذلك الخبر اليقين.

ولقد كنت عرضت على الدكتور سوبارجو وزير الخارجية السابق ومستشار الخارجية الآن، أن يمدني بالمصادر الكافية للكتابة عن أندونيسيا، فنسي أن يفعل، وسألت السفارة الأندونيسية في مصر فلم تجب. مع أن هذه الدعاية التي أقوم أنا بها مجاناً، تشترى عادة بالأموال الطائلة، ولا أدري ما حجة القوم في هذا الإعراض.

وأقدم نص عربي وجدته هو ما كتبه الرحالة المغربي ابن بطوطة، فقد وصل إلى سومطرة (وسماها جاوه). جاءها من الهند، بعد رحلة في البحر استمرت أربعين يوماً، ويظهر أن اسم الجاوه كان يطلق على مجموعة الجزر. لأنه بعد أن يبين أنه وصل الجاوه، يصرح بأن اسم المدينة التي دخلها سمطرة. ويبدو من كلامه أنها كانت في النصف الأول من القرن الثامن الهجري (أي نحو سنة ١٣٥٠ ميلادي) عريقة في الإسلام.

فالملك مسلم اسمه السلطان الملك الظاهر، وهو شافعي المذهب، متفقّه، والعلماء كثيرون، والشعائر الإسلامية معلنة، واللسان العربي منتشر ومفهوم، والشعب كله شافعي المذهب، مقيم الصلاة، متمسك بالإسلام، وقد وصف على عادته كيف قابل الملك. ووصف ثياب القوم وأنها هذا الإزار (الفوطة)، ووصف العادات والمواضعات وأنواع النبات ولكنه لم يذكر شيئاً عن جغرافية البلاد وتاريخها، واسم هذه المملكة وحدودها، وصلاتها بجيرانها.

والذي يغلب على الظن، أن الإسلام قد دخل إلى هذه الجزائر قبل أن يصل إليها ابن بطوطة بأكثر من قرن ونصف القرن، حمله إليها التجار المسلمون، من طريقين: من بلاد العرب، ولا سيما من حضرموت،

والحضارمة فينيقيو العصور الحديثة، يضربون في كل لج، ويخوضون كل بحر، ويوغلون في البلاد، ولا تزال جالياتهم اليوم تملأ أندونيسيا والملايا، وتحتل مرتبة الصدارة في كل أرض. ومن بلاد الهند ولا سيما من كجرات في الشاطىء الغربي.

بدأ الناس في شمالي سومطرة يدخلون في الإسلام أفراداً، ثم صاروا يدخلون فيه أفواجاً، ثم ألّفوا حكومة قوية هي (مملكة أتشيه) التي زارها ابن بطوطة، والتي لبثت تجاهد المستعمرين، البرتغاليين أولاً، ثم الهولانديين حتى قضي عليها سنة ١٩٠٤ أي بعد زيارة ابن بطوطة بأكثر من خمسمئة وخمسين سنة.

واستمر هؤلاء التجار، يحملون مبادىء الإسلام، مع سلعهم وبضائعهم، إلى كل مكان يصلون إليه، ثم قفزوا به قفزة واحدة، من سومطرة إلى شرقي جاوة، وكان الفضل في هذه النقلة لرجل اسمه ملك إبراهيم المتوفي ١٤١٩، وقد زرت قبره، في قرية اسمها كاراشيك (وهو محرف عن مقر الشيخ) وسأصفه لكم. ومنها دخل سورابايا، وامتد إلى أطراف جزيرة جاوه، أي أنه مشى من الطرف البعيد عنا، إلى الطرف القريب منا.

والغريب حقاً أن الإسلام كالنبع الصافي، كلما ابتعدت عنه مياهه، تعكرت وتلوثت، وقد وصل الإسلام إلى هذه الديار بعد أن ابتعد عن النبع، ابتعد في الزمان وفي المكان، وقد حمله تجار لم يكونوا قط علماء منقطعين إلى العلم، ولم يكونوا دعاة متفرغين للدعوة، ولم يكن همهم نشر الإسلام وإنما كان همهم الكسب والتجارة، ومع ذلك فقد انتشر الإسلام مثل انتشار النار في أكوام القش، حتى عم هذه الجزر كلها، فصار فيها اليوم (هي والملايا) أكثر من مئة مليون مسلم، من أكثر المسلمين حماسة للإسلام، وحباً له، وإقبالاً عليه. ولو كان علمهم بحقائقه كحماستهم له، لكانوا خيار مسلمي الأرض.

وكان من دواعي انتشار الإسلام إقبال هؤلاء التجار على الزواج بالجاويات، وهن من أحلى النساء حلاوة، وإن لم يكنّ من أجملهن جمالاً، حلوات كعرائس المولد في مصر التي تصنع من السكر الهش الطري، لا

هن ذوات أنوثة ورقة وطاعة للزوج،
حيل جديد. ما عرف الإسلام إلا لأنه
الأبوين، وسجايا الجنسين، هؤلاء

حادث غريب، فقد أحب الملك كرتا ويجايا،
ملك جاوه الوسطى الاميرة المسلمة اتّشمّنبا وسألها الزواج فأبت حتى يسلم، فأسلم، وكان إسلامه فاتحة عهد إسلامي جديد، انتشر فيه الإسلام في جاوه الوسطى ونشأت إمارات إسلامية صغيرة، ثم اتحدت سنة ١٥١١ وأعلنت الإنفصال عن أمبراطورية ماجا فاهيت، وتوالى عليها الملوك، حتى جاء الملك (فاتي أونس) القائد البارع، فقضى على هذه الأمبراطورية العظيمة سنة ١٥٢٦.

وفي السنة التي أسلم فيها ذلك الملك، ليتزوج بالأميرة المسلمة، نزل البرتغاليون تلك الجزر، جاءوا تجاراً محاسنين، ثم طمعوا في البلاد فتدخلوا في سياستها، ثم عمدوا إلى المخاشنة بعد المحاسنة. وبدأ عصر الجهاد وكانت مملكة أتشيه في قوتها وعظمتها فلم تدعهم ينالون إلا أطراف السواحل، والجزائر المفردة البعيدة.

ووصل الإسلام إلى جاوة الغربية (التي فيها جاكرتا) وانتشر فيها، وعم أهلها وأقام السلطان حسن مملكة بنتام الإسلامية، فصار في سومطرة وجاوه أربع دول مسلمة: أتشيه في شمال سومطرة، وكراشيك في شرق جاوة ومتارام في وسطها، وبنتام في غربها، وقامت بعد ذلك عشرات من الإمارات المسلمة في هذه الجزر المتباعدة التي يعدّ المسكون منها ثلاثة آلاف جزيرة.

وما زال الإسلام يمشي إلى أطراف البلاد، بلا دعوة داع، ولا سيف مجاهد، يمشي على قدميه، بقوته ومزاياه لا يحمله أحد، حتى قامت حكومة متارام فنشرت راية الجهاد، واستلت السيف، وأرادت نشر الإسلام في أطراف البلاد التي لم يصل إليها بعد، فكانت حروب متصلة وغزوات.

ولم يكد ينصرم القرن السادس عشر الميلادي حتى صارت جاوة كلها مسلمة. بعد ذلك التاريخ يا سادة: وصلت طلائع الهولانديين، وصلوا والبلاد كلها مسلمة، وفيها حكومات قوية، والحروب والمنازعات متصلة بينها وبين البرتغاليين، الذين مر على وصولهم إلى هذه البلاد نحو من قرن ونصف، وكانت الحرب قائمة في أوربة بين هولاندة وإسبانيا والبرتغال، فرحب بهم أهل البلاد، لما أعلنوا أنهم يريدون إنقاذها من المستعمرين البرتغاليين، وما عرفوا أن الإستعمار كله نار، وإن الذي يفر من النار إلى النار لا ينجو من اللهب.

نزل الهولانديون ضيوفاً، يعتمدون على كرم الشرقي، يبسمون له لا ليسروه بل ليسحروه، ويصافحونه لا ليؤكدوا الود بل ليختبروا قوة اليد، ويسألونه لا ليطمئنوا إلى حسن أخباره، بل ليعرفوا المكنون من أسراره، وهذه مقدمة كتاب الإستعمار.

ثم جاؤوهم بالسلع الأوربية، وما كانو يحتاجون إليها، ولا تقوم حياتهم عليها، ويأخذون ثمنها ثروات أرضهم وخيرات بلادهم، وهذه هي تتمة المقدمة، فلما فرغوا منها، فتحوا الكتاب، وتلوا منها أول باب وهو باب المعاهدات.

فعقدوا المعاهدة الأولى سنة ١٦٠٠ م فتعهدوا لأهل البلاد بتحصين جزيرة أمبونيا ودفع المستعمرين البرتغاليين عنها، إيماناً واحتساباً، لا يريدون على ذلك جزاء ولا شكوراً، ما يدفعهم إلى ذلك إلا الحب للبلاد، والرغبة في حفاظ استقلالها وإنقاذها من المستعمرين البرتغاليين أعداء الجميع، ثم إنهم خدمة لأهل البلاد يقبلون بأن يحملوا على عواتقهم تصريف منتجاتها، وشراء حاصلاتها، ينفردون بذلك وحدهم لئلا يشاركهم أحد هذا الشرف العظيم.

وتتالت بعد ذلك المعاهدات، كما تتالى الحلقات وتترابط، فيكون منها سلسلة طويلة، هي قيد الحرية ورباط الإستعمار.

وجنت الأرباح الطائلة الشركات الهولاندية، فتنازعت مثلما تتنازع

السباع على الفريسة، وخاف العقلاء منهم أن يفوتها كلها الربح، فألفوا منها جميعاً شركة الهند الشرقية الهولاندية، فسارت على نهج شركة الهند الإنكليزية وكانت حكومة في حكومة، وبدأت فصول جديدة في كتاب الإستعمار.

وأعادت الشركة حكاية المعاهدات، وحماية البلاد من البرتغاليين، ذئب يحمي النعجة من الذئب، ليكون لحمها له وحده، دون أخيه في الذئبية، ولكن البلاد لم تصر في ذلك العهد نعجة بعد، بل هي غابة آساد ولكنها متفرقة متنازعة، ثم أن أكثرها نائم يحلم وسط الغاب، وكانت هذه هي علة العلل في الشرق. النوم والغفلة والإنقسام والتنازع ولولاها ما ملك غربي من أرض المشرق شبراً واحداً.

ومشى الإستعمار في طريقه مرحلة أخرى، فاستأذنت الشركة أن تقيم على السواحل مخازن لتجارتها، وتحصنها لتحميها من المستعمرين البرتغاليين، وأذنت بذلك الممالك الأندونيسية فامتلأت السواحل، بحصون هولاندية قوية فيها الجند والعتاد ولكن أسمها الرسمي مخازن الشركة، وليس فيها رسمياً إلا البضائع المعدة للشحن.

ومشى الإستعمار مرحلة أخرى بل مراحل كثيرة في شوط واحد، حين جاء بالقائد الصلد القاسي، والسياسي الذكي البارع (كون) الذي حفر للإستعمار الهوندي في أندونيسيا الأساس، وأرسى الدعائم، ورفع الأركان.

وسار به شوطاً كبيراً، لم يسره مَنْ قبله، فقد كانت للشركة الفروع الكثيرة والمخازن التي أنشأتها وجعلتها قلاعاً، فاستأذن حكومة بنتام في إقامة مركز عام للشركة، فأذنت له ولم تدر أن هذا المركز سيكون عاصمة البلاد ومقر الإستعمار، ومبعث النار التي تأكل الحرية والإستقلال.

وفي إحتفال ضخم أطلق على مدينة جاكترا (جاكرتا اليوم) اسم (بتافيا) الهولندي وفتح للهولانديين باب الهجرة إليها، وأرضى أصحاب الأراضي من الزعماء، واستغل عمل العمال بما يشبه السخرة المجانية، ونازعه الإنكليز البلد لما رأوا خيراته وغلبوه عليه، فعاد بعد شهور واسترده وطرد الإنكليز.

وسفرت هولاندة عن وجهها وخلعت هاتيك البراقيع التي كانت تغطيه، والتي رسمت عليها البسمات الكاذبة، وأقبلت مستعمِرةً، فأسست سنة ١٦١٧ مدرسة هولاندية، وسنة ١٦٢٤ أول كنيسة هولاندية تستغل العلم والدين للإستعمار، ووضعت للبلاد دستوراً غريباً عن معتقداتها وعاداتها هو دستور باتافيا، وبدأ النزاع، وقامت الثورات والحروب.

وكان ميزان الاستعمار يرجح ويطيش، تبعاً للحالة السياسية في أوروبا، فلما احتل نابليون هولاندة عام ١٧٩٥ تألفت حكومة هولاندية باسم جمهورية باتافيا بقيت إلى سنة ١٨٠٦ أذاقت الأندونيسيين ألوان الأذى وسخرتهم وأرضهم لمصالح تجارها.

وفي سنة ١٨١١ سيطرت على البلاد شركة الهند الشرقية البريطانية، وكان بطل الموقف القائد الإنكليزي الشهير ريفلس، فأصلح في الإدارة وكان حكمه أخف أذى، ولما هزم نابليون عادت البلاد إلى هولاندة، فأصدرت قانون الزراعة الذي غصبت فيه خيرات البلاد كلها، لتعوض ما فقدته من حروب نابليون، وكانت مجاعات مات في إحداها مئة ألف في سيمارانج فقط ما بين تشرين الأول ١٨٤٩ وآذار ١٨٥٠.

وقد مر الإستعمار الهولاندي في أندونيسيا بأربع مراحل.

فمرحلة امتدت مئتي سنة من ١٦٠٠ إلى ١٨١٦، كان الهولانديون فيها تجاراً مغامرين، يتوسلون بالحيلة أحياناً وبالقوة حيناً، إلى امتلاك أطراف البلاد بالقوة، والسيطرة على ملوكها بالمعاهدات، واستلام خيراتها، وهم يتقدمون خلال ذلك إلى الأمام، كل يوم يطلع عليهم يزيدهم تمكناً ونفاذاً، حتى ملكوا أكثر جاوه، وأطراف سومطرة وكثيراً من الجزر الصغار.

ومرحلة من ١٨١٦ إلى ١٨٥٠ كانت مرحلة تأسيس وتوطيد، وجمع المال من كل طريق، والإيقاع بين الملوك والتزلف بالحيلة إلى قويهم والسيطرة بالقوة على ضعيفهم.

ومرحلة من ١٨٥٠ إلى ١٩٠٤ كانت مرحلة حروب متصلة مع

حكومات الجزر الأندونيسية ولا سيما مملكة أتشيه العظيمة.

ومرحلة من ١٩٠٤ إلى الحرب الأولى، كانت مرحلة تغلب وظفر فقد تمت السيطرة على أكثر الملوك والحكومات فمنهم من استسلم فبقي له اسم بلا حكم، وكيان بلا سلطان، ومنهم من حارب وحده فغلب.

وكان الذي مكن للمستعمرين، أمور فيها عبرة لكل شرقي يريد أن يعتبر بغيره.

أولها: هذا التفرق والانقسام، ففي كل جزيرة دولة لها ملك، ولها علم، ولها جيش، مع أن اللسان واحد، والدين واحد، والأرض واحدة ولا داعي لهذا التعدد إلا خوف الملوك على عروشهم، والحاكمين على سلطانهم.

والثاني: أن الأرض أكثرها ملك للزعماء والأمراء، والناس يعملون كالدواب فيها، تشبع الدواب وهم لا يكادون يشبعون، فلما استمال المستعمرون هؤلاء الزعماء، اتخذوهم سوطاً فضربوا بهم الناس، حتى إذا أمنوا الناس عادوا إليهم فضربوهم بسوطهم.

والثالث: هذه الحرب الإقتصادية المنظمة التي لا تعرفها تلك النفوس الطيبة، التي لا تزال على الفطرة أضربُ عليها مثالاً واحداً، وتحت يدي كثير من الأمثلة لو اتسع الوقت لها.

لما ازدهرت صناعة السجاير الوطنية سنة **١٩٣٣** وأقبل الناس عليها، جاءت الشركات الأجنبية فاشترت كل ما انتجته المصانع الأندونيسية، فوضعوه في مخازن أعدوها له، وأمروا عليه غازات كيميائية، تفسد طعمه، ولا تبدل شكله، ثم عرضوه في الأسواق، فلما أخذه الناس أصابهم منه السعال والمرض، فضاعت ثقتهم بالمصنوعات الوطنية، وأعرضوا عنها حتى ماتت وأغلقت معاملها.

والرابع: المستشرقون، أو واحد منهم هو (سنوك هور غرونية) الذي أعلن أن سر قوة هذه الأمة هو الإسلام، وأنه لا يمكن قهرها إلا بمعرفة هذا السر، وقد حقق بنفسه ما أعلنه، فادعى الإسلام، وتعلم العربية، ودرس في

الأزهر، وذهب فجاور في مكة، حتى صار من العلماء بالإسلام والعربية، ثم دخل مملكة أتشيه عالماً مسلماً، وعاش فيها يدرّس ويدرّس، ويخطب ويؤمّ، وعينه تلحظ كل شيء، وقلبه يسجل، حتى أخرج هذه الكتب التي تعد المورد الأدنى لكل من يكتب عن هاتيك البلاد، والتي كانت لهولاندة أكثر من جيش، لأنها صنعت ما لم تصنعه الجيوش، حين جعلت منها ومن صاحبها دليلاً في حرب المسلمين في أندونيسيا.

والخامس: فتح الباب للمهاجرين الأجانب، من هولانديين وصينيين، وسيطرتهم على مرافق البلاد، وامتلاكهم موارد خيراتها، وهم قوم مستثمرون لا يهمهم إلا الكسب، فهم لذلك عون للمستعمرين لأن الإستثمار حلف الإستعمار.

ولقد بلغت رؤوس أموال الشركات الأجنبية في أندونيسيا سنة ١٩٣٧ (٣٧٠) مليون جنيه، منها ٢٥٠ مليوناً للهولانديين، ولا تزال أكثر مرافق البلاد إلى الآن من مطاط وسكر وغيرهما في يد هذه الشركات.

على أنه ليس في الدنيا خير محض ولا شر محض، وما من مصيبة لا تجر نفعاً، ولقد كان من منافع الإستعمار، وهو شر وضر، أن أدخل في البلاد زراعات جديدة وصناعات، وأنه وحّدها بعد أن كانت متفرقة، ولقنها دروساً أحسنت الاستفادة منها، وأطلعها على سر الحضارة الأوروبية، فذهبت جدتها وبطل سحرها، وأخذت بالقسط الكامل منها.

ولم يهدأ الأندونيسيون سنة واحدة خلال هذا العهد الطويل، ولم يستنيموا إلى ضيم، ولم يستريحوا إلى المذلة، بل كانوا يهبون أبداً، ثائرين في وجه الغاصب، مدافعين عن حريتهم، مجاهدين في سبيل ربهم ودينهم، ولكنها كانت ثورات فردية، كل يثور وحده ويقاتل وحده والآخرون ينظرون ولو ثاروا جميعاً وقاتلوا جميعاً، كما فعلوا أخيراً، لتم لهم هذا الظفر بالاستقلال من عهد بعيد. وهذه هي علتنا، علتنا المزمنة، باب مغلق يأتي كل منا يدفعه فلا يفتح فيدعه ويقعد، ويأتي غيره فيجرب وحده، ولو دفعناه جميعاً دفعة واحدة لانفتح.

ثورات وحروب لا أستطيع أن أحصيها ولكن أذكر منها على سبيل المثال عليها حروب حكومة بنتام من ١٦١٩ إلى سنة ١٦٢٨ هذه الحروب التي كاد يكتب لها النجاح، وطرد الواغلين في البلاد لولا تلك العلة، العلة ذاتها، فإنها لما قامت حكومة متارام القوية سنة ١٦٢٨ تحارب هولاندة، لم يكن من بنتام إلا أن تركت حرب المستعمرين، ووقفت معهم على أختها في الدين والوطن متارام مخافة أن تقضي عليها وتغلبها على أرضها، ومع ذلك فقد عادت متارام بالجيش الجرار الذي يعد مئة ألف، والذي لا تقف في وجهه هولاندة ولا بنتام، ولكن الهولانديين لما رأوا عجزهم عن حرب السيف، عمدوا إلى حرب الغدر والمكر، فأحرقوا مخازن الرز وأنبار المؤن، وتركوا هذا الجيش يهلك جوعاً ومرضاً.

وفي سنة ١٨٢٥ كانت الثورة الرائعة، ثورة العالم المجاهد الصابر، الأمير ديبا نيكارا.

وهو ابن ملك متارام هامنكوبوانا الثالث، ولد في بلاطه سنة ١٧٨٥، ولكنه اتصل من مطلع شبابه بشيخ لا أذكر اسمه الآن، لأني كتبته في ورقة ضاعت مني، فنشأه على العلم والعبادة، ثم كره إليه حياة البلاط فتركه، وذهب إلى دار له منعزلة فاعتكف فيها، مقبلاً على القراءة والدرس، فحفظ القرآن، ونظر في التفسير، وقرأ التحفة لابن حجر،وقرأ كتب للغزالي، وأقبل على النظر في التواريخ، وأخذ نفسه بإنكار المنكر وإزالته بيده، فاعترضه أبوه (الملك) فأنكر على أبيه ما كان عليه من المنكرات، والزمة باتباع سبيل الهدى، ولما خلا العرش بوفاة أبيه وأرادوه عليه أباه لأنه لم ير نفسه أهلاً لحمل أعباء الحكم.

وهذه منقبة لا أعرفها لغيره، ولا أعرف في تاريخ أولياء العهود جميعاً، من مسلمين وغير مسلمين رجلاً آخر رفض عرشاً لأنه لم ير نفسه أهلاً له، إلا معاوية بن يزيد بن معاوية.

ولما اشتد عسف الهولانديين، وظلمهم لأبناء البلاد الذين كانوا يدعونهم (الأقزام) رأى الجهاد واجباً عليه فنشر رايته، ودعا إليه، وكان ابن ثلاثين

سنة، وبدأت المعارك بينه وبين الهولنـديين في ٢٠ تمـوز ١٨٢٤ واستمرت خمس سنوات، وكان النصر له في جميعها، وكان قائداً بارعاً، وفارساً لا يشق له غبار، وقتل من الأعداء خمسة عشر ألفاً ثمانية آلاف منهم من الهولانديين.

وعجزت عنه جيوش هولانـدة في المستعمرات، فـاستنجدوا بـأوروبة فأنجدتهم بقوى هائلة كسرها كلها، فأثاروا عليه الناس وجعلوا لمن جاء به حياً أو ميتاً مكافأة ضخمـة، فما نفعهم ذلـك شيئاً لالتفـاف الناس حـوله وتعلقهم بـه، برغم أن الملك والأمـراء (كما هي العـادة دائـماً) كانـوا مع المستعمر.

فلما ضاقت بهم السبل، عمدوا إلى الغدر فأعلنوا الرغبة في الإستجابة لمطالب الأمير، ودعوه إلى المفاوضة، فلما جاء في رمضان (٨ شباط ١٨٣٠) قبضوا عليه وأسروه، ولم يكونوا كراماً في أسرهم، ولا نبلاء في ظفرهم، وأي نبل من غادر؟ فلم يرضوا منه ما عرضه عليهم من الإنقطاع للعلم والتعليم، ونفوه إلى أقصى الجزر، فبقي فيها سجيناً منفياً إلى ٨ شباط ١٨٥٥ أي ربع قرن كامل، لا ينقص يوماً ولا يزيد يوماً.

وكان في شبابه، وفي كهولته، وفي ملكه، وفي سجنه، مثلاً كاملاً للعالم العامل، والمسلم الكامل، وكان يبدأ بنفسه وأهله في كل خير يدعو إليه، لما خرج إلى الجهاد قال لزوجته، إذهبي على بركة الله وفرقي كل ما نملك في أسر المجاهدين، فأطاعت المرأة الوفية الديّنة أمر زوجها، وبدأت بحليها وثيابها فقسمتها في زوجات المجاهدين.

ولما خرج أحرق الهولنديون داره، فرآها من بعيد تتوهج نارها تأكل ماله وفرشه وكتبه، فقال لعمه:

ــ أنظر يا عم إن منزلنا يحترق لم يبق لنا على ظهر الأرض منـزل، فلنتخذ منزلاً في الجنة، ومشى يدفع دمه ثمناً لذلك المنزل.

كانت ثورة هذا الأمير في أواسط جاوة، على حـين كان في سـومطرة الغربية ثورة أخرى، ثورة لله وللإسلام وللحرية أضرم نارها قوم بدرى (أي

الجمعية الغراء) لأن بدرى معناها، الأغر، أو الأبيض باللسان الملاوي، وقوم جماعة وهم جماعة من طلبة العلم وكانوا يتخذون الثياب البيض فعرفوا بها، اجتمعوا على إنكار المنكر، والأمر بالمعروف، فقاموا على الأمراء والحكام حتى إذا استجابوا لهم ألفوا (إتحاد الثمانية) وهم ثمانية علماء من أرباب السطوة والنفوذ، وأعلنوا الجهاد، وكان قائدهم الشيخ مصطفى سحاب[1]، وحاربوا الهولنديين حرباً متصلة ست عشرة سنة من سنة ١٨٢١ إلى ١٨٣٧، لم تنطفىء نارها حتى أسر هذا الشيخ المجاهد بحيلة احتالوا عليه بها، ونفي إلى أقصى الأرض وبقي في الأسر سبعاً وعشرين سنة حتى مات سنة ١٨٦٤.

أما الحروب الهائلة التي كلفت الهولنديين ملايين الروبيات وعشرات العشرات من آلاف الرجال، فهي حرب حكومة أتشيه العظيمة التي سمعتم خبرها في الحديث الماضي، فقد اتصلت معاركها الحمر ووقائعها الغر واحداً وثلاثين عاماً، من سنة ١٨٧٣ إلى سنة ١٩٠٤.

أما التشكيلات الحديثة منذ أن ألف الحاج عمر سعيد جوكرو آمينوتو، أول حزب سياسي وهو شركة إسلام إلى الآن، وما كان من أمر الاحتلال الياباني، والجهاد والاستقلال، فسيأتي خبره في الحديثين التاليين ثم أعود إلى سرد قصة الرحلة.

* * *

(١) ويعرف باسم (إمام بونجول).

الحركة الإسلامية في أندونيسيا

ولتاريخ الجمعيات والأحزاب في أندونيسيا مراحل كثيرة:

١ ـ أما مرحلة التأسيس:

فالفضل كله فيها لرجل واحد، هو الذي شق للناس هذا الطريق، وهو الذي قادهم إلى العمل، وهو الأستاذ الأكبر عمر سعيد شكرو آمينوتو الذي أسس أول حزب في أندونيسيا سنة ١٩١٠ وهو **(شركة إسلام)**.

وكلمة (شركة) في اللغة الأندونيسية تعني (جمعية).

وكان هذا الحزب هو الساق الذي تفرعت عنه الأحزاب والجمعيات كلها، ولا يزال موجوداً إلى اليوم.

وكان شكرو آمينوتو شعلة حماسة، وكنز إخلاص، ومنار هداية، ولقد بذل الهولنديون المستعمرون كل شيء ليصرفوه عن غايته:

المناصب والأموال، والمتع، فوجدوه جبلًا لا يتزحزح.

وفي هذا الوقت أسست جمعيتان، إن لم تنصرفا للسياسة والجهاد، كما فعلت (شركة إسلام)، فلقد عملتا عملًا أثبت وأبقى، وهو فتح المدارس وإعداد نشىء صالح يكون عدة للمستقبل.

(الجمعية المحمدية) أسسها الحاج أحمد دحلان سنة ١٩١٢ و (جمعية الإرشاد) أسسها أحمد السُّكَّرتي الأنصاري وهو سوداني الأصل سنة ١٩١٢.

والجمعية المحمدية هي اليوم أكبر جمعية تعليمية في الشرق، وربما كانت أكبر جمعية في العالم للتعليم، أعضاءها نحو مئتي ألف، ولها ألف وخمسمئة

مدرسة ثانوية، وسبعمئة مستشفى، وثلاثمئة دار أيتام، ولها دار لتخريج المعلمين لمدارسها، وقد زرت هذه الدار لما كنت في جوكجا (جوكجاكرتا)، فدهشت من سعتها وكثرة طلابها وضخامة بنيانها.

وللجمعية الآن فروع للسياسة والإقتصاد والثقافة والأوقاف والتبليغ.

أما جمعية الإرشاد فلها الآن نحو خمسة آلاف مدرسة التدريس فيها كلها بالعربية، ومدرستها الكبرى في سوارابايا (في شرقي جاوه وقد زرتها) أكبر من الثكنة الحميدية التي فيها كليات جامعة دمشق كلها.

وفي سنة ١٩١٤ أسس الشيخ هاشم الأشعري (جمعية نهضة العلماء) وهي جمعية سياسية تعليمية، وزرت من مدارسها (معهد القرآن) في (كرافياك) قرب (جوكجا) وهو مدرسة عربية سلفية.

وفي سنة ١٩٣٠ أسس كياي[1] عبدالرحمن شهاب جمعيته ولها اليوم في كل بلدة وكل قرية من (سومطرة) مدرسة.

وفي سنة ١٩٣٠ أسست (جمعية وحدة العلماء) في (آتشه) وآتشه في أقصى الشمال من سومطرة أعرق منطقة في الإسلام في أندونيسيا، وكانت فيها حكومة إسلامية من القديم، مرَّ بها ابن بطوطة وتحدث عنها.

وفي سنة ١٩٣٥ انفصل الدكتور (سوكيمان) بجماعته عن (شركة إسلام) وأسس (الحزب الإسلامي الأندونيسي).

وفي سنة ١٩٣٦ انفصل الحاج أوغست سالم وأسّس حزب التنوير الإسلامي وجمعية الشبان المسلمين.

والحاج سالم رحمه الله عالم سياسي، كان وزيراً للخارجية، زرته في داره في (جاكرتا) العاصمة، فوجدته قوي الشخصية، خفيف الروح، فقيهاً مطلعاً على التاريخ، يتكلم الفرنسية والإنكليزية، وسألته عن اسم أوغست من أين

---

(١) كياي وألكِيا أي شيخ وبه سمي الكيا الهراسي من فقهاء الشافعية المعروفين.

جاءه؟ فضحك وقال: هو غريب دخل عليَّ ولذلك حبسته بين اسمين إسلاميين، يعني (الحاج) و (سالم)[1].

٢ ــ وبدأت بعد ذلك حركة تقارب وتعاون بين هذه الجمعيات والأحزاب، وتكون منها بين الحربين شبه اتحاد باسم (المجلس الإسلامي الأعلى)، عقد مؤتمرات إسلامية عامة، واشتغل بمسألة الخلافة، وأسس «جمعية الخلافة في الهند الشرقية»[2] وهي فرع لجمعية الخلافة في الهند، وأرسلت هذه الجمعية وفداً إلى الملك عبدالعزيز بن سعود من رئيس (شركة إسلام)، وسلطان منصور عن الجمعية المحمدية.

واشتغل المجلس بقضايا العرب في فلسطين وفي برقة وعمل على مقاطعة إيطاليا.

وأنشأ فرعاً للصحافة ردَّ مفتريات المجلات الأوربية والصينية ولا سيما الحملة التي أثارها (فاندر) والمجلات الإلحادية مثل (صوت العموم) وجاهد جهاداً رائعاً لإبطال القوانين الإستعمارية، ومنها قانون الزواج المدني (المخالف للإسلام)، وقانون التدريس الديني، وقانون تمليك الأراضي جبراً للشركات الأجنبية بحجة النفع العام.

وسمي الجبل القائم في منطقة المؤتمر باسم (جبل شركة إسلام) ولا يزال هذا اسمه إلى اليوم، تخليداً لهذا المؤتمر.

٣ ــ وكان الاحتلال الياباني لأندونيسيا والملايا، فكان بلاء هان معه بلاء الإستعمار الهولاندي، وخسرت به اليابان ما كان لها من طيب الذكر، وما كان معلقاً عليها من كبير الأمل، ولقد سمعت في مدن جاوة وفي الملايا العجائب من أعمال اليابانيين.

---

(١) وهنالك جمعيات أخرى كثيرة منها الجمعية الاتحادية بسومطرا الشمالية، لها عدد كبير من المدارس، وجمعية نهضة الشبان المسلمين في جاكرتا، لها مدارس ثانوية، وجمعية الإصلاح الإسلامي في مادورا (شرقي جاوه) لها خمسون مدرسة، أكبر العاملين فيها صديقنا الكريم الأستاذ صالح السعيدي.

(٢) أندونيسيا أي جزر الهند الشرقية.

ولكن الاحتلال الياباني كان له فضل واحد، فضل غير مقصود، هو أنهم دربوا الناس تدريباً عسكرياً، وألّفوا منهم فرقاً للدفاع الوطني، أرادوا أن تكون عوناً لهم على الحلفاء، لتثبيت احتلالهم، فكان منها العون على الإستقلال، وكان قائد هذه الفرق الجنرال سوديرمان[١]، وهو في الأصل من العلماء وأكثر ضباطه من الجمعية المحمدية.

ولم يرض أكثر المسلمين[٢] مع ذلك عن هذه الفرق لاتصالها باليابان وألّفوا حزب الله بقيادة زين العارفين(من جمعية نهضة العلماء) ويونس آنس ودرب اليابانيون هذه الفرق أيضاً.

وكان من نتيجة عسف اليابان أن الشعب الأندونيسي، وهو من أعز الشعوب، أبى إحتمال المذلة، فكانت ثورة سنغابارا[٣]، في جاوه الغربية بقيادة أحد الشيوخ من مدرسي الفقه، وثورة بريتا في جاوة الوسطى، ثم ثارت فرق الدفاع الوطني نفسها، وأوقعوا باليابان الوقعة المشهورة في نونيتانا في كاليمانتا (بورنيو).

٤ ــ وأيام حكم اليابان اجتمعت الجمعيات، وكونت منها إتحاداً أوثق وأقوى وكان مجلس الشورى الإسلامي، بدلاً من المجلس الإسلامي الأعلى.

٥ ــ ولما استقلت أندونيسيا، وصارت فرق الدفاع الوطني هي الجيش، وبقي حزب الله، واعتزل وألّف شبه حكومة داخلية باسم دار الإسلام، وهي موجودة إلى اليوم في بقعة جبلية من جاوة تضم ملايين من السكان وتقيم حكم الله، كان المؤتمر الأكبر الذي جمع الأحزاب والجمعيات كلها، وقرر توحيد الصفوف في حزب واحد دعي (ماشومي)[٤]، وانتخب لرياسته أول الأمر سوكيمان، وكان السكرتير الأول آبي كوشنو (أبو الحسن) أخو شكرو

---

(١) ثم صار هو القائد العام للجهاد.

(٢) والمسلمون يبلغون خمساً وتسعين في المئة من الثمانين مليوناً في أندونيسيا.

(٣) ومعناها بلسانهم الأسد الباسل.

(٤) تكون اسم ماشومي من الحروف الأولى والأخيرة لـ (مجلس الشورى الإسلامي).

آمينوتو[1]، والثاني كارتو سويريو، والسكرتير العام والي الفتاح.

٦ ــ وكانت من بعد إنفصالات وانقسامات، ففي نصف سنة ١٩٤٧ إنشق عنه جماعة شركة إسلام، وأعادوا تشكيل حزبهم القديم ودخلوا الوزارة يومئذ. وإنشقت التربية الإسلامية سنة ١٩٤٩ وكونت حزباً مستقلاً رئيسه سراج الدين عباس.

٧ ــ ثم كان مؤتمر جوكجا في ١٩٤٩/١٢/٢٥ وقد دام خمسة أيام بلياليها، وكان أعظم مؤتمر إسلامي، شهده سبعمئة مندوب، ورئسه والي الفتاح.

وقــرر:

١ ــ تثبيت ماشومي، وتكوين مكتب تنفيذي لـه، واعتبار جميع الأحزاب والجمعيات أعضاء فيه.

٢ ــ جعل للحزب أقساماً للدعاية والنشر، والنساء، والإجتماعيات، والإقتصاد، والتربية، والثقافة.

٣ ــ تأليف جبهة تضم جمعيات الشباب كلها باسم (جبهة الشباب الأندونيسي).

٤ ــ تأليف لجنة دائمة للحج.

٥ ــ توحيد الصحافة الإسلامية في أندونيسيا.

٦ ــ إعداد لجنة من العلماء لوضع الدستور الإسلامي.

٧ ــ المطالبة بحل الخلاف مع (دار الإسلام) حلاً سلمياً.

٨ ــ تأييد فلسطين وتونس والجزائر ومراكش عملياً ومالياً.

٩ ــ إنشاء وقف بخمسين مليون ربية لإنشاء مدارس إسلامية.

ولكن هذا الاتحاد لم يدم، وعادت الإنقسامات والإنفصالات، وانشقت جمعية (نهضة العلماء)، وعقدت هي وشركة إسلام والتربية الإسلامية مؤتمراً في

---

(١) ولعلها محرفة عن شكري أمين.

فالمبان في سومطرة الجنوبية، وأعلنت إنفصالها عن ماشومي، وتشكيل حزب واحد منها كلها هو مسلم ليك (الجماعة الإسلامية) وقررت اعتبار الخلاف بينها وبين ماشومي خلافاً شكلياً، خلافاً في الطريقة فقط لا في المبدأ ولا في الغاية وانتخب الكياي دحلان رئيساً لها.

فصار في أندونيسيا جبهتان إسلاميتان، ماشومي، ورئيسها محمد ناصر (الذي رئس المؤتمر الإسلامي في دمشق)، وهو رجل عالم فاضل متواضع، ويقدر عدد المنتسبين إلى ماشومي بأكثر من أحد عشر مليوناً. ومسلم ليك ورئيسها دحلان.

كما أن فيها دار الإسلام ورئيسها كارتوسويريو، وعاصمتها تسمى (المدينة المنورة).

وفي نيسان ١٩٥٣ عقد مؤتمر العلماء في (ميدان) عاصمة سومطرة حضره ستمئة عالم وقرر مقررات منها:

١ ـ أن يكون الحكم شورياً إنتخابياً مقيداً بأحكام الشرع.

٢ ـ وأن يعتبر الإنتخاب واجباً شرعياً ولا ينتخب إلا المسلم.

وشكلت على أثره الحكومة برياسة الدكتور برهان الدين (من ماشومي).

ولم أتتبع سير الحركة الإسلامية في أندونيسيا بعد هذا التاريخ لبعد عهدي بها، وقلة الأخبار المفصلة عنها، وأنا أسأل الله لنا ولها وللمسلمين جميعاً النجاح والتوفيق إلى ما فيه عز الدنيا والنجاة في الآخرة.

إستقلال أندونيسيا

من خمس عشرة سنة لبس الأمريكيون جلود الشياطين، ونسوا الإنسانية والخلق والدين، وكل ما يتميز به الناس من الأبالسة، وارتكبوا أكبر جريمة، منذ جريمة قابيل إلى الآن، أكبر جريمة بلا استثناء، حين ألقوا على هاروشيما وناغازاكي، القنبلتين الذريتين اللتين دمرتا مدينتين كاملتين، فسلمت بذلك اليابان وألقت سلاحها.

إن المحاكم، إنما أقيمت لتعاقب المجرم السافل، الذي يزهق حياة نفس واحدة بريئة، وتنصب له المشنقة، وتقيمه عليها تحف به لعنات الناس. فكم نفساً بريئة، كم طفلاً وامرأة وشيخاً، وناسكاً متعبداً، وعالماً مفكراً، وأديباً عبقرياً، أزهقت أمريكا، لما ألقت قنبلتيها على هاروشيما وناغازاكي.

وما أدافع عن اليابان فاليابان كانت ظالمة فوجدت أظلم منها، ذلك أن الإحتلال الياباني لأندونيسيا كان أشد وأقسى من احتلال الهولانديين. وكانوا هم أظلم وأطغى، وكان يوم ١٧ آب سنة ١٩٤٥ واليابانيون لا يزالون يحتلون أندونيسيا فطلب الشعب الإذن له، بالاجتماع في ساحة كمبير في بتافيا التي سميت اليوم جاكرتا، ودعيت ساحتها هذه بميدان مرديكا (أي الإستقلال) فأبى المستعمرون اليابانيون، وأصر الناس وأقاموا المتاريس، ونصبوا الرشاشات، ولم يكن للشعب من سلاح إلا الحراب التي كانوا يتخذونها من نوع من القصب، يشبه الأقلام التي كنا نكتب بها، لكنه ضخم قوي تبنى منه البيوت وقشرته أحد من شفرة السيف. فبرى الشعب حرابه وواجه بها رشاشات المستعمرين، واقتحم الميدان يطأ على أجساد قتلاه، ويخوض في دمائهم، حتى اجتمع فيه ما يزيد على نصف المليون من الناس.

ثم أقبلت سيارة تحمل علماً غريباً هو الذي يستظل بظله اليوم ثمانون مليوناً من الأندونيسيين فيه اللون الأبيض رمز السلام واللون الأحمر لون الدم، كأنه يقول: إنا نريد السلام، ولكن لا نخشى الحرب. وحولها الشبان المسلحون، وفيها أحمد سوكارنو ورفيقه محمد حتى، وأقيم منبر على عجل، وصعد سوكارونو، وسوكارنو من أخطب خطباء الدنيا، ولكنه لم يخطب يومئذ خطبة، بل سأل سؤالاً، قال للناس: هل تريدون الإستقلال؟ فأجابه هزيم الرعد من نصف مليون حنجرة أن نعم. قال: فبماذا تحمونه؟ قالوا: بأرواحنا. قال: إن قوى العدو كبيرة. فقالوا: الله أكبر.

الله أكبر، خرجت من خمسمئة ألف فم، فارتجت له الأرض ثم خشعت، وأصغت الأفلاك ثم صغت، وأحس كل واحد من هؤلاء الناس أنه صار بها (وحده) جيشاً كاملاً. وكذلك يصنع الإيمان، وتصنع «الله أكبر».

عند ذلك، كتب مسودة الوثيقة الهائلة، التي أخرجت للدنيا دولة مسلمة فيها ثمانون مليوناً، ولا تزال المسودة ذاتها محفوظة، ثم تلاها على الناس، وأعلن إستقلال أندونيسيا، بهذه الجملة الواحدة:

باسم الشعب الأندونيسي، أعلن أنا سوكارنو، ورفيقي حتى، إستقلال أندونيسيا.

وإلى هنا، وكل ما كان مألوف معروف.

كلام حلو، يلقى في نوبة حماسة، على جمهور ثائر، ثم لا يزيد أثره عن كونه كلاماً.

ولكن ما ألقاه سوكارنو ذلك اليوم لم يكن كلاماً عارضاً، يذهب هزات في الهواء، بل كان بداية عمل ضخم يستقر في الأرض لقد انتشر هذا الإعلان، وقفز من جزيرة إلى جزيرة، من جزر أندونيسيا التي تزيد على ثلاثة آلاف، ومشى مشي اللهيب في القش، حتى عمّ البلاد التي يزيد ما بين طرفيها، عما بين لندن وأسطمبول[1]، فاشتعلت الثورة فيها كلها.

---

(١) أصلها إسلامبول (أي مدينة الإسلام) سماها بذلك محمد الفاتح.

ولست أستطيع أن أسرد عليكم أخبار القتال، فاكتفوا مني بهذه الحادثة الواحدة.

حادثة واحدة فقط، سيطر فيها المجاهدون على مطار كامل فيه الجند والمدافع والرشاشات، وما معهم إلا هذه الحراب المقطوعة من قصب الغاب، عمدوا إلى مكبرات الصوت، فأنذروا فيها جند المطار من كل جانب واستمروا في ذلك ليلة كاملة حتى أرهقوا أعصاب الجند، ثم هجموا في الظلمة صفوفاً من الناس، وراء صفوف، وكلما سقط صف حل محله أخوه، لا يبالون النار ولا البارود، حتى احتلوه وأسروا كل من كان فيه، وملكوا عتاده.

كانت هذه الحراب سلاحهم. أما البنادق فكانت قليلة، وكانت تكلفهم ثمناً غالياً. ماذا؟ أظننتم أنهم يشترونها بمئة دينار مثلاً؟ لا بل بأغلى من ذلك. بألف؟ بل بأغلى.

كانت كل بندقية تكلف حياة مجاهد. ينتزعها من ياباني فيموت في سبيلها، حتى يوصلها إلى يد أندونيسية تدافع بها عن حقها.

وأقيمت الجمهورية وألفت الحكومة الوطنية. وذاقت البلاد لأول مرة بعد ثلاثمئة سنة لذة الحرية والسعادة. ولكن النعمة لم تستمر. لقد جاء البلاء. أقبل أبالسة البشر. ألا تعرفونهم؟ ألا تعرفون الذين كانوا سبب كل مصيبة نزلت بنا؟ الإنكليز.

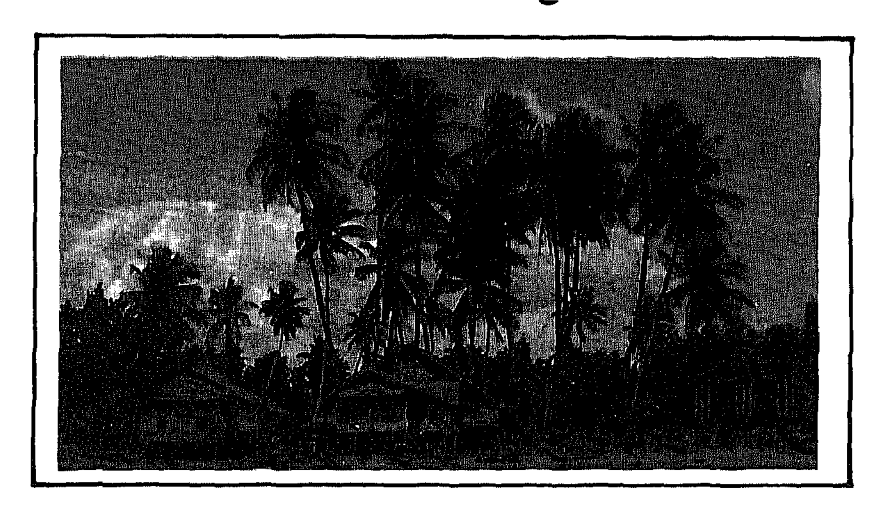
جاءوا، كما قالوا أولاً، لتجريد اليابان من سلاحهم، وأعطوا عهودهم المكتوبة على أنهم لا يكونون حرباً على الجمهورية، ولا عوناً للهولنديين. فما أن وطئوا أرض جاكرتا حتى حنثوا.

ولقد يكون للفرد الإنكليزي في بلاده قولة شرف، يصدق بها، أما سياسيو الإنكليز، فقد أيقن التاريخ من زمان بعيد، أن كلمتهم هي الكذبة الحمراء، وأن وعودهم وعود عرقوب.

اللهم إلا وعداً واحداً وفوا به، لأنه وعد شيطاني وهو وعد بلفور.



نماذج من المنازل الأندونيسية



وجاؤوا بقواهم الكبرى، القوى التي حاربت اليابان، أسطول بحري، وأسطول جوي، وجيش كامل، ووقفوا أمام سورابايا، في شرق جاوة، وكانت سورابايا، أجمل مدن الشرق الأقصى وأكبرها. وبعثوا بالإنذار المشهور، بأن يسلم الشعب سلاحه كله، ويفتح بلاده للهولنديين ليعودوا إليها، أو يرى التدمير الشامل.

شعب فيه ثمانون مليوناً، يملك أغنى بلاد الدنيا بالثروة الطبيعية يسلم نفسه وأرضه، لشعب فيه ثمانية ملايين فقط، جاء من بعيد، ليس له في هذه الأرض حق من الحقوق!.

ونسوا كل ما كانوا يتشدقون به أيام الحرب، من حقوق الإنسان وحريات الشعوب.

وتردد الشعب لحظة ودهش، ثم عاد إلى نفسه فقال: لا. كما قالت مصر يوم العدوان: لا.

وابتدأت الحرب. الحرب بين الذئب ذي الأنياب، وبين الحمل الوديع. ودمرت سورابايا كلها في ساعات ولكن الحمل انقلب بالإيمان أسداً.

لقد صنع الأندونيسيون العجائب.

لقد عملوا ما لم يسمع بمثله إلا من المجاهدين الأولين من المسلمين.

قاتل الرجال جميعاً، حتى الشيوخ والمرضى.

قاتل الأطفال وألف منهم فرق سميت جيش النمل.

وقاتل النساء.

تقولون: وماذا يصنع الأطفال؟

لقد جمع الأطفال الحصى والحجارة وقطع الحديد، ثم هجموا على الدبابات وهي تسير وتطلق النار، فوضعوا ذلك خلال سلاسلها وآلاتها ليمنعوا سيرها ويعطلوها. وخربوا الطرق وأفسدوها، ومات منهم آلاف وآلاف فما فزع الموت من أحد، ولا أخافت وسائله أطفال أندونيسيا.

أما النساء في أندونيسيا، فإني أحني رأسي الذي ما انحنى قط إكباراً لنساء أندونيسيا.

إني لا أستطيع أن أذكر لكم ما صنعن دون أن يثب قلبي إلي حلقي حتى يسيل دموعاً حرّى من عيني.

إن الذي صنعنه شيء يجل عن الوصف، ويكبر عن التصديق وإذا أنتم شككتم فيه، ولم تصدقوه فلكم العذر.

كانت القنابل التي وصلوا إليها قليلة، وكانت صغيرة لا تدمر الدبابة إن ألقيت عليها، فكانت الفتاة الأندونيسية التي تشبه الوردة اليانعة تأخذ عدداً من هذه القنابل، فتربطه حول جسدها، ثم تودع أمها وأباها وأهلها، ثم تلقي بنفسها على الأرض أمام الدبابة فتتفجر القنابل فتطير هي والدبابة.

هذا ما كان فعلاً.

فهل سمعتم أو قرأتم في أخبار الأمم المجاهدة كلها، قديمها وحديثها مثل هذا الخبر.

إنه مشهد يخرس لسان أبلغ شاعر بشري عن وصفه.

إنني، مرة ثانية يا أيها السادة أحني رأسي لنساء أندونيسيا.

ومشى الغاصبون تحميهم نيرانهم، ويدفع عنهم حديدهم، ولكنهم كانوا يخوضون الدم ويمشون على الجثث، كل خطوة يخطوها جندي منهم، يجود بها مجاهد منا بنفس زكية.

وكانت الحرب المقدسة، وكان الجهاد في سبيل الله، وترك العلماء كتبهم ومدارسهم ومشوا على رؤوس المجاهدين، وكان منهم أبطال كبار.

وحسبكم أن تعرفوا أن سوديرمان (القائد العام لقوات المجاهدين كلها) كان من مدرسي الجمعية المحمدية.

لقد مرض، وأجريت له عملية بترت فيها إحدى رئتيه، وحمل بعدها

علي المحفة، ولكن لا إلى بيته، ولا إلى مصيف هادىء يستريح فيه حتى يَنقَه، لا بل إلى ساحة الجهاد، ليعاود القتال.

وكانت كل هجمة تبدأ بـ (الله أكبر) وكان كل بيان يذاع يشرع فيه بـ (الله أكبر).

واستمر الجهاد سنين.

وبلغ عدد المصابين من قتلى وجرحى ومفقودين أكثر من مئتي ألف واعتقل سوكارنو وحتى ورجال الحكومة بعدما احتلت أكثر المدن، فأقيمت حكومة مؤقتة وسط الغابات، وثابرت على القتال.

وكانت تظهر كل يوم بطولات تحير العقول.

حصرت فرقة من المجاهدين، وانقطعت عنها النجدات، ولم يكن بينها وبين مركز الجهاد من سبيل للاتصال إلا بخوض نهر فيه تماسيح مفترسة، فتطوع قوم ليلقوا بأنفسهم فيه، لتفترسهم التماسيح فتشتغل بهم، فيمر غيرهم ويأتي بالنجدة وكذلك كان.

لم يعد للحياة قيمة، وصارت الشهادة هي الأمنية الكبرى التي يستبق إليها الرجال والنساء والأطفال على السواء.

ولم يعد النساء يقبلن المال مهراً، فصارت مهور العرائس رؤوس الإنكليز والهولنديين، فمن كانت أبهى جمالاً وأعز نفراً، كان مهرها عدداً أكبر من الرؤوس.

ورأوا أن الإنكليز يستفيدون من العمارات الكبار، فأحرقوا بأيديهم كل عمارة كبيرة، ولقد رأيت بعيني آثار هذا الخراب في سورابايا ومالان حتى باندونغ، باريز الشرق، أحرقوها وهجروها وهم يغنون هذه الأغنية التي يمتزج فيها دمع العاطفة بدم البطولة، والتي اشتهرت في أندونيسيا شهرة (المارسيليز) في فرنسا:

«هالو هالو باندونغ . . .»

يخاطبونها فيها كما يخاطب العاشق حبيبته، يعدونها أنهم سيعودون حتماً إلى أحضانها.

وقد عادوا، عادوا ظافرين.

لقد بذروا الشهداء في أرض الوطن، وسقوها الدم الأحمر الآني، فأنبتت، أنبتت الحرية والظفر والإستقلال: مارديكا.

لقد غلب حقهم الأعزل، باطل الإنكليز المسلح بكل سلاح أوحى به إلى أوليائه إبليس.

كما غلب حق مصر باطلهم مرة ثانية في بور سعيد.

فيا أيها الإخوان الأندونيسيون، إخواننا في الكعبة وفي القرآن وفي (الله أكبر) هذي يدي عن العرب تصافحكم، وإنها لشمال صافحت يمينها.

ويا أيها الإخوان الجزائريون، أثبتوا فهذا هو المثل مضروبٌ لكم.

ويا أيها الإنكليز، اعلموا أن الشيخ العاجز الذي يمشي على العكاكيز ليس كالشاب الأيِّد القوي. لقد صارت دولتكم دولة هرمة عاجزة، فقدت أطرافها وخرفت وضيعت عقلها.

ولا تغتروا ببقايا القوة، فأنتم في ضياء ولكنه كضياء الأصيل ما بعده إلا الليل، ونحن في سدفة، ولكنها كغبشة السحر والنهار أمامنا.

إن السيادة تعود إلى الشرق، كما بدأت من الشرق.

وها هي ذي الصين واليابان والهند، وها هي ذي بلاد العرب.

لقد انتهى دوركم، فلا تحاولوا المحال، فإنه لا استعمار بعد الآن.

لقد كان في الشرق (الرجل المريض)[1] فكنتم تعقدون المؤتمرات لاقتسام تركته وهو حي. ولقد مات الآن، ولكن أولاده الشبان أصحاء أقوياء ليسوا بالمرضى. فتعالوا جربوا صراعهم إن كنتم لا تصدقون.

* * *

---

(١) كانوا يكنون بذلك عن الدولة العثمانية.

لمحات من تاريخ الدين والوطنية

في أندونيسيا

مقتطفة من مصادر كثيرة وقد تركت عباراتها على ما كانت عليه، لم أجر عليها قلمي إلا بشيء قليل من التصحيح والتجميل.

تاريخ دخول الإسلام إليها:

إن السلطان محمد، سلطان ملابار إحدى الولايات على الساحل الغربي الجنوبي من الهند، تنازل عن العرش لابنه الأكبر ولبس ثياب الزهادة والتصوف، وأبحر على ظهر سفينة إلى ميناء (سيمودرا) على الشاطىء الشرقي الشمالي من جزيرة (سومطرة) ولما نزل إليها قابل أميرها وعرض عليه الإسلام فأسلم ونودي به ملكاً عليها وسمي بالملك الصالح، وقد توفي هذا الملك سنة ١٢٩٧ م.

يؤيد هذا ما ذكره الرحالة الإيطالي (مركو بولو) الذي زار شمال سومطرة سنة ١٢٩٢ م من أن (سكان مدن هذه المملكة مسلمون) والحجر الذي اكتشف حديثاً في مقاطعة (ترنجانو) بشبه جزيرة الملايو[1] وهو مكتوب عليه باللغة الملاوية وبالرسم العربي أن حاكم هذه المقاطعة قد أمر رعاياه باتباع الإسلام، وقد ذكر فيه بعض أحكام الإسلام باختصار، وتاريخ هذا الحجر يوم الجمعة شهر رجب سنة السرطان بعد عصر الرسول ﷺ بسبعمائة وإثنين، غير أنه لم يعرف ما هو العدد المكتوب بعد رقم ٢ لأن الجزء الباقي من الحجر مفقود وهذا الحجر أقدم الآثار التي عثر عليها في أندونيسيا ونستدل به على أن الإسلام قد دخل أندونيسيا متقدماً نحو قرن على التاريخ الذي ذكره المؤرخ

(١) تكتب الملايو تارة والملايا تارة، لأنهم يلفظونها بين الألف والواو.

الصيني في كتابه. أي أن تاريخ دخول الإسلام أندونيسيا كان بين أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلادي.

وقد اكتشف حديثاً في مدينة (فاسي) بشمالي سومطرة ثلاثة ألواح من الحجر، على أضرحة ثلاثة من العلماء، مكتوب علي كل منها على التوالي: سنة ١٤٠٧ م وسنة ١٤٠٨ م وسنة ١٤٢٨ م والأول لولي الله عبدالله بن محمد بن عبدالقادر بن عبدالعزيز بن المنصور أبي جعفر العباسي المستنصر بالله أمير المؤمنين خليفة رب العالمين (جاءها من الهند).

من حمل إليها الإسلام؟

كان أول ملك (أندونيسي) نطق بالشهادتين هو الملك ميراسيلو، الذي لقب بعد إسلامه بالملك الصالح وتوفي سنة ١٢٩٧. والإسلام لم يتجاوز بعد حدود مملكته. ويقول مصدر تاريخي صيني: أن انتشار الإسلام (أي بصورة واسعة) في أندونيسيا كان إبتداء من القرن الخامس عشر. وكان قبل ذلك محصوراً في جزيرة سومطرة الشرقية.

وفي الكتب الجاوية أن أول سلطان مسلم بجاوة هو السلطان عبدالفتاح. وكان من خبره أن كان للملك براويجايا الخامس (آخر ملوك ماجاباهيت) جارية حملت منه فخشي الملك أن يفتضح أمره فبعث بها إلى ابنه حاكم فليميانغ (سومطرة) وأهداها إليه. فلما وصلت الجارية تزوجها الابن (حاكم فليمبانغ) بعد أن ولدت مولوداً للملك.

ترعرع الصبي في كنف أمير فليمبانغ فلما بلغ أشده أفضت إليه بالسر وأن أباه (ملك ماجاباهيت الجاوية البوذية) أوصى له بالملك بعد وفاته وأرته وثيقة الوصية.

ولم يمر زمن طويل حتى قدم أحد الدعاة السابقين إلى الإسلام في طريقه إلى جاوة، وهو الداعية علي بن إبراهيم المعروف أخيراً بسونان آمبيل. فاستقبله أميرها وأكرمه وأسلم على يده. وأسلم ذلك الشاب ابن ملك ماجاباهيت، وسماه الداعية (عبدالفتاح) راجياً أن يكون الفتح على يديه.

كان الداعية علي بن إبراهيم يمت بقراية إلى ملك ماجاباهيت، فإن الملك تزوج إحدى أميرات كامبوديا (بالهند الصينية) وهي خالته. وقص عليه عبدالفتاح قصة والدته وما كان من أمر الوصية وعرض عليه السفر معه إلى جاوة. فرحل معه واستقبلهم ملك ماجاباهيت، إستقبالاً حسناً وأكرمهم إكراماً عظيماً.

وبدأ الداعية بنشر الدين فأسلمت خالته (أي زوجة الملك) وجمع الملك كبار رجال الدين من الوثنيين فشاورهم في هذا القادم الجديد ودينه الجديد، فقرروا أن يباحثوه فيما جاء به. وجرت مناظرة هادئة فاستجاب له من استجاب وأصر على قديمه من أصر.

اهتم الملك بالداعية علي بن إبراهيم فولاه على بلدة أمبيل (بسورابايا) فسمي بعد ذلك سونان أمبيل. وولى الملك ابنه عبدالفتاح على بلدة بنتارة التي أطلق عليها اسم ديمك بعد أن صارت عاصمة الدولة الإسلامية الأولى في جزيرة جاوة فكان عبدالفتاح أول ملك مسلم في جاوة وذلك في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي.

وفي التاريخ الأندونيسي، اسم عظيم تهفو إليه القلوب هو اسم القائد هداية الله ابن عم سونان أمبيل وصهره.

كان هداية الله قائداً عبقرياً باغت الوثنيين في جاكرتا حينما علم أنهم اتصلوا بالبرتغاليين لمحاربة المسلمين. فأنقذ القائد هداية الله وطناً كاد يتدهور في هوة الإستعمار البرتغالي. وكان فوق ذلك عالماً عابداً، داعياً إلى الله، ناشراً للإسلام.

جاء إلى بانتن (بجاوا الغربية) موفداً من قبل صهره ملك جاوا الوسطى (ترانغانا) فاستقبل بها استقبالاً حسناً وعلا ذكره وذاع صيته فنشر فيها الإسلام.

ومن الدعاة إلى الإسلام نساء منهن امرأة نبيلة تدعى «نيائي غيدي بيناتية» كانت زوجة أمير كبير فمات زوجها واعتزلت في كراشيك، تلك المدينة

العامرة حينئذ بجاوة الشرقية. فعكفت على دراسة الإسلام ثم اعتنقته واتصلت بالدعاة المسلمين. ومن حسناتها أنها وجدت طفلاً فربته[1] وهذبته وبعثت به لطلب العلم فأصبح مصباحاً من مصابيح الهدى ذلك الطفل هو الإمام محمد عين اليقين الذي كرس حياته لنشر الدين، والذي عرف في جاوة بسونان غيري وهو من المتخرجين في مدرسة سونان أمبيل.

ومنهم زين العابدين القائد الشهير في حروب ديماك، وإبراهيم ومحمد إبنا الملك عبدالفتاح ملك ديماك الذي مر ذكره وغيرهم ممن أنجبتهم المدرسة المذكورة. فكانوا النواة الأولى للإسلام في هذه البقاع (جاوة).

وفيما يلي بعض التفصيل لهذا الإجمال:

في سومطرة:

كانت جزيرة سومطرة هي أول جزر أندونيسيا إسلاماً ذلك لوقوعها في الطريق التجاري بين الهند وفارس وجزيرة العرب غرباً، والصين وما وراءها شرقاً، فأصبحت موانئها محط رحال التجار. وقد أخذ الأندونيسيون الإسلام عن هؤلاء التجار المسلمين، والتجار الأندونيسين أنفسهم الذين سبقوهم، على أن انتشار الإسلام لم يكن بدعوة منظمة بل كان هؤلاء التجار يبثون الإسلام بين معامليهم ومعاشريهم ولما اشتد ساعدهم وقويت شكيمتهم جاهروا بالدعوة.

وما استهل القرن الخامس عش الميلادي حتى صارت للمسلمين شوكة وصولة وبدأت المعارك الدموية بينهم وبين البوذيين والبراهمة في أندونيسيا.

في جزيرة جاوة:

في هذا الوقت كانت أمبراطورية ماجاباهيت في جزيرة جاوة قد تسرب إليها الضعف لمنافسة الدولة الإسلامية الملقية لها في النفوذ والسلطة. وقد انتهز مسلمو ملقا وسومطرة هذه الفرصة وقاموا بدعوة الجاويين إلى الإسلام بالأناة والحكمة.

---

(١) وسيأتي خبرها وخيره.

وفي هذا العصر وصل إلى جزيرة جاوة (مولانا إبراهيم)[١] وقام بالدعوة الإسلامية في جزيرة جاوة وتوفي فيها.

الدولة الإسلامية في سومطرة:

بعد إسلام (أمير سمودرا) عن يد الفقير محمد (السلطان الذي تنسك وهاجر، كما تقدم ذكره) الذي نودي به سلطاناً عليها ولقب بالملك الصالح تزوج بأميرة ولاية (برلاك) وخلف منها الأميرين الظاهر والمنصور، وقد أنشأ الملك الصالح مدينة (فاسي) وجعل ابنه الأمير الظاهر سلطاناً عليها، وأما ابنه الأمير المنصور فقد تولى العرش بعد وفاة أبيه في سنة ١٢٩٧ م. ومن هذه المملكة الإسلامية في سومطرة انتشر الإسلام إلى جميع جزر أندونيسيا.

مملكة آتشيه:

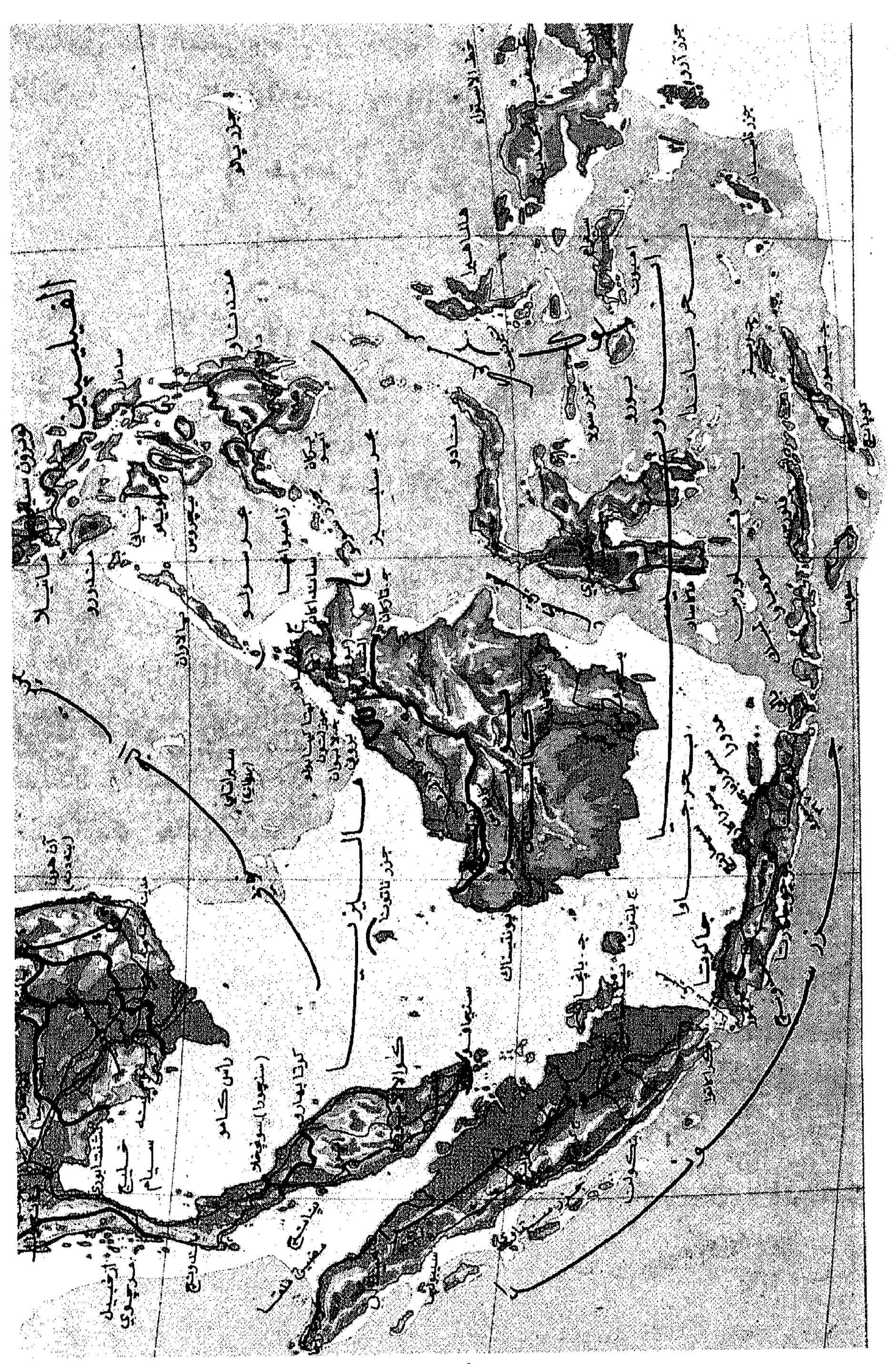
وفي سنة ١٦٠٦ م تولى (إسكندر مودا)[٢] عرش مملكة أتشيه وكان قوي البنية نشيطاً طموحاً إلى توسيع مملكته، وفي عهده كانت آتشيه قد اشتهرت وقويت شوكتها، وامتد نفوذها إلى شبه جزيرة الملايو، وفي سنة ١٦١٣ أعد السلطان إسكندر مودا حملة حربية عظيمة لمحاربة البرتغاليين وطردهم من (ملقا) ولكن هذه الحملة لم تستطع التغلب على قوات البرتغاليين القوية، فتحولت إلى (جوهور) فحاربتها واستولت عليها، وأسرت سلطانها المسلم (عليّ الدين رعيت شاه الثالث) وأخاه الأمير عبدالله وبعض رجال القصر ونقلوا إلى آتشيه، فأكرمهم السلطان إسكندر مودا، وزوج الأمير عبدالله بأخته وفي ٢٥ أغسطس سنة ١٦١٤ م أعاد السلطان علي الدين إلى جوهور، وفي سنة ١٦١٦ م استولى السلطان على ولاية قدح وولاية (فيرك) وولاية (باهنج) في شمال شبه جزيرة الملايا.

وفي عام ١٦٢٨ م أرسل السلطان إسكندر حملة ثانية إلى ملقا لطرد

---

(١) المدفون في قرية كراشك (مقر الشيخ) قرب سورابايا في شرق جاوه وقد زرته وسمعت من كل من لقيته هنالك أنه مغربي والله أعلم.

(٢) هو مسلم وإن كان اسم اسكندر يوهم غير ذلك.



خارطة أندونيسيا

البرتغاليين منها وكانت الحملة مكونة من ٢٥٠ سفينة وكاد ينهزم البرتغاليون أمام هذه الحملة، ولكنهم استطاعوا الصمود لمناعة قلعتهم، وشدة نيران مدافعهم، وأخيراً إتفقت آتشيه وجوهور وهولندا على الهجوم على البرتغاليين براً وبحراً، واستمرت الحرب سنة كاملة، وانتهت بانهزام البرتغاليين في سنة ١٦٤١ م.

ووضع الهولنديون أيديهم على ملقا وعملوا على إقصاء سلطة آتشيه وجوهور عنها، وكانت هذه عاقبة التحالف مع المستعمرين وموالاتهم.

وقد امتدح ابن بطوطة ملك سومطرة في القرن الرابع عشر بأنه جاهد الكفار.

وكان لمملكة آتشيه سلاطين وأمراء مستقلون فما زالت هولندا تتغلب على واحد منهم بعد واحد حتى أخضعتهم لسلطانها وانتهت آخر مقاومتهم المنظمة في سنة ١٩٠٤ م. وكان ذلك بسبب إنقسامهم واختلافهم.

الدولة الملقية الإسلامية في الملايا:

كان أول سلطان من سلاطين (ملقا) دخل الإسلام هو (راجا كتشيل) واشتهر فيها بعد بالسلطان محمد شاه، ومنذ إسلامه تأسست الدولة الملقية الإسلامية في سنة ١٤٠٩ م. وفي عهده كثر مجيء تجار المسلمين من الهنود والفرس والعرب إلى ملقا، حيث أطلق العرب على مدينة ملقا مدينة (ملاقاة) لتلاقي التجار من جميع الأجناس فيها، ومات سنة ١٤١١ م. فتولى ابنه الأمير قاسم الحكم ولقب بالسلطان المظفر شاه الأول، وكان عادلاً دائب العمل على مصالح شعبه، وبعد وفاة السلطان المظفر شاه تولى ابنه المشهور بالسلطان منصور شاه الحكم.

وقد اتسعت حدود الدولة الإسلامية في عهده حتى وصلت إلى (بروني) شمال بورنيو، وازداد انتشار الإسلام في البلاد التي وقعت تحت نفوذها، لأن السلطان رغم اشتغاله بالفتوحات الحربية، لم يغفل نشر دين الإسلام والدعاية له، وإنه كان مشغوفاً بتعلم أصول الدين والتشريع الإسلامي، وتوفي عام

١٤٧٧ وتولى الحكم بعده ابنه السلطان حسين الذي لقب بالسلطان عليّ الدين رعيت شاه الأول. وقد أقام الحدود الشرعية وبنى في مفارق الطرق دوراً تحت حراسة عمد البلاد، وأصدر أمراً بحفظ ما يعثر عليه من الأشياء المسروقة والمفقودة في هذه الدور إلى حين ظهور أصحابها، فسادَ الأمنُ ربوع البلاد، كما حرم على الحكام قتل الجاني إلا بعد إصدار حكم منه بالقتل حتى تسود العدالة جميع الرعية، وبعدله وحسن تدبيره في تسيير دفة الحكم اشتهر اسمه في العالم الأندونيسي وقويت مملكته وعظم شأن مدينة (ملقا) فأمَّها الملوك والأمراء والتجار من جميع أنحاء البلاد.

وتوفي السلطان علي الدين رعيت شاه الأول، وتولى الحكم بعده ابنه الأمير محمود ولقب بالسلطان محمود شاه الأول، وفي عهده وصل نفوذ الدولة الإسلامية الملقية إلى حدود مملكة سيام شمالاً، وجزء من سومطرة الوسطى غرباً، وأرخبيل الملايا حتى شمال بورنيو جنوباً.

والسلطان محمود شاه الأول هو آخر سلاطين الملايا في الدولة الملقية الإسلامية حيث سقطت ملقا واستولى عليها البرتغاليون في سنة ١٥١١ م، بعد معارك دموية بينه وبين البرتغاليين.

دولة جوهور:

لما سقطت الدولة الإسلامية بملقا أمام جيوش البرتغالينن فرّ آخر سلاطينهم (السلطان محمود شاه الأول) إلى جوهور، ولكن البرتغاليين لم يمهلوه طويلاً حتى تعقبوه فيها ففر منها وما زال يتنقل من مكان إلى آخر حتى توفي سنة ١٥٢٩ م. وتولى الحكم بعده ابنه علي ولقب بالسلطان علي الدين رعيت شاه الثاني، وجعل مقر حكمه مدينة (كمفر) في سومطرة الوسطى إلا أن البرتغاليين قاتلوه فيها فهرب منها إلى جوهور، وأنشأ الدولة الإسلامية الجوهورية.

ثم كان سقوط جوهور في أيدي قوات آتشيه من سنة ١٦١٣ م إلى سنة ١٦٣٧ م وبقي سلاطينها ولكنهم كانوا تابعين لحكومة آتشيه حتى تولى

السلطان عبدالجليل الثالث الحكم سنة ١٦٣٧ فرأى الضعف قد تسرب إلى دولة آتشيه فانتهز هذه الفرصة وأعلن إستقلال جوهور.

وتعاقب عليها الملوك إلى أن توفي السلطان سليمان في سنة ١٧٦٠ م وتولى الحكم من بعده ابنه السلطان عبدالجليل الخامس، وفي عهده أرسل حاكم ريو حملة عسكرية لفتح (ملقا) واستردّها من الهولنديين فوقعت بينهما الحرب ولولا مصرع قائد الحملة الجوهورية في أثناء المعركة لانهزم الهولنديون.

وفي هذه الفترة توفي السلطان عبدالجليل الخامس، وتولى ابنه السلطان محمود شاه الثالث الحكم، وفي عهده قامت معاهدة بينه وبين الهولنديين سمح لهم فيها بإقامة حاكم هولندي وإيواء حامية الشركة التجارية الهولندية في مدينة (ريو)، وفي سنة ١٨١٩ م جاء القائد الإنكليزي (رفلس)[١] إلى مدينة ريو، وسأل سلطان جوهور، منحه جزيرة سنغافورة ليجعلها ميناءً تجارياً. ودعي الأمير حسين ونودي به سلطاناً على سنغافورة وجوهور ولقب بالسلطان حسين محمد شاه.

من ذلك التاريخ بدأ الإنكليز يتداخلون في جوهور أيضاً عن طريق السلطان حسين وهذه طريقة الإنكليز يتخذون في كل بلد عميلاً لهم يسمونه ملكاً على الناس وهو في الحقيقة مملوك لهم وبدأ الهولنديون يتداخلون فيها كذلك عن طريق السلطان عبدالرحمن، وقد كان مقر الأول مدينة (سنغافورة) ومقر الثاني مدينة (ريو).

واستمر السلطان حسين في الحكم، ولكنه كان ساهياً عن سياسة البلاد، لاهياً عن إدارة شؤون الحكم، حتى زال حكمه نهائياً عن جزيرة سنغافورة في سنة ١٨٢٤ م. وانتقل إلى ملقا وتوفي بها سنة ١٨٣٥ وتولى بعده الحكم ابنه السلطان علي، إلا أنه تنازل عن حقوقه في سنة ١٨٥٥ م لتمنجونج إبراهيم وهو جد سلطان جوهور الحالي. وبتولي تمنجونج إبراهيم الحكم بدأ عصر جديد من عصور تاريخ جوهور.

وفي شهر فبراير سنة ١٨٦٢ م تولى السلطان أبو بكر الحكم بعد موت

---

(١) انظر فصل (سنغافورة) في هذا الكتاب.

أبيه فدبت في جوهور حياة جديدة، وأخذت عوامل النشاط والتقدم تشمل جميع مرافق الحياة، فأنشأ المدارس والمستشفيات وبنى المساجد، وحسن طرق المواصلات، وعمل على تحسين حال الزراعة في البلاد. وفي أواخر حياته سنة ١٨٩٥ م أقرّ الدستور، وجعل الدين الإسلامي هو الدين الرسمي للبلاد.

وكان هذا السلطان بعيد النظر، بارع السياسة، عالي الهمة، قوي الإرادة، يريد رفع شأن بلاده ووضعها في صفوف البلاد الراقية وكان أهم عمل قام به هو تحسين علاقته بالدول المجاورة له، وربط بلاده بجميع الدول برباط متين، من الصداقة والمحبة سواء أكانت هذه الدول غربية أم شرقية، ولذلك قام بعدة سياحات وزيارات إلى الغرب والشرق.

ففي مارس سنة ١٨٦٦ م سافر إلى أوروبا وقابل الملكة فكتوريا، وقد درس في أثناء مكثه هناك الحياة الإنكليزية والأنظمة القائمة بها.

وفي ٢٢ فبراير سنة ١٨٩٣ سافر السلطان إلى أوربا مرة أخرى وطاف بإنكلترا وألمانيا وإيطاليا ودول البلقان وزار تركيا وقابل السلطان عبد الحميد فأكرمه وأنعم عليه بوشاح من الدرجة الأولى.

وكان قد سافر سنة ١٨٨٣ م إلى الشرق لزيارة الصين واليابان، وقابل الميكادو أمبراطور اليابان وأسلم خمسة من اليابانيين على يديه أثناء رحلته لهذه البلاد.

وفي ديسمبر سنة ١٨٨٥ م تم عقد إتفاق بين حكومة جوهور وحكومة الإنكليز بمضيق ملقا لإقرار السلام وتقوية الصداقة بين الحكومتين.

وفي فبراير سنة ١٨٩٥ م تسلم السلطان أبو بكر من القتصل الصيني العام بسنغافورة (المدالية) التي أهداها إليه ملك الصين رمزاً للصداقة بين البلدين.

وفي ليلة الأربعاء ٤ يونيو سنة ١٨٩٥ م توفي بعد حياة طويلة قضاها في الجهاد وخدمة البلاد، وفي هذا اليوم تودي بالسلطان إبراهيم سلطاناً على جوهور.

وقد وقعت بين جوهور والحكومة الإنكليزية عدة إتفاقات من ١٨١٨ - ١٨٨٥ م كان جميعها في صالح البلاد.

ولا يمكن أن يقال أن جوهور دخلت تحت الإحتلال الإنكليزي بمعناه الحقيقي في أي يوم من الأيام. وقبل سنة ١٩١٤ لم يكن للحكومة الإنكليزية تدخل في شؤون جوهور الداخلية، وما زالت جوهور متمتعة باستقلالها الداخلي إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية ودخلت اليابان الحرب ضد الحلفاء، ولا نعلم ما هي حالة البلاد الجوهورية الآن[1] ونرجو الله أن يعيد السلام إلى الأرض ويتمتع كل بلد وكل شعب بحقه في الحرية والإستقلال.

الدول الإسلامية في جزيرة جاوة:

١ ــ الدولة الإسلامية الدمكية:

في سنة ١٤٩٨ م قتل أمبراطور ماجاباهيت، وكان الإسلام في عهد هذا الأمبراطور قد انتشر في جزيرة جاوة فأسلم كثير من العظماء والأمراء، وانفصلوا عن الأمبراطورية. وكانت ولاية (دمك) من الولايات التي استقلت، وتمكن ملكها في سنة ١٥١٥ م من إسقاط الأمبراطورية (ماجاهيت) ونقل شعارها إلى (دمك) عاصمة الدولة الإسلامية بجزيرة جاوة في ذلك الوقت.

٢ ــ دولة بنتام:

عندما نشبت الفتنة في (دمك) مركز الدولة الإسلامية أعلن (حسن الدين) حاكم (بنتام) إستقلال (بنتام) وانفصالها عن سلطنة «دمك» وذلك في سنة ١٥٦٨ م وبهذا أصبح سلطاناً على (بنتام) ثم عمل على نشر الإسلام حتى تسرب إلى البوذيين في عاصمة ملكهم.

٣ ــ دولة ماتارام:

وفي سنة ١٥٧٥ م تجمعت جيوش الدولة البوذية في جاوة وانضمت

(١) قد استقلت سنة ١٩٥٩ وقد مر الكلام عنها في هذا الكتاب.

إليها الدولة البوذية بجزيرة (بالي)[1] وأغارت على الدولة الإسلامية بقوات هائلة فأنزلت الخسائر الفادحة بقوات المسلمين، ولكن الجيوش الإسلامية تمكنت أخيراً من الثبات أمام هذه الهجمات، وفي ذلك الوقت قتل ملك (باجنج) فانتقلت الدولة الإسلامية إلى (متارام) وكان الأمير (سيناباتي) سلطاناً عليها. وكان ذلك في سنة ١٥٨٢ م وقد تمكنت الدولة الإسلامية بمتارام من احتلال جميع الولايات بجاوة ما عدا ولاية بنتام المستقلة. وفي عام ١٦٤٥ م دب الخلاف بين الدويلات الإسلامية فنتج من ذلك تقوية شوكة رجال الشركة الهولندية بجاوة وتغلغل نفوذهم في أندونيسيا.

الحركة الوطنية في أندونيسيا:

بعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب اليابانية الروسية، أسس الشبان المثقفون أول إتحاد سياسي هو (بودي أوتومو) وبعد ذلك تأسست جمعية (الشركة التجارية الإسلامية) وهي التي أصبحت فيما بعد حزباً سياسياً تسمى بـ (حزب شركة إسلام) وقد كان بين هذا الحزب وبين الحكومة المستعمرة عراك ونضال.

وفي سنة ١٩١٦ بدأت تظهر أولى ثمرات هذا الحزب حيث منح الشعب الأندونيسي الحقوق السياسية بتأسيس (المجلس النيابي) (فولكسراد). ومنذ سنة ١٩١٨ م انشيء ما يسمونه (بالمجلس النيابي) ترضية للشعب الأندونيسي الذي طالب الحكومة بإنشاء البرلمان في الحرب الماضية. ولكن هذا المجلس لا يشابه البرلمان في شيء ولا يمثل الشعب مطلقاً وليس له حق في التشريع وليست الحكومة مسؤولة أمامه. إن هو إلا مجلس إستشاري يستأنس الحاكم العام برأيه في بعض الأمور، ويتكون هذا المجلس من ستين عضواً منهم ثلاثون فقط من الأندونيسيين وخمسة وعشرون من الأوروبيين، وخمسة

---

(١) بالي جزيرة صغيرة قرب جاوه، يقصدها السياح ليروا نساءها المجوسيات اللواتي يخرجن إلى الآن عاريات، باديات الأثداء والنهود، وهي بلد الرقص فيها من أشكاله وأنواعه ما يعد بالعشرات، وبلد المتعة واللهو، ولم يبق بينها وبيننا إلا مسيرة ساعتين ولم أزرها.

من الشرقينن الأجانب، قسم من هؤلاء الأعضاء يعينون بالانتخاب غير المباشر، وقسم آخر بالتعيين من قبل الحكومة، وطالب الزعماء بأيجاد البرلمان الحقيقي فرفضت الحكومة، وكان هذا الرفض ضربة قاضية على سياسة التعاون ومشجعاً قوياً على الحركات المتطرفة حتى وصل الأمر إلى أن اعتنق بعضهم الشيوعية وكونوا حزباً شيوعياً في أندونيسيا، وذلك عام ١٩٢٠، ولم يأت عام ١٩٢٢ حتى عم أندونيسيا مبدأ (عدم التعاون). ثم تفاقم الأمر إلى أن أدى إلى الإضرابات والإضطرابات إلى اندلاع نار الثورة في عامي ١٩٢٦ و ١٩٢٧ فصاحت الحكومة صيحة المستغيث فساعدتها بعض الدول وقمعت الثورة بعنف شديد، وفر من بقي من رجالها، ولم يمض عام واحد حتى ظهر حزب جديد هو (الحزب الوطني الأندونيسي) بزعامة (سوكارنو) المعروف بتطرفه في مبدأ عدم التعاون. وهذا الزعيم يمتاز بجرأته وخطبه النارية، وهو يدعو ويطالب دائماً باستقلال أندونيسيا حالاً، دون تأخير. وإليه يرجع أكبر الفضل في إعادة المقاومة بعد ثورة سنة ١٩٢٧.

التعليم في أندونيسيا:

كانت نسبة المتعلمين في أندونيسيا قبل مجيء هؤلاء المستعمرين عالية، وكان ثلاثة أرباع سكانها يعرفون الكتابة والقراءة. فلما جاء الإسلام زادت نسبة المتعلمين فيها عما قبلها بتعلم كثير من سكانها اللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم. فلما دخل الهولنديون تلك البلاد رجعت البلاد القهقرى واستمرت على ذلك حتى انتشرت الأمية انتشاراً هائلاً.

المدارس الحكومية:

ولمتا وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها سنة ١٩١٨ قام الشعب الأندونيسي على بكرة أبيه يطالب بوجوب إصلاح شؤون التعليم في جميع نواحيه. فأنشئت إدارة المعارف برياسة هولندي وكان أكثر موظفيها من الهولنديين فقاموا بتنظيم شؤون التعليم وجعلوه على المراحل الآتية:

١ ــ التعليم الأولي ومدته سنتان.

٢ ــ التعليم الإبتدائي ومدته سبع سنوات.

٣ ــ التعليم الفني ومدته ثلاث سنوات.
٤ ــ التعليم الثانوي ومدته خمس سنوات.
٥ ــ التعليم العالي ومدته خمس سنوات.

وكان للتعليم في جميع هذه المراحل صبغة غربية محضة، فاللغة الأساسية لفهم العلوم وإلقاء الدروس والمحاضرات هي اللغة الهولندية. أما المدارس الحكومية التي تستعمل فيها لغة البلاد، فتقتصر على ثلاث مراحل فقط هي:

١ ــ التعليم الأولي ومدته ثلاث سنوات.
٢ ــ التعليم الإبتدائي ومدته ثلاث سنوات.
٣ ــ مدارس تخريج المعلمين ومدتها خمس سنوات.

ويتضح من هذا البيان أن أبناء البلاد الذين لا يلتحقون بمدارس الحكومة ـ التي تستعمل فيها اللغة الهولندية ــ يدرسون ليكونوا معلمين في المدارس الأولية، ولا يستطيعون أن يواصلوا دراستهم العالية. واختلاط الجنسين في جميع مراحل التعليم الحكومية شائع، اللهم إلا في مدارسها التي تقتصر على الشؤون البيتية، ومن غرائب نظام التعليم في أندونيسيا، هو طول مدة الدراسة التي يجب على الطالب أن يقضيها، وزيادة النفقات المدرسية، وفقد المجانية فيها، حتى في الأقسام الإبتدائية، وقد أدى ذلك إلى عجز معظم الطلاب عن مواصلة دراساتهم.

وبعد الحرب العالمية الأولى، اتخذت الحكومة الإستعمارية سياسة جديدة في شؤون التعليم، وبرت ببعض العهود التي قطعتها على نفسها كإكثار عدد المدارس، وزيادة الأموال المخصصة لنشر التعليم بين طبقات الشعب على وجه التدريج. وهذه السياسة الجديدة، لاقت تأييداً من نواب الأمة والشعب في أول الأمر، آملين أن تكون هذه السياسة لمصلحة الشعب الأندونيسي وأن تمحو الأمية المنتشرة في أنحاء البلاد. ولكن تبين أن هذه السياسة الجديدة، لا تحقق رغبات الشعب ولا تعود عليه بالفائدة، وأن القصد منها، إبعاد النشىء عن دينه وحضارة أسلافه، وتاريخ مجد بلاده، بإنشاء المدارس في أنحاء

البلاد، لإحياء اللغات الإقليمية المختلفة، وتفريق عناصر الأمة بعضها عن بعض، ليشعر كل منهم أنه مستقل بلغته وتقاليده، وبجانب ذلك كله، ألزمت الطلاب تعلم تاريخ المستعمرين، سياسياً وجغرافياً واقتصادياً، وأدهى من ذلك وأمرّ أن هذه السياسة، ترمي إلى تنصير النشء الأندونيسي بإعانتها المادية والأدبية للمدارس الإرسالية على اختلاف مذاهبها، وفتح أبوابها على مصراعيها، أمام الشبان الأندونيسيين المتعطشين للعلم، ليخرج منها الجيل الجديد الذي يعرض عن دينه وتقاليد بلاده، وإن لم يكن متوغلاً في النصرانية.

التبشير والاستعمار:

وقويت شوكة التبشير، وانتشرت مؤسساته (الخيرية) في أندونيسيا، من مدارس ومستشفيات وملاجىء وكنائس، وعملت الحكومة على إعطاء الأموال الوفيرة لهذه المؤسسات، وقدم هذا الإقتراح إلى البرلمان الهولندي، ولقي تأييداً قوياً من النواب المسيحيين وغيرهم، وقرر البرلمان الهولندي وجوب إعانة التبشير وحماية المبشرين في أندونيسيا، فصرفت ملايين من الأموال لهذا الغرض في حين أن الأموال التي صرفت لإعانة المؤسسات الإسلامية لا تعدو بضعة آلاف، على شدة حاجتها إلى الأموال لتنفقها على المدارس والمساجد المنتشرة في البلاد مع العلم أن ميزانية الحكومة تجبى من عرق جبين الأندونيسيين المسلمين. كل ذلك أدى إلى إيجاد الريب وتقلص ثقة الشعب الأندونيسي بالحكومة.

المدارس الأهلية:

وفي سنة ١٨٩٩ أنشأت (رادين كارتيني) مدرسة أهلية في جزيرة جاوة، وهي أول فتاة أندونيسية تشبعت بالثقافة الغربية، ورأت أن التعليم الذي تشتمل عليه مدارس الحكومة لا يلائم حالة الشعب الأندونيسي، ولا يمكنه من تحقيق الغرض المأمول، فكانت أول محاولة من قبل الشعب الأندونيسي لإيجاد التعليم القومي الحديث. وكذلك، أنشئت (مدرسة الطوالب) في جزيرة سومطرة الغربية سنة ١٩٠٨.

إتجاهات التعليم في المدارس الأهلية:

ومن تتبع اليوم أحوال المدارس الأهلية، التي تمتلىء بها البلاد من أقصاها إلى أقصاها، يجد فيها ثلاثة إتجاهات مختلفة إختلافاً ظاهراً، وإن كانت مع ذلك متحدة في العمل على مقاطعة المدارس الحكومية، ووجوب إنشاء المدارس بجهود الشعب وحده، وهذه الإتجاهات الثلاثة هي:

أولاً: الاتجاه القومي الذي يرمي إلى تنشئة الشباب تنشئة قومية بحتة، لا يكون عمادها الدين، بل تقف موقف الحياد، إزاء الأديان الموجودة في أندونيسيا (مع العلم أن أكثر من ٩٥ في المئة من سكانها مسلمون). وأول مدرسة من هذا النوع، المدرسة التي أنشأتها كارتيني.

ثانياً: الاتجاه الديني، وهو يرمي إلى عكس ما يراه الاتجاه الأول، أعني أن الدين (وهو الإسلام الذي اعتنقه معظم سكان البلاد)، يجب أن يكون أساساً للتعليم، من غير نظر إلى الفكرة القومية.

ثالثاً: الاتجاه الوسط الذي يرى أن التعليم القومي الأندونيسي، يجب أن يبنى على فكرة قومية أساسها الدين الإسلامي، الذي أصبح عقيدة قومية للشعب، منذ قرون.

المدارس الدينية الأندونيسية:

فأول مدرسة دينية أنشئت على النظام الحديث، هي المدرسة التي تأسست سنة ١٩٠٨، بجهود الدكتور الحاج عبدالله أحمد وزملائه في سومطرا الغربية، التي غدت فيما بعد مركز هذه الحركة. كان المؤسس عميداً لأحد المعاهد الدينية القديمة، فحوله إلى مدرسة حديثة لا يقل نظامها عن نظام المدرسة الحكومية.

وبعد ذلك بسنوات، ظهرت في مدينة فادنج فنجنج، المدرسة الدينية مسماة (بسومطرة طوالب) التي حولت أخيراً في سنة ١٩١٥ باسم (طوالب سخول) أسسها الدكتور عبدالكريم أمر الله، الذي له الفضل الأكبر في

إصلاح شؤون المدارس الدينية، وعلى الأخص في سومطرة الغربية. ولهذه المعاهد فروع عديدة.

أما التعليم الديني في شبه جزيرة الملايا، فلا يقل تقدماً عن باقي جزر أندونيسيا، بل ربما زاد عليها زيادة تستدعي الإعجاب، ونحن نرى في إماراتها المختلفة، معاهد دينية كثيرة غاصة بالتلاميذ. في أوائلها المدارس الدينية التي أنشأها العرب القاطنون في الملايا كمدرسة (العطاس) في إمارة جوهور، ومدرسة (المشهور) في جزيرة فينبج، ومدرسة (الجنيد) في سنغافورة، ونخص بالذكر تلك المدارس العديدة، التي أنشأتها جمعية الإرشاد والجمعية الخيرية وجمعية الرابطة العلوية، في بعض مدن أندونيسيا والملايا، لما قامت به من إصلاح شؤون التعليم الديني، ولا سيما في إحياء لغة الدين الحنيف.

أما اليقظة التي ظهرت في أوساط العلماء الدينيين المنضمين إلى جمعية (نهضة العلماء) في جاوة، الذين أيقنوا بضرورة إصلاح التعليم في معاهدها المنتشرة في البلاد، فقد أدت بهم إلى إنشاء المعهدين الكبيرين، وهما (باسنتران ترماس) و (باسانتران تابوايرانج).

وكذلك نشاط (إتحاد مدارس التربية الإسلامية) في (مننكابو) المسمى بـ (بارتي) وجهود الجمعية الوصلية في مدينة (ميدان) على ساحل سومطرة الشرقية، وما قامت به جمعية العلماء في مدينة (الشربون) بجاوة يستحق الثناء والإعجاب.

وأما ما بذلته جمعية (مشاورة الطلبة) و (رابطة المدارس الإسلامية) في جزيرة بورنيو المسماة (ف ف ١) وكذلك ما عمله (إتحاد المدارس القرآنية) بسومطرا الجنوبية، فليس أقل شأناً من غيره، من توسيع رقعة نفوذ المدارس الدينية الإسلامية في البلاد المترامية الأطراف.

يرى أنصار الإتجاه الثالث، أن التعليم الذي يتطلبه الشعب، ليس مقصوراً على العلوم الدينية فحسب، وإنما يريد فوق ذلك، العلوم الحديثة والآداب والفنون، حتى يتمكن الشعب الأندونيسي في مسايرة أمم العالم المتمدينة في بناء الحضارة العالمية، مع إحتفاظه بمميزاته الحميدة. وأن الشعب

الأندونيسي، لايريد من التعليم الحديث أن يكون مقصوراً، على تلك العلوم المدنية الحديثة التي تطبع الأجيال المقبلة بالطابع المادي، وتجعلها عبيداً للمادة كما هي الحالة في أوربّا اليوم، وإنما يريد فوق ذلك، جعل الدين الإسلامي الصحيح، أساساً للتعليم القومي لإنقاذ تلك الأجيال، من التيار المادي الجارف، وجعله ركناً من أركان قوى الشعب المعنوية التي لا يستغني عنها البشر في يوم من الأيام.

وأول من نادى بهذا الرأي المصلح الكبير الشيخ (أحمد دحلان) مؤسس (الجمعية المحمدية) «وهي من أكبر الجمعيات الإسلامية المنظمة في أندونيسيا وذلك حوالي سنة ١٨١٢ في مدينة «جكجاكارتا». فالغرض الأساسي من إنشاء تلك الجمعية هو (إيجاد حياة إسلامية حديثة في الشعب الأندونيسي على حسب ما يتطلبه الدين الحنيف. وقسم المؤسس أعمال الجمعية إلى أقسام، وكل منها يعمل على حدة، لتحقيق تلك الغاية العظيمة، فهو بمثابة وزارة في حكومة. والتعليم الذي تعمل (الجمعية المحمدية) لتحقيقه منقسم إلى فرعين كبيرين: فرع منها يضم أكثر براجمه التعاليم الدينية والعقائد الإسلامية الصحيحة، مع إدخال العلوم العصرية الضرورية. وقسم آخر يوجه أكثر اهتمامه إلى العلوم الحديثة مع إدخال العلوم الدينية اللازمة. فكل قسم من هذين القسمين له صلة بالآخر إلى حد ما، ويعملان بالتعاون الوثيق لتحقيق الغاية المشتركة. أما طريقة التدريس في كل منهما، فتتخذ فيه أحدث طرق التعليم في العصر الحاضر، أما نظام اختلاط الجنسين، فيرى أنصار هذا الاتجاه أنه غير ملائم للشعب الأندونيسي، وقد جروا على التفريق بينهما منذ المرحلة الأولى من التعليم. ومما هو جدير بالذكر، أن التدريس في رياض الأطفال والمدارس الأولية والمدارس التي تخص البنات كلها مقصور على النساء.

ولم يلاق هذا الاتجاه في أول الأمر إهتماماً يذكر من الشعب الأندونيسي، وعلى الأخص من أنصار الإتجاهين الآخرين، ولكن بعد مضي ربع قرن من جهاد متواصل، في تفهيم الشعب الأندونيسي ضرورة الأخذ بدعوتهم، استطاعوا أن يقنعوهم بنتائج أعمالهم قبل كلامهم، وخصوصاً مواقفهم

الحاسمة ضد الجهود الجبارة التي بذلتها حركة التبشير والإرساليات الأجنبية، مما ألهج ألسنة الشعب بالثناء والتقدير.

ومن المؤسسات التعليمية لهذا الاتجاه:

١ ـ مدارس الجمعية المحمدية:

ومن تتبع ما بذلته (الجمعية المحمدية) من الجهود والأموال الضخمة في ميدان التعليم القومي، يشعر كأن في البلاد حكومة أخرى بجانب الحكومة الهولندية، إذ بلغت نسبة الأموال التي أنفقتها الحكومة الهولندية لشؤون التعليم، وبين ما أنفقتها الجمعية المذكورة في سنة ١٩٣٢ كنسبة ٦ إلى ٨، وهذه النسبة، أخذت في السنوات الأخيرة في الارتفاع، وخصوصاً بعد ما سلكت الحكومة سياسة الإنقاص من نفقات التعليم، بينما سارت الجمعية في طريق التوسع، وبلغ ما عندها من المدارس والمعاهد، في السنوات الأخيرة، أكثر من ألفي مدرسة ما بين إبتدائية وثانوية وعالية. وهذه المدارس منتشرة في أنحاء البلاد مجهزة بالأدوات الحديثة. وقد قررت في إحدى مؤتمراتها، قبيل الحرب العالمية الثانية، إنشاء جامعة تسمى بـ (الجامعة الإسلامية) في مدينة جاكرتا (بتافيا) وهي عاصمة البلاد.

٢ ـ المدارس الدينية:

أما المدارس الدينية التي أسسها المصلح (زين الدين لاباي اليونسي) سنة ١٩١٥، فكانت ذات أثر في تكوين روحية الشعب. وقد كان لهذا المصلح الفضل الأكبر في إدخال العلوم العصرية إلى المعاهد الدينية في سومطرة الغربية، وتطبيق أسلوب التربية الحديثة في تدريس العلوم الدينية، وذلك لما رأى أن الكتب الدينية الموجودة، لا يمكن عن طريقها إلهام النشء، الأصول الدينية وأحكامها، لما فيها من التعقيد وصعوبة الأسلوب، فلجأ إلى تبسيط هذه الكتب، وجعلها موافقة لفصول الدراسة وأعمار التلاميذ، وللمناهج التي خططها لهذه المدارس. ولقد لقي هذا العمل قبولاً حسناً من مدارس (الطوالب)، وطبقته في مدارسها بعد ذلك بسنين.

٣ ــ مدارس جمعية (باسنونذان):

انتشرت هذه المدارس في جزيرة جاوة الغربية تبعاً لانتشار فروع تلك الجمعية الكبيرة فيها، وتعد مدارس هذه الجمعية من قبيل الاتجاه الثالث، حيث أدخلت فيها العلوم العصرية بجانب العلوم الدينية. ولا يقل نجاحها عن مثيلتها في نشر التعليم وخصوصاً في تلك المنطقة.

٤ ــ معاهد عالية إسلامية:

وقد أنشأت مدارس (نورمال إسلام) و (إسلاميك كوليج) و (إسلاميك ترينج كوليج) و (الجامعة الإسلامية) وغيرها من المعاهد في سومطرة الغربية. إنه دليل واضح على فوز العلماء العصريين الذين تثقفوا بالثقافتين الدينية والمدنية، ونخص بالذكر هؤلاء الذين كونوا (جمعية المدرسين للمعاهد الإسلامية المسماة بـ (ف ج أي) ويرجع الفضل في تأسيسها إلى المجاهدين الكبيرين الدكتور عبد الله أحمد والدكتور عبدالكريم أمر الله، وكثير من أعضائها البارزين قد أتموا دراستهم في مصر والحجاز وغيرهما.

وكذلك أنشئت (الكلية الإسلامية) في مدينة (سورابايا) بجهود المغفور له الزعيم الوطني الدكتور (سوتومو) وزملائه، وقيام «باسانتران لوهور» في مدينة (سوراكرتا) بجهود الدكتور (ساتيمان) وزملائه، مما يبعث الارتياح العظيم في نفوس الشعب، لأن هؤلاء الزعماء الوطنيين المثقفين بثقافة غربية، قد تنبهوا إلى ضرورة إدخال التعاليم الإسلامية بجانب العلوم العصرية في المدارس القومية.

المدارس الحكومية:

أما المدارس الحكومية، فقد قل الإقبال عليها، بعد أن خابت آمال الأمة فيها، وخصوصاً، بعد تأسيس المدارس الأهلية، ولذلك اضطرت الحكومة إلى إغلاق أبواب كثير من مدارسها، وخصوصاً المدارس الإبتدائية في الأرياف، حيث تشتد المنافسة بينها وبين المدارس الأهلية.

الإصلاح الديني في أندونيسيا وأثره في الحياة الإجتماعية:

ظهرت حركة الإصلاح الديني في أندونيسيا أول ما ظهرت، في الجزء الغربي من (سومطرة)، وذلك في أوائل القرن التاسع عشر، بزعامة المجاهد المعروف بـ (إمام بونجول)[1] الذي ولد حوالي سنة ١٧٧٢ م وتوفي سنة ١٨٦٤ م وأعانها جماعة من القواد والعلماء المعروفين في أندونيسيا، وكان شعار هذه الحركة هو حديث (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده. . .)،

بدأت حركة الإصلاح الديني في أندونيسيا كما قلنا، في أول القرن التاسع عشر، ولكنها عادت إلى الجمود والخمول بانكسار جيوش زعيمها بعد حروب دامت عشرات السنين في الدفاع عن أندونيسيا، ضد قوات الأجانب المحتلين، وبنفي ذلك الزعيم المصلح إلى إحدى الجزر النائية ووفاته في ذلك المنفى. فلم يتح لهذه الحركة أن تثمر وتؤتي أكلها لأنها كانت تصاحبها حروب وفتن، فأصابها الذبول ثم الموت. وهنا عادت الحالة الدينية إلى ما كانت عليه من انتشار البدع والخرافات، وتشويه العقائد بعادات وتقاليد لا تتفق وما يقتضيه التوحيد الصحيح.

وفي أواخر القرن الماضي، ظهر في مكة المكرمة، عالم أندونيسي جليل، ذاعت شهرته لا في أندونيسيا ومكة وحدهما بل في العالم الإسلامي جميعاً. إذ مكنه علمه وما اتصف به من سمو الأخلاق، بأن يكون إماماً في الحرم المكي، وخطيباً فيه، وهما منصبان لا يتشرف بتقليدهما، إلا من كانت له المكانة العليا في العلوم الدينية والتحلي بالفضائل والخصال الشريفة، فإذا فاز بهذا الشرف الديني الرفيع عالم غريب أعجمي من أندونيسيا، وهو الشيخ أحمد الخطيب رحمه الله، كان ذلك لمكانته الممتازة جداً، في العلوم الشرعية الإسلامية، ولما له من المنزلة في قلوب المسلمين.

وقد تلقى كثير من الشبان الأندونيسيين الذين أتوا مكة المكرمة العلم على يد هذا الشيخ الأندونيسي العظيم. وعاد هؤلاء الطلاب الشبان كل إلى بلدته. فكانت عودتهم فتحاً جديداً للحياة الدينية الإسلامية في أندونيسيا.

(١) هو مصطفى سحاب الذي مر ذكره في صفحة (١٢٢).

وأما زعيم حركة الإصلاح في جاوة، فقد كان رجلاً قد جاوز عهد الشباب، وعرف بالصلاح والتقوى وصدق الإيمان، وهو الشيخ أحمد دحلان ـ رحمه الله ـ وكان مصلحاً من أعظم المصلحين في أندونيسيا وزعيماً دينياً اشتهر باللين من غير ضعف، والكياسة مع صدق العزيمة، ولقد كانت الظروف في جزيرة جاوة تختلف عما كانت عليه في سومطرا إذ لم تكن البدع والخرافات والأوهام هي وحدها تفشت فيها، ولكن هناك شيئاً أخطر من ذلك كله في نظر مسلمي أندونيسيا، وهو قيام الجمعيات الإرسالية بدعاية منظمة، تعضدها في ذلك قوات الإستعمار ولو عن طريق غير مباشر. رأى الشيخ أحمد دحلان بنظره الثاقب، أنه ليس من الحكمة في شيء أن يواجهها بالجدل والمناظرة الكلامية. فعمد إلى إنشاء جمعية منظمة هي (الجمعية المحمدية) التي كان ولا يزال شعارها (قلة الكلام مع كثرة العمل).

ولقد كان المسلمون الأندونيسيون يرمون في حركاتهم إلى إصلاح العقيدة قبل كل شيء، والرجوع إلى التوحيد الصحيح، ولقد كان فساد العقيدة وضلالها، هو السبب الأكبر لضعف المسلمين وتأخرهم، كانوا يريدون بحركاتهم الإصلاحية الرجوع إلى الكتاب والسنة وسنن الخلفاء الراشدين، واتباع سبل السلف الصالح في التشريع الإسلامي. محاربين التقليد الأعمى الذي كان شائعاً بين المسلمين، وإفهامهم أن باب الاجتهاد لم يغلق بابه لمن يتوفر فيه شروط الاجتهاد.

لقد نجحت هذه الدعوة نجاحاً عظيماً[1]، ظهرت آثارها اليوم في جميع نواحي الحياة في أندونيسيا من ثقافية وأدبية واجتماعية وسياسية. ففي الحياة الثقافية، ظهرت آثار هذا النجاح بانتشار المدارس من إبتدائية وثانوية تسير وفق النظم الحديثة، تدرّس فيها العلوم بجانب الدين. والواقع أن هذا النشاط الثقافي قد سد كثيراً من النقص الناتج من تضييق المستعمرين أمور التعليم في أندونيسيا.

---

(١) وما بدأ الخلاف وكان الانقسام إلا بكتب الشيخ يوسف النبهاني البيروتي التي أولع فيها بمحاربة السلفية وأهلها ونصر البدع وأصحابها.

وأما في الحياة الأدبية، فقد ظهر على أثر الدعوة، كتاب مثقفون ثقافة دينية وعلمية، إلى أن أصبحت للصحافة الإسلامية الأندونيسية مكانة محترمة في الحياة الصحافية العامة.

وأما في النشاط الاجتماعي العام، فقد تسابقت الجمعيات الإسلامية إلى نواحي النشاط الاجتماعي المختلفة، من إنشاء المستشفيات والملاجىء حتى بلغ عددها المئات.

ولا يقل تأثر الحياة السياسة بتلك الحركة الإصلاحية، فقد سيطرت الروح الدينية إلى حد بعيد، على الحياة السياسية، حيث اتخذت بعض الأحزاب الدين أساساً لجهادها الوطني، كما مال الزعماء المحايدون في الأديان، إلى اتخاذ النغمة الإسلامية في دعايتهم، ولا عجب في هذا وقد علمتم أن أكثر من خمسة وتسعين في المائة من سكان أندونيسا مسلمون.

النهضة النسائية في أندونيسيا:

عندما أدارت الثورة رحاها، واتسع في النضال مداها، كان يسير (توكو عمر)[1] بجيشه، وبجانبه زوجه، يدافع عن كيان أمته في شمال سومطرة من سنة ١٨٧٢ إلى ١٩٠٨، فكان يقاوم المستعمرين مستميتاً في جهاده، حتى ذهب شهيداً، وكان جهاده مجيداً.

مات (توكو عمر) ولم يترك وراءه صبياً، غير زوج مخلصة له، مؤمنة بجهاده، متفانية في الوطنية، ومستميتة في العقيدة. فلم يفت في عضدها موت زوجها، ولا رضيت بالاستسلام بعد وفاته، بل كانت خير خلف لخير سلف، لا يخيفها ما ذهب وما تلف، فمضت في طريقها دون إنزواء، مستقيمة بلا التواء، متكلة على الله بقوة عقيدتها، وسلامة نيتها، فكان عملها مكللاً بالنجاح، إلى أن أسلمت روحها لخالقها راضية مرضية، بعد أن لبثت تقود الجيوش، وتخوض غمار الحروب زهاء تسع سنين أظهرت فيها بسالة فائقة، وشجاعة نادرة تلك هي الأميرة (نياء دين).

---

(١) توكو لقب تعظيم.

وفي سنة ١٩٢٥، كانت ثورة في مدينة جاوة الغربية، ذهبت في سبيلها أرواح طاهرة أبيـة، وكان للنسـاء نصيب وفير في هـذه التضحية، وانتهت المعركة بمـوت عدد كبـير من أبناء الأمـة البررة، وسجن كثـير من الرجـال والناس، كان منهم (الحاج مصباح) الّذي قبض عليه وهو ثائر، وكانت زوجه بجانبه تثير الهمم وتحيي المشاعر، ولما نفي زوجها لم ترض بتركه وحيداً في منفاه، بل ذهبت معه مؤانسة، تخفف عنه كرب الأيام، وويلات الأحكام. ولم تكن وحيدة هذه الحادثة، بـل قرينـاتها كثـيرات، كلهن تحملن مشقات الجهاد، خالصات مخلصات، يبدين من الرغبة في التضحية، ما جعل الرجال يستخفون بحياتهم غير مبالين بأرواحهم، ولم تخمد الثورة عنـد هذا الحد، ولكنها جددت نشاطها في سنة ١٩٣٧ في سومطرة الغربية وفي هذه الآونـة أظهرت النساء فتوة نادرة، وشجاعة فائقة، لا تقل عن شجاعة الرجال كثيراً، وكانت هذه الحركة ـ لسوء الحظ ـ لم تسفر عن نتيجة مرجوة إذ أخذت في طريقها بالأبرياء بعد أن أخمدتها قوة عمياء.

وتـذكر دائـماً هذه الثـورة اسم السيدة (أوفيق أيتم) التي كـانت رمز الجهـاد، ولم تمت تلك النفس الطاهـرة، بـل شردت وعـذبت وسجنت في (بتافيا)، وتركت وراءها ابناً صغيراً، قد مات والده في تلك الثورة الدامية. ولهذه الزعيمة زميلة في جاوة وهي السيدة (تيري مـرتي)، وقد أبلت هـذه الأخيرة أيضاً بلاء حسناً، في كفاحها المجيد ضد الاستعمار الهولندي. وكانت السيدة (رحمة اليونسية) إحدى النساء المجاهدات، فعندما قبض على زوجها وأرسل به إلى منفاه أرادت الذهاب معه، ولكنه أبى وقال لها: إن أخلصت لي وأردت ترضيتي، فعليك أن تحيي شعوري، وتتمي رسالتي وتعملي ما أردت عمله في حياتي لخير بلادي: فامتثـالاً لرغبـة زوجها ، مكثت في بـلادها، تسعى للعمل بوصيـة زوجها، حتى بـاعت جميع حليهـا، وأنشأت مـدرسة إسلامية للبنات، وأثثتها بأثاث منزلها، وقد واتتها الظروف سعيدة، إذ أقبل على مدرستها طالبات كثيرات، حتى ضاقت بهن تلك الدار، فاضطرت إلى توسيعها وكان أهم مساعي تلك المدرسة، توجيه البنات توجيهـاً صحيحاً، وإخراج الأمهات للمستقبل، صالحات للحياة الزوجية، ونافعات للمجتمع.

وقد أنشئت مدارس كثيرة للبنات باسم تلك السيدة الجليلة تقديراً لها وإحياءً لذكراها.

وقد دخلت غياهب السجون من النساء الأندونيسيات زمرة من فتيات السعادة، عشن في رغد وتمتعن في كنف الرفاهية، ولكنهن شعرن بوخزة قلبية تحرك فيهن النخوة فتقبلن ولوج السجون ثم تخرجن منها أصلب من قبل عوداً، وأقوى ساعداً، ولم يعتبرن السجون إلا موضع راحة واستجمام، فيها تضعن الفكرة من جديد، وتتسلحن بعقيدة من حديد. ومما قالت السيدة رسونة سعيد في (إحدى تصريحاتها الصحفية بعد القبض عليها) (أيها الرجال إن كنتم تخافون العذاب والسجون، فكونوا نساء، لنكون نحن رجالاً مكانكم).

ومما هو جدير بالذكر أن كل حزب من الأحزاب، وكل جمعية من الجمعيات في أندونيسيا، لها قسم خاص بالنساء. فحزب (شركة إسلام) مثلاً، له قسمه النسائي، وتدير هذا القسم السيدة (غوناوان) والجمعية المحمدية لها قسم خاص للنساء. وهو المسمى (بالعائشية) وترأسها السيدة عائشة هلال.

والعائشية هذه، تعد من أكبر الحركات النسائية وأكثرها انتشاراً في أندونيسيا، وهي منسوبة للسيدة عائشة زوج الرسول وأم المؤمنين رضي الله عنها. كما أن المحمدية نسبة إليه ﷺ، وللعائشية مدارس كثيرة للبنات، ومكاتب ومجلات تديرها السيدات، كما أن لها معهداً خاصاً لتخريج الواعظات، وتسمى الواعظة في أندونيسيا بالمبلغة، إشارة إلى ما ورد في الحديث (بلغوا عني ولو آية)، وقد كان نجاح هذا المشروع مشجعاً، ويسر القارىء الكريم أن يعلم بأن عدد أولئك المبلغات بلغ ٢١١٤ مبلغة (حسب إحصاء عام ١٩٣٧) ويزيد عددهن الآن على خمسة وعشرين ألفاً، يقمن بالوعظ والإرشاد، وتربية الجنس اللطيف وتهذيبه وإيصال هداية الإسلام إليه. وتنظيماً لنشاط العائشية، تعقد مؤتمرات سنوية لها في مختلف مدن أندونيسيا، وذلك بالاشتراك مع الجمعية المحمدية. وهذا التعاون بين النساء

والرجال، أنتج انسجاماً وائتلافاً بين الجنسين في المجتمع الأنـدونيسي، فلا تشعر المرأة بأنها مظلومة فتطالب بالمساواة، ولا يشعر الرجل أنه العضو الوحيد في المجتمع فيتجاهل حقوق المرأة.

والمرأة الأندونيسية تشارك زوجها في أعماله، فتراها بجانبه في الحقول والمراعي، بل في الأسواق التجارية، وليس معنى هذا، أن لها من الحقوق كل ما للرجال ،إذ لا تزال السلطة العليا في الأسرة في يد الأب أو الزوج وفي بعض المناطق تكون للخال.

والطلاق - كما هي الحالة في البلاد الإسلامية الأخرى - لا يحتاج إلى إجراءات طويلة صعبة، ومع ذلك لا يميل الأندونسيون كثيراً إلى اللجوء إليه. والمرأة المطلقة لا تنقص قيمتها الإجتماعية، ما لم يكن الطلاق نتيجة الإعوجاج في سيرتها لقد قلنا إن الأندونيسيين يحافظون كل المحافظة على حسن العلاقة بين الأسر، سواء كانت هذه العلاقة نتيجة المصاهرة أو المجاورة. ولذا كانت العلاقة بينها خصوصاً في القرى، أشد ما تكون قوة، وتقل هذه الشدة بعض الشيء في المدن خصوصاً في المدن الكبيرة.

أما المهر فليس لغلائه أثر في هذه البلاد، إذ أنه مهر رمزي لا يزيد في الغالب عن روبيتين ونصف روبية (أي ما يقرب من ليرتين سوريتين) ولكن على الزوج أن يجهز بيت الزوجية على قدر استطاعته. وليس معنى ذلك، أنه حر بقدم للزوجة ما يريد، بل هناك عرف له من القوة ما يدفعه إلى مراعاته. وبعد عقد الزواج يذهب الـزوج - في العرف الغـالب - إلى بيت الزوجـة، فيساكن أسرة الفتاة، وقد يفتح لها أبوها بيتاً جديداً مستقلاً، لا سيما إذا كان البيت القديم، لا يتسع لأسرة جديدة.

* * *

دخلت المدنية الغربية في أندونيسيا منذ زمن بعيد، ولكنها بحمد الله لم تقو حتى الآن على تقويض التقاليد الشرقية المحمودة، فالمرأة الأندونيسية لا تعرف الاختلاط المزري الذي حاول الغربيون أن يروجوه في البلاد الشرقية، ولا ذلك الإبتذال الخلقي الذي بدأ يتسرب إلى الشرق. فلا تدخل الحمام

المختلط[1]، ولا حلقات الرقص، ولم يمكن إلى الآن فتح (كبارية) واحد على طول هذه البلاد وعرضها، ولا مجلة واحدة تروج الفجور والعرى. فنرى الحكومة ـ مراعاة لشعور الجمهور ـ تشدد الرقابة على الأفلام السينمائية، ولا تسمح للأطفال إلا بمشاهدة الأفلام الثقافية. وقد راجت الأفلام المصرية، وأقبل عليها الجمهور في أول الأمر (لمصريتها) المرادفة في نظر المسلمين الأندونيسيين (لإسلاميتها) فخابت فيها آمالهم، لما شاع فيها من الخلاعة وحياة المجون، ومصر لا تزال في نظرهم كعبة العلوم الإسلامية، ولذلك بعث أحد الكتاب الأندونيسيين مقالاً إلى الجرائد المصرية، يصور فيه هذه الخيبة في الآمال. وليس معنى هذا أن المدنية الغربية لم تترك أي أثر في الحياة الإجتماعية الأندونيسية، فالواقع أنها أثرت فيها أثراً ظاهراً. وما تلك الجمعيات الإصلاحية المختلفة المنظمة، وما قامت بها في نواحي الإصلاحات المتنوعة، إلا أثراً من آثار هذه المدنية.

ولا تزال العلاقات الإجتماعية قائمة بين الناس.

وهناك ظاهرة تبين لنا مقدار قوة هذه العلاقة. ففي بناء البيوت مثلاً، تتجلى روح التعاون بين الأسر، فتعمل فيها القرية بأسرها، ولا يعهد إلى البنائين أو النجارين المهرة إلا بالأعمال الفنية الدقيقة. ومن هنا نجد بعض القرى تخصص يوماً من كل أسبوع للأعمال العامة. وكذلك الحال في أيام الحصاد، حيث يتعاون الجميع في القيام به. وهذه المظاهر لتعاون الأسر، لا تنحصر في داخل قريتها وحدها، ولكن عندما يخرج أفراد هذه القرية للتجارة أو غيرها، يفرض عليهم العرف، التعاون الوثيق كذلك. وإذا كان واحد منهم في حاجة إلى معونة، ولا يسرع الآخر بمد يد المعونة إليه، يكون ذلك عاراً لا يمحى، لا على جبين هؤلاء الأفراد فحسب، بل على جبين أسرهم كذلك، ويكون ذلك موضع التعيير في قريتهم.

وهذه الروح التعاونية لها أثرها الطيب في مظاهر النشاط الاجتماعي على الوجه العام.

* * *

---

(١) إلا ما يكون من الفقراء والسفلة في نهر جاكرتا.

أندونيسيا كما رآها ابن بطوطة

دخل ابن بطوطة أندونيسيا في القرن السابع الهجري، وهي إذ ذاك مستقلة، لم تطأ أرضها بعد قدم للاستعمار الغربي، فإن الفوج الأول من الغربيين لم يصل أندونيسيا إلا بعد ذلك بعدة قرون. على أن الإسلام قد بدأ ينشر جناحه في ربوعها بل رسخت أقدامه في بعض جهاتها قال: «ثم سافرنا... وبعد خمسة وعشرين يوماً... (أي من مغادرته بلاد البرهنكار)... وصلنا إلى جزيرة الجاوه (وهو يقصد سومطرة) وهي التي ينسب إليها اللبان الجاوي، رأيناها على مسيرة نصف يوم، وهي خضرة نضرة وأكثر أشجارها النارجبيل، والقرنفل، والعود الهندي، والعنبة، وقصب الكافور...».

ولما وصلنا المرسى خرج إلينا أهلها في مراكب صغار ومعهم جوز النارجبيل، والموز، والعنبة، (وابن بطوطة يريد به المنجة أي المانغو) والسمك وعادتهم أن يهدوا ذلك للتجار فيكافئهم كل إنسان على قدره، وصعد إلينا أيضاً نائب البحر وشاهد من معنا من التجار، وأذن لنا في النزول إلى البر، فنزلنا إلى البندر، وهي قرية كبيرة على ساحل البحر، بها دور يسمونها السرحى، وبينها وبين البلد أربعة أميال. ثم كتب بهروز (نائب صاحب البحر) إلى السلطان، فعرفه بقدومي، فأمر الأمير دولسة[1] بلقائي والقاضي

---

(١) أما الأمير دولسة فلعل الأصل فيه دولة شاه وهو من الأسماء الشائعة في الطبقات النبيلة في سومطرة. وأما الشيرازي والأصبهاني فلا أظن أنهما حقيقة من شيراز وأصبهان، ولكنهما من أصلاء الأندونيسيين الذين من عاداتهم أن يستعملوا أسماء مشاهير الإسلام فيسمون أولادهم (مثلاً) فلان البخاري أو الصنهاجي، أو السيوطي أو غير ذلك. وأما بناء الأسوار والأبراج الخشبية حول المدينة فعادة لم تبق الآن إلا في بطون التاريخ وكتب الأقاصيص.

الشريف أمير سيد الشيرازي، وتاج الدين الأصبهاني، وسواهم من الفقهاء، فخرجوا لذلك وجاءوا بفرس من مراكب السلطان وأفراس أخرى، فركبت وركب أصحابي ودخلنا إلى حضرة السلطان وهي مدينة سومطرة، مدينة حسنة عليها سور خشب وأبراج خشب. . .

وذكر (سلطان الجاوة وهو يريد أحد سلاطين جزيرة سومطرة) فقال:

«هو السلطان الملك الظاهر، من فضلاء الملوك وكرمائهم شافعي المذهب، محب في الفقهاء، يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة، وهو كثير الجهاد والغزو، ومتواضع، يأتي إلى صلاة الجمعة ماشياً على قدميه، وأهل بلاده شافعية محبون في الجهاد، يخرجون معه تطوعاً وهم غالبون على من يليهم من الكفار، والكفار يعطونهم الجزية على الصلح».

ولما قصدنا إلى دار السلطان وجدنا بالقرب منه رماحاً مركوزة عن جانبي الطريق، وهي علامة على نزول الناس، فلا يتجاوزها من كان راكباً فنزلنا عندها، ودخلنا المشور، فوجدنا نائب السلطان، وهو يسمى عمدة الملك، فقام إلينا، وسلم علينا، وسلامهم بالمصافحة، وقعدنا معه، وكتب بطاقة إلى السلطان يعلمه بذلك، وختمها، ودفعها لبعض الفتيان، فأتاه الجواب على ظهرها، ثم جاء أحد ببقشة فأخذها النائب بيده، وأخذ بيدي، وأدخلني إلى دويرة يسمونها فردخانة، وهي موضع راحته بالنهار، فإن العادة أن يأتي السلطان إلى المشور بعد الصبح، ولا ينصرف إلا بعد العشاء الآخرة، وكذلك الوزراء والأمراء الكبار. وأخرج من البقشة ثلاث فوط، إحداها من خالص الحرير، والأخرى حرير وقطن، وأخرى حرير وكتان وأخرج ثلاثة أثواب يسمونها التحتانيات (من جنس الفوط) وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الأجناس تسمى الوسطانيات وأخرج ثلاثة أثواب من الأرمك أحدها أبيض، وأخرج ثلاث عمائم. فلبست فوطة منها عوض السراويل على عادتهم وثوباً من كل جنس[1].

---

(١) لم يبق الآن في أندونيسيا شيء من هذه التقاليد والعادات. نعم بقي من الملابس: الإزار، وهو الذي يسميه ابن بطوطة «الفوطة». والفوطة كلمة مستعملة في الشام وغيرها إلى الآن.

ثم دخل بي إلى السلطان، فوجدت القاضي والطلبة عن يمينه وشماله، فصافحني (أي السلطان) وسلمت عليه، وأجلسني عن يساره وذكر ابن بطوطة أن السلطان تحدث إليه حول أسفاره، ثم عاد (السلطان) إلى المذاكرة في الفقه على مذهب الشافعي، ولم يزل كذلك إلى صلاة العصر، وذكر أن السلطان كان (عند المذاكرة) يلبس ثياب الفقهاء، ويأتي المسجد يوم الجمعة ماشياً بهذه الثياب. ثم ينزع هذه الثياب ويلبس ثياب الملك وهي الأقبية من الحرير والقطن.

قال: «ولما خرج (السلطان) من المسجد، وجد الفيلة والخيل على بابه، والعادة عندهم أنه إذا ركب السلطان الفيل ركب من معه الخيل، وإذا ركب الفرس ركبوا الفيلة، ويكون أهل العلم عن يمينه».

فركب (السلطان) ذلك اليوم على الفيل وركبنا الخيل وسرنا معه إلى المشور، فنزلنا حيث العادة، ودخل السلطان راكباً، وقد اصطف في المشور الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفاً. فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب (ووزراؤه أربعة) فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم. ثم صف الأمراء فسلموا ومضوا إلى مواقفهم. وكذلك تفعل كل طائفة. ثم صف الشرفاء والفقهاء. ثم صف الندماء والحكماء والشعراء ثم صف وجوه العسكر ثم صف الفتيان والمماليك. ووقف السلطان على فيله إزاء قبة الجلوس ورفع على رأسه شَطْر مرصع (يريد المظلة الملكية) وجعل عن يمينه خمسين فيلاً مزينة. وعن شماله مثلها وعن يمينه أيضاً مائة فرس وعن شماله مثلها، ووقف بين يديه خواص الحجاب. ثم أتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه. وأتى بخيل مجللة بالحرير. لها خلاخيل ذهب وأرسان حرير مزركشة فرقصت الخيل بين يديه فعجبت من شأنها وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند. ولما كان عند الغروب دخل السلطان إلى داره وانصرف الناس إلى منازلهم.

سورابايا

ركبنا القطار من جوكجا، فمر بنا على مشاهد ليست لها روعة المشاهد التي رأيناها بين جاكرتا وجوكجا، وجاز بنا نهر صولو، وهو أوسع نهر رأيته في جاوا، ومدينة صولو، وكانت فيها دورة ثقافية، من دورات (شركة إسلام)، ألقيت فيها دروس عامة في القرآن والحديث والسياسة والإدارة، وكان احتفال توزيع الشهادات على الناجحين في هذه الدروس فألقيت خطب تدعو إلى الدين والعلم، والبعد عن العصبيات، وأن يؤيد شباب الحزب (أي شركة إسلام) الأحزاب الإسلامية كلها، وألا يتعصبوا لحزبهم وحده، لأن العصبية بألوانها كلها ليست من الإسلام.

* * *

ووصلنا سورابايا العشية، وبدأت سلسلة التعذيب، أعني البرنامج الرسمي الذي وضعوه لرحلتنا، جعلوا وقتنا كله أوزاعاً بين الحفلات والاجتماعات والزيارات والمحاضرات والمؤتمرات الصحفية، تجتمع بالناس وأنت تشتهي العزلة والإنفراد، وتدعى إلى الكلام وأنت تؤثر الصمت، وتبسم لأناس لم تعرفهم عمرك كله ولم ترهم. وتأكل وأنت شبعان، وتسهر وأنت نعسان، وأشياء من هذه البابة[1]، فتصوروا ماذا كانت حالي، وأنا الذي عاش عمره بعيداً عن هذه (الاجتماعيات) كلها، قد حل عن نفسه قيودها، وأسقط عنها تكاليفها، فلا يستقبل إلا من يسره استقباله، ولا يزور إلا من يحب زيارته، ولا يجيب دعوة رسمية أبداً ولا يكاد يدعو إلى مثلها أحداً، ولا يأكل إلا إذا جاع، ولا ينتظر بالطعام أحداً وهو جوعان.

هذا ما عشت عليه، فحفظت به وقتي، وأرحت نفسي، وأنا رجل

---

(١) من هذه البابة أي من هذا القبيل.

أعرف ربع أهل بلدي، ويعرفني نصفهم، فلو أني ألزمت نفسي تهنئة كل مسرور، وتعزية كل مصاب، واستقبال كل قادم، ووداع كل مسافر، والتهنئة بكل عيد، لما بقي لي وقت أكتب فيه، ولما كان لي شيء من هذه الكتب وهذه الخطب وهذه المحاضرات.

وصار لي ذلك طبعاً لا تطبعاً، فلما كانت هذه الرحلة، واضطررت إلى القيد بعد الإنطلاق، وصرت أقاد بعد أن كنت أنا الذي يقود، أحسست أني في سجن.

وصلنا سورابايا العشية، وكانت قد مرت بي ليلتان لم أنم فيهما كليهما خمس ساعات، وكان جسدي محطماً من هز القطار، وأثقال الغبار، وأعصابي مرهقة من طول السفار، فلم أكن أشتهي إلا أن أستحم ثم أترك لأنام.

ولكن أين مني المنام؟

لقد كان علينا أن نحضر حفلة عشاء بعد ساعة واحدة، فمشينا إليها، وتكلمت فيها، ثم قمت لأجيب على أسئلة السائلين، ثم شيعنا قوم منهم إلى الفندق، تكرمة لنا، وعناية بنا، فما انصرفوا عنا حتى كان قد مضى أكثر الليل . . .

وأعيدت القصة نفسها بفصولها الليلة التي بعدها، وخرجت من غرفتي، فوقفت في حديقة الفندق، أنتظر الشيخ، وكانت السيارة ومن فيها بانتظارنا، فوجدت في طرف الحديقة، في بقعة مظلمة منها لا ترى، كرسياً مستطيلاً من الخيزران، فاستلقيت عليه، فإذا هو قد جعل على استواء ظهر الإنسان، كأنما قد فصل له قالب بالجبس على مقداره، ثم صب فيه هذا الكرسي، فله عند العنق مثل الوسادة، وله بروز عند الصلب، وانحناء عند العجيزة، يستريح عليه كل عضو من الأعضاء، فتمنيت أن أنام عليه ساعتين أدفع ثمنهما مئتين، وكدت أغفي من اللحظة التي لامس فيها رأسي الكرسي، وقلت، يفتشون عني فلا يرونني فيمضون ويدعوني، ثم قلت لنفسي: لا يا ولد، أصبر وقم، فإنك ما جئت من الشام إلى آخر جاوة، لتنام بل لتعمل.

وقمت كالمحكوم يساق إلى التنفيذ.

* * *

وطالت الأسئلة تلك الليلة، ومضى هزيع من الليل، ولم يعد في طاقتي القيام على قدمي، فاعتذرت وذهبت، وإذا هم يعتبون ويتألمون.

والقوم في أندونيسيا أرق الناس نفساً، وأرهفهم حساً، لا يحتملون شدة، ولا عنفاً، ولقد لمت السائق مرة على ذنب أذنبه، ورفعت صوتي عليه، فبقي أياماً متألماً.

وما سمعت في أندونيسيا ضجة، فالشوارع تكاد تكون هادئة، والكلام يكاد يكون همساً، وما رأيت فيها (خناقة)، و (الخناقات) في الشوارع مقياس أعصاب الأمم.

ففي بغداد، تبدأ الخناقة، فيكون للسب عشرون ثانية فقط، ثم يكون سل الخناجر.

وفي دمشق، يستغرق السب دقيقتين، ثم يكون اللطم واللكم.

وفي القاهرة، يستمر السب والتهديد نصف ساعة، ثم لا يكون شيء.

وفي أندونيسيا لا يكون سب أبداً، لأن لغتهم (كما أظن) خالية من ألفاظ السباب!.

* * *

وجلنا في سورابايا، ورأينا كل شيء فيها، فإذا آثار التخريب في كل مكان[1]، لا سيما في العمارات الكبيرة التي خربها الوطنيون بأيديهم لئلا يتخذها المستعمرون معاقل لهم في هجومهم.

ولقد كانت سورابايا إلى ما قبل الإستقلال، أكبر مدن جاوة، فلما صارت جاكرتا (بتافيا) العاصمة، وثبت فجأة حتى صارت من مدن العالم الكبار.

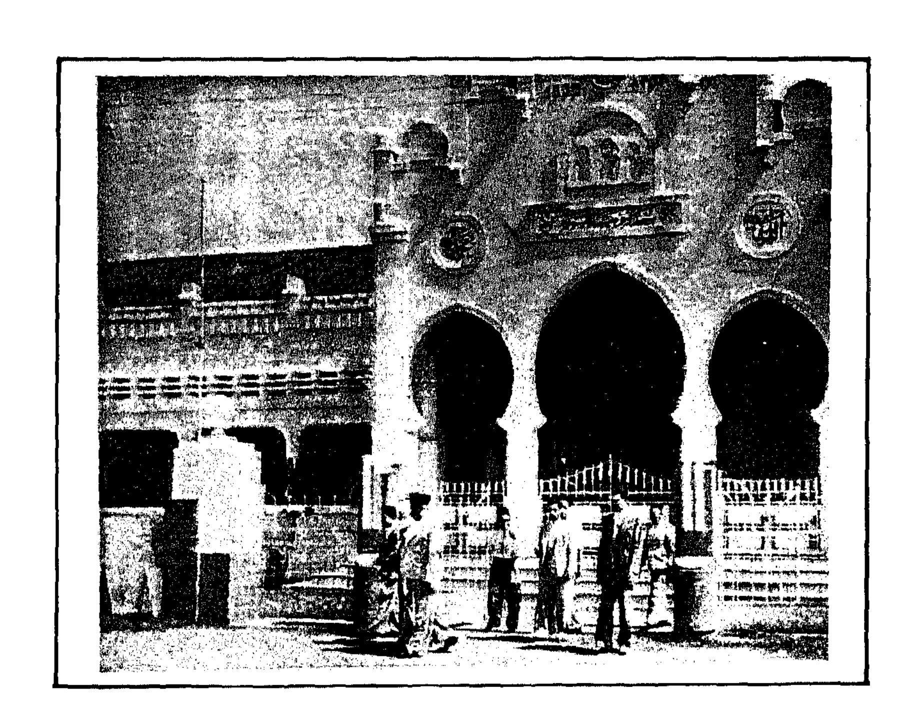
والعرب فيها كثيرون، ولهم المدارس الكثيرة.

---

(١) كان هذا سنة ١٩٥٤.

وفيها مساجد واسعة، عامرة بالمصلين، ولقد بلغت المساجد في أندونيسيا قبل زيارتي إياها بسنتين، بالإحصاء الرسمي مئة وخمسة وسبعين ألفاً ومئة وستة عشر مسجداً.

وبلغت المعاهد الدينية أربعة عشر ألفاً وستمئة وستة وتسعين معهدا.



باب مسجد سورابايا

هذا النداء

كانت أيامنا في (سورابايا) حركة دائمة، فكنا نحس كأننا في قطار سريع لا يقف ولا يتمهل، ولقد أخذونا يوماً نرى أطراف البلد، وداروا بنا حتى دار بي رأسي، فتركتهم مرة يصعدون درباً صخرياً في جبل يزورون فيه مسجداً قديماً، وتسللت إلى رحبة مكشوفة على جنب الطريق، وكان الليل قد غطى على تلك المشاهد الفواتن، فلم أكن أرى إلا ذرى الأشجار من تحتي، تبدو من خلالها سطوح القرية، النائمة في حضن الجبل، ووجدت حجارة مصفوفة فقعدت على واحد منها، وكنا في أعقاب العيد، وكانت الرحلة قد امتدت بي شهوراً طوالاً، فذكرت بلدي وبناتي، وكان بيني وبين بناتي وبلدي ربع محيط الأرض، فاستشعرت الوحشة والضيق، وتنبهت فإذا هذه الحجارة التي قعدت على أحدها قبور، وإذا أنا في مقبرة القرية، فازددت وحشة وضيقاً، وثقلت عليّ هذه الغربة، وهذه الوحدة، وأحسست كأن قلبي يذوب من الشوق حتى ليقطر دموعاً من عيني، وإني لفي هذه الغمرة، وإذا بي أسمع الآذان، آذاناً عربياً فصيح اللهجة، عذب الصوت، كأنه آذان دمشق، فشعرت به (أقسم بالله) يسري في نفسي سريان البرء في الأجساد، والطرب في القلوب، فيزيل الوحشة، ويذهب الضيق.

فجعلت أفكر في هذا النداء، كيف خرج من قلب واد بعيد بعيد، في زمن بعيد بعيد، فما زال يطوي الأرض ويخوض البحار، ويخرق الجبال، حتى وصل من بطن مكة إلى شرق جاوة، وما زال يطوي الزمان، ويجزع القرون، حتى جاء من القرن الأول للهجرة، إلى القرن الرابع عشر، ولا يزال غضاً طرياً كأنما نادى به بلال يوم أمس.

لا يقف[1] مسيرة حدٌّ على الأرض، ولا بعدٌ في الزمان، ولا تنال منه الشقة ولا يخف به النسيان، فهو أبداً في كل مكان وفي كل زمان لا يكون المسلم غريباً في بلد يسمع فيه هذا النداء:

الله أكبر. الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله. هذا بلدي، وكل بلد يسمع فيه الآذان بلد كل مسلم.

(١) يقف يتعدى بنفسه ولا يقال أوقفه.

كاراسيك

هي قرية أخذونا إليها يسمونها (كراسيك)، انبثق منها نور الإسلام على البلاد، وقالوا:

ـ قالوا: إن الاسم محرف عن العربية، وان أصله (قر الشيخ).

قلت: لم لا يكون أصله (مقر الشيخ).

قالوا: هذا أولى.

وهي قديمة، قائمة على تل عال، قرب سورابايا، في أقصى الشرق من جاوا، والتل مغطى كله بدوح الغاب، وما في جاوا أرض تخلو من النبات، إلا أن تكون قد قطعت أشجارها لتتخذ مزارع للرز.

ولقد شعرت لما وصلت إليها، بالأنس والاطمئنان، وأحسست راحة القلب، حتى لكأني دخلت بلدي، وأنست بأهلي.

وكان أول ما زرناه منها المسجد وهو نظيف جداً، هادىء، فيه طبلان عليهما تاريخ صنعهما في سنة ١٦٤٧ م.

ومن غريب البدع في شرق جاوة، أن في كل مسجد طبلاً يقرعونه بعد الأذان، يدعون الناس به إلى الصلاة، على نحو ما ينادون على باب المساجد في دمشق أحياناً: الصلاة يا مصلون.

وهذا هو التثويب، ولم يكن في صدر الإسلام.

وهذان الطبلان كالبرميلين العظيمين، منتفخي الوسط، قطر كل منهما من وجهيه متر ونصف المتر، وطوله متران ونصف المتر.

ومنبر المسجد على هيئة كرسي مزخرف قديم مصنوع من خشب الساج.

والمسجد بناه سنة ١٦١٩م بوسبو نوغورو[1] أي (زهر الدولة)، واحتشد أهل القرية في المسجد لرؤيتنا، واصطف الجند وتلاميذ المدارس، وساروا أمامنا ووراءنا، وتركنا السيارات ومشينا معهم في موكب رسمي، ولحقتنا جموع الأهلين، فسلكنا طرقاً كطرق القرى الشامية حتى وصلنا إلى رحبة مسورة، وفيها أشجار عالية، وفي وسطها درابزين من حديد، وسطها ثلاثة قبور من الحجر ليس عليه زخرف ولا نقش، أحدهما قبر الشيخ إبراهيم المتوفى سنة ١٤١٩م وهو الذي تشرف بحمل الإسلام إلى هذه البقاع.

وسألت عن تاريخه وترجمته فلم أجد علم ذلك عند أحد، وغاية ما قالوه إنه مغربي الأصل، وقد أخبرت بذلك السيد مكي الكتاني لما رجعت إلى دمشق، فقال بأن هذا الشيخ من آل الكتاني[2]، وأن عنده أدلة يثبت بها ذلك وأنه سيأتيني بها، ولم يفعل، ولعله (نسي) هذه الأدلة أو نسي أنه وعدني بها.

ثمّ ذهبنا إلى مدفن السلطان سونان كيري (عين اليقين)، وهو من خشب مزخرف، عليه نقش دقيق بارع.

وهذا السلطان كان لقيطاً، وجدته امرأة اسمها (ونصو)، غنية تشتغل بالتجارة ولها سفن، وسلمته إلى الشيخ إبراهيم فعلمه ورباه، وجعله خليفته، فنبغ وكتب الله نشر الإسلام في شرقي جاوه على يديه، وكرمت المرأة التي وجدته ولقبت بـ (السيدة الواجدة).

وأذن الظهر، فصلينا في مسجد بجوار المدفن، وصلى معنا قائد المنطقة والجند، والتلاميذ والناس، ثم دعونا إلى غرفة في المسجد، فشربنا فيها الشاي وتحدثنا، وفهمنا أن لكل فرقة من الجند، ومن الشرطة، إمام، وواعظ، وهم يقيمون الصلاة، ويحضرون جميعاً مجالس الوعظ.

---

(١) ناغارا أو نوغورو معناها (دولة).

(٢) وقد قرأت مثل ذلك للإستاذ المنتصر في مقال قديم في الرسالة وقال إنه سمعه من الناس. والله أعلم بالحقيقة.

نزهة في أطراف سورابايا

إذا عددت الأيام التي مرت علي صفواً بلا كدر، وكانت كلها متعة بلا تنغيص، والتي أضمّ على ذكراها جوانحي، أشفق عليها أن تصيبها لفحة من برد النسيان، أخرجها كلما ضاق بي (الحاضر) وابتغيت السعة في عالم الذكريات، أترشفها متعللاً بها، خافياً النفاد عليها ـ كان من أول ما أعد منها، يوم (نزهة سورابايا).

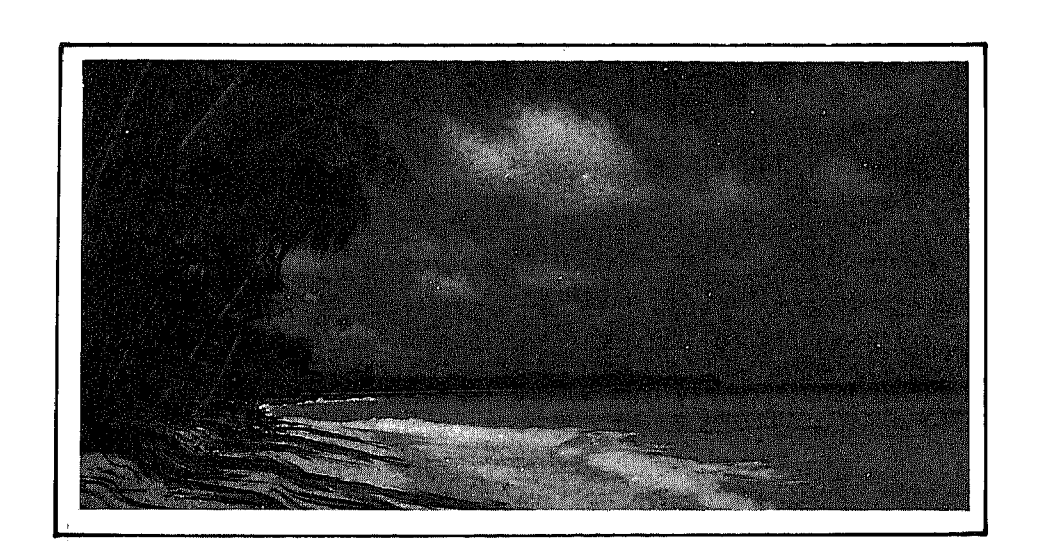
وهي (نزهة) أعدتها لنا، وأكرمتنا بها، الحكومة الأندونيسية.

* * *

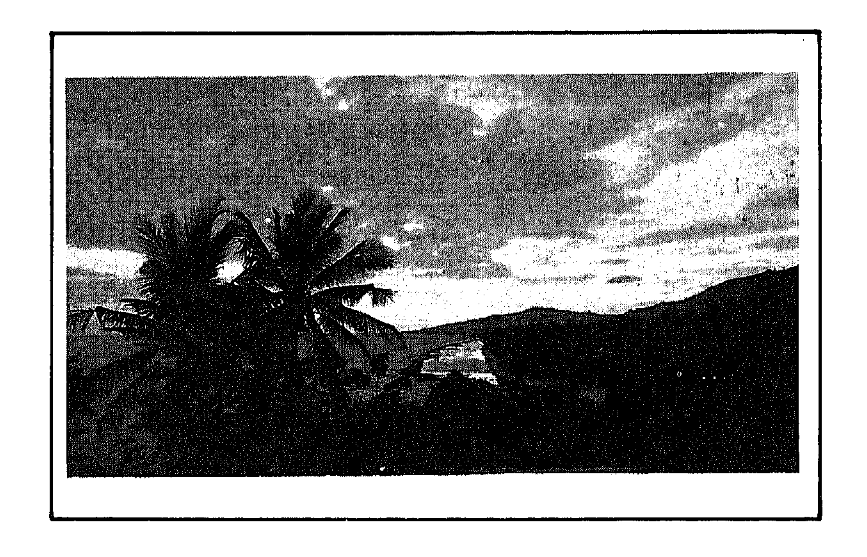
خرجنا من سورابايا، فما جاوزنا البيوت، حتى رأينا على جوانب الطريق حقولاً مغرقة بالمياه، ممتدة على سيف البحر، مقطعة قطعاً، محدودة بسدود من التراب على هيئة الجدران، فعجبت منها وسألت عنها.

فقالوا إنها أحواض لتفريخ الأسماك.

وسلكنا بعدها طريق الجبال، وأرقلنا فيها، تدرج بنا السيارات في طريق تحف به من جانبيه الغابات، وأشجارها طبقات، وعلى الطريق سقف من أغصانها المشتبكات، يمنع الشمس أن تصل إلينا، إلا نظرات تختلسها اختلاساً من فرج الأغصان، وتسمح للنسيم يمسح وجوهنا بيد لينة معطرة، كأنها مسّ يد الحبيب، عند غيبة الرقيب.



سواحل سورابايا



وأخذنا نصعد، والطريق يستدير ويلتوي، والقرى المنثورة على السفوح تظهر ثم تختفي، كصبية تلاعب فتاها، يلحقها فتزوغ منه، ويهم أن يدعها فتتراءى له، فهي تطمعه، ولا تطعمه، وتسخطه ولا تقنطه، ثم غاب عنا الجبل الأعظم، فسرنا على حافة وادٍ ضيق، يدور بأكمة مخضرة محمرة، كأنها لوحة في بهو، وأين لوحات الأبهاء، مما صوره بارىء الأرض والسماء؟ أين الصورة الميتة من الحقيقة الحية؟.

ولما وصلنا إلى قمة الأكمة، وجدنا قرية صغيرة، ذكرتني بأعشاش الغرام التي نقرأ وصفها في القصص، وما عرفناها في الحياة! بيوت ملونة أنيقة، حولها إطار من غرائب الأوراد والأزهار، تتخللها مسارب كأنها مدارج الأحلام في أعلاها عين ثرّة، سميت القرية بها، فكان اسمها بلسانهم (ترى نيس)[1]، تتحدّر المياه من كل جانب من جوانبها، شلالات صغيرة فتانة، ثم تتجمع في ساقية تفضي إلى (مسبح).

وإذا كانت سويسرة تنفرد ببحيراتها المتربعة في الأعالي، المشرفة على الدنيا من شرف الجبال، فإن في أندونيسيا ما ليس مثله في لبنان، ولا فيما عرفت من البلدان، هو المسابح الأنيقة القائمة في رؤوس الجبال، تنصب فيها المياه من الينابيع نظيفة ما وسختها أيدي الناس، جارية لا تؤثر فيها أجساد السابحين، تطل على مناظر لها من الجمال ما لا يصل إليه الخيال، والماء ينزل فيها صناعة بارعة، يتشكل أشكالاً، ويتفجر نوافير. . .

وفارقناها وتأبى قلوبنا لها فراقاً، وسرنا، فمررنا على بساتين مسورة فيها أشجار عالية شديدة الخضرة، فسألنا: ما هذه؟

قالوا: مقابر، وهذه الأشجار هي (الكمبوديا)، ولا تزرع إلى في المقابر.

* * *

وكانت المشاهد تمر بنا متعاقبة إذ نمر بها مسرعين، فننتقل من نشوة

---

(١) أي العين الدفاقة.

إلى نشوة، ومن متعة إلى متعة، فلا أدري أيها أجمل في العين، وأحلى في القلب؟ ولكل مشهد (قصة) تدور بها الألسنة، ويتناقلها الرواة، لو عالجها قلم الأديب لجعل من كل قصة منها قطعة من روائع الآثار.

هذا جبل عال، ذاهب في الجو كأنه البرج المشيد، قالوا إن اسمه جبل الغرام (إنجاسمارا)، وقصته أن زوجة الملك اعتكفت فيه، لما ذهب زوجها إلى القتال، واعتزلت الناس، وامتنعت من شوقها إليه من الطعام والشراب، وظلت تناجيه على البعد، وتعانق خياله، حتى ماتت...

ومررنا بتل عظيم، قائم وحده كأنه الهرم، يسمونه لاوا (ومعناها الباب) وله قصة... ومررنا بعده ببلدة قديمة، كانت عاصمة جاوة الإسلامية يوماً، اسمها الأسد الشجاع (سينكو[1] ساري) ولها قصة...

وكنا نسير بين هضاب متجاورات، كلها مكسوّة بالأشجار المزهرة، والبيوت قد تناثرت عليها، بسقوفها المائلة الملونة، كأنها بيوت الأطفال التي تكون عند بياع اللعب... والأنهار تجري خلالها صغيرة وكبيرة، مستقيمة وملتوية، رائقة وعكرة، هادئة وهادرة، قد اختلفت طبائعها وغاياتها، فكأنها أصناف البشر إذ يمشون على درب الحياة.

ولكل وادٍ في العين منظر، ولكل بقعة في النفس أثر.

وكنت كالطفل المحروم، دخل مخزن اللعب، كلما رأى لعبة ظنها تحفة التحف، فقال: هذه التي أريد، فإن رأى غيرها وجدها أحلى منها، فعدل إليها عنها، كنت كلما أبصرت مشهداً، قلت: قف بي هنا، إن هذا هو أجمل المشاهد، ثم أجوز إلى غيره فأنسى لروعته الأول، وهم يقولون لنا:

هذا كله ليس بشيء فأقول: وما هو الشيء فيقولون: أمامكم.

ورأينا النساء في كل مكان من جاوة (إلا المدن الكبار) يحجبن الرأس

---

(١) سينكو أو سينكا الأسد، وتكتب بالواو حيناً وبالألف حيناً لأن لفظها وسط بينهما، ومنه سينكابورا (سنغافورة) أي مرفأ الأسد، ولا ينطق بها كافا، بل شيء بين الكاف والياء.

بخمار أبيض أو ملون فلا يظهرن إلا ما أذن الله بإظهاره[1]: الوجه والكفين.

وانحدرنا كما صعدنا، وهذه سنة الحياة، فلا علا عال إلا هبط، ولا طار طائر إلا حطّ، وسلكنا على سهل بين سلسلتين من الجبال: السلسلة التي كنا فيها، والأخرى التي نراها من أمامنا، في سهل كأنه سهل البقاع لولا أنه أوسع سعة، وأجمل جمالاً.

وجزنا ببلدة كبيرة، اسمها مدينة باتو (أي الحجر) جالسة على ذيل الجبل الذي نزلنا منه، ممتدة شوارعها في السفح، كأنها فتاة اقتعدت حافة نهر ودلت فيه ساقيها.

وفي وسط السهل مدينة (مالان) وهي تعدل في سعتها وعدد سكانها دمشق وحولها البساتين فيها الأشجار المثمرة، وفيها الرمان الكثير بزهره الناري الأحمر (الجلنّار)، وحولها سور من الجبال الخضراء، يطيف بها من بعيد، وهي وسطه كأنها بنت في حجر أمها.

ورأينا بعدها صونغوريتي (النبع الحار)، وهي عيون من المياه الحارة المعدنية، تشبه في وضعها وفي البناء القائم عليها، عين حلوان في ضاحية القاهرة.

وكنا نمشي في يوم صحو وشمس، فما هي إلا لحظات حتى أربدت السماء بالغيوم، وتفتحت أبواب السماء، بمطر لا نعرفه نحن في بلادنا، ولا نستطيع أن نتصور مبلغه، مطر البلاد الإستوائية الذي ينصب كأفواه القرب حقيقة لا مجازاً فرأينا لما نزل المطر عجباً، أسرع كل واحد من المارة، إلى أقرب شجرة موز، وأشجار الموز تملأ أطراف الغابات الماثلة على الجانبين فتخير له ورقة بسعة المظلة فنشرها على رأسه ومشى.

---

(١) ما لم تكن فتنة كذلك الحكم في المذاهب الأربعة حتى مذهب أحمد راجع المغني والكافي والانصاف وغيرها.

وللموز في هـذه البلاد نحو من ثلاثين نوعاً، منه ما يطبخ طبخاً، وهذا الورق لواحد من أنواعه التي لا نعرفها.

* * *

أما (الشيء) الذي كانت فيه النزهة، وكانت إليه الرحلة، فهو قهوة أنيقة، أمامها مسبح فخم، تنظر إليه من تحت فلا ترى منه شيئاً، لا ترى أمامك إلا جبلاً أخضر مستديـراً، فإذا ركبت الـطريق الذي يصعـد إليه، وجدت المسبح في حضنه، قد عطف عليه الجبل وأحاطه بيديه، فإذا احتواك ونظرت وراءك أبصرت مدرجاً فيه من الشجر المزهر، وفيه من غرائب الأوراد، وعجائب الألوان، مالا يحيط بوصفه قلم ولا لسان، وإذا نظرت أمامـك، رأيت من فرجة الجبل، السهل كله، والجبال حوله، والمدن فيه، كأنك ترى الـدنيا، من كـوة الأحلام، والمـاء يتجمع من عشرات العيـون، ينبـع من صخرات الجبل، ثم يسـير في سواق صغـيرة هدارة، تلف وتـدور وتتكسر أمواهها في شعاع الشمس، ثم تجتمع في ساقية كبيرة، فتمر من (شاذروان) ينصب من علو عشرين متراً، في البركة التي أعدت مسبحاً، وأنت أمامها مستقبلها، والشمس تسطع عليها، فتصور هذا المنظر، ثم يمر الماء إلى حيث يسبحون، وقد درجت البركة، وأجيد بناؤها، وزخرفت جدرانها، ووضعت لها السلاليم والمعارج، والمقاعد مصفوفة على جانبيها من فوقها...

لا، لا أستطيع أن أصف للقراء ما رأيت فيها وما أحسست، لأن ذلك شيء يجل عن الوصف.

فتخيروا يوماً من أيام العطلة إليه لتروه، فإنه لا يبعد عنكم إلا إثنى عشر ألف كيل أي (١٢) مليون متر فقط لا غيرا.

نثار من المشاهدات والأخبار



الزواج في جاوه الوسطى:

للزواج في جاوه الوسطى عادات عجيبة، منها أن على المخطوبة أن تلبث في البيت لا تخرج منه أربعين يوماً، قبل العرس، فإذا انقضت اتخذوا أمام البيت سرادقات، زينوها بأوراق النارجبيل (جوز الهند) وسنابل الرز، وكانت الوليمة الأولى، فاجتمع الرجال في السرادقات، والنساء في البيت، ونصبت أعواد قصب السكر، وأغصان الموز بورقها وثمرها، ولا يصلح لذلك من أنواعه الكثيرة إلا النوع الذي يسمونه (موز الملوك). يضعون ذلك تفاؤلاً بالسعادة والنسل، يأملون أن تكون حياة الزوجين حلوة كالسكر مثمرة كالموز، ثم تخرج المخطوبة بعد هذا الاعتكاف، فتبدأ بالمقبرة فتزور أمواتها ومعها الزهر والبخور.

ثم ترجع فتقيم في الدار لتتعلم الطبخ وتدبير المنزل.

وقبل العرس بخمسة أيام تقام حفلة يسمونها (سلامتان) أي حفلة السلام، وهي تشبه حفلة التعارف في الشام، التي تكون لتجمع أهل الزوجين.

ثم يكون أسبوع السوق ويسمونه باساران (من بازار أي السوق في الفارسية).

ولا يسمح للخاطبين أن يتراءيا أو يجتمعا في هذه الفترة.

وتمنع المخطوبة من أكل الملح أياماً قبل العرس، لئلا تعرق (كما زعموا) فيكون لبدنها ريح تنفر الزوج منها.

وفي صبيحة يوم العرس تجتمع نساء الأسرة، ثم تجيء أكبرهن فتغسل

العروس بماء فيه الطيوب والعطور، في حمام يزيّن بأوراق النارجبيل وأعواد الموز وقصب السكر، ثم تزيّن العروس ويدهن وجهها باللون الأصفر.

ويحرق البخور في غرفة العروس من الصباح إلى المساء يوماً أو أكثر قبل يوم العرس، وتلبس في المساء ثوباً فاتح اللون وتسمى (الحورية) ولا يجوز لها اتخاذ الحلي والجواهر.

فإذا جاء يوم العرس قصت غرة العروس وسرّح شعرها إلى الوراء، وعقدت عليه من القفا عقدة خاصة فيها الحلي وفيها زهر الفل، ويصبغ وجهها بالأصباغ الملونة حتى لا يعرف ما كان شكله ولا يجوز لها النظر في المرآة وإن كان في الغرفة زجاج غطوه أو صبغوه حتى لا تبصر فيه وجهها فتفزع من نفسها.

ثم يأتي موكب العريس[1] ولا يجوز أن يكون أبوه في الموكب ويعقد المأذون العقد الشرعي ويدعو للعروسين بالتوفيق.

ويكون قد سد مدخل البيت بخيط من الصوف، فيقصه الزوج، ويدخل فيلقى العروس، ويرمي كل واحد منهما الآخر بورقة تتبول[2]، فإذا سبقها بالرمي كان ذلك إمارة على أنه سيحكمها، وإن سبقت هي بالرمي، كانت هي التي تحكمه وهو الذي ينزل على إرادتها.

ثم يدوس بيضة بقدمه فيكسرها، فتأتي العروس وتغسل قدمه حتى تنظفها رمزاً إلى أنها ستخدمه وتطيعه على كل حال[3].

فما رأي الأوانس والعرائس في أن نقتبس هذه العادة، وتهيأ البيضة والصابون مع ثوب العرس؟!.

---

(١) يقال للرجل عروس وللمرأة عروس وعريس من العامي غير الفصيح ولكني أستعملها اضطراراً.

(٢) سيأتي خبر التبنول في كتابي عن الهند.

(٣) وهم يكتفون الآن بمس البيضة برجله عن كسرها وصبها بعض الماء على قدمه عن غسلها، كانت حقيقة فصارت رمزاً، ثم يزول الرمز والحقيقة، ثم تجيء الأيام، فتكسر هي البيضة، ويغسل هو رجلها!.

ثم يقعد والد العروس فيقعدهما على ركبتيه، وتسأله أم الزوج: أيهما أثقل؟ فيجيب بأنهما متساويان.

إشارة إلى أنهما عنده بمنزلة واحدة.

ثم يقعدان على ركبتي والد الزوج، وتسأله أم العروس. . .

ومن النعم على الآباء في أندونيسيا، أن أهلها خفاف الوزن، ولا أدري كيف نتبع هذه العادة لو كان عندهم، أزواج وعرائس من الوزن الثقيل. . . وزن ثمانين أو تسعين؟.

دار الإســلام:

لما وصل بنا القطار (في رحلتنا من جاكـرتا إلى جـوكجا) إلى أعـالي الجبال، وكنا نسير في شبه نفق يمر بين أشجار الغابات الماثلة من الجهتين، كأننا نمشي فيهما بين جبلين، رأينا الجند قد احتلوا عربـات القطار كلهـا، ووضعوا فيها الرشاشات ووجهوها إلى النوافذ، فسألت، فإذا نحن في منطقة (دار الإسلام).

ودار الإسلام منطقة فيها حكومة (وسط حكومة) وعاصمتها بلدة اسمها المدينة المنورة، وهي تحكم بالشرع الإسلامي، وتقيم حـدود الله، ولها جيش فيه عشرة آلاف جندي، وهي تحكم منطقة جبلية واسعة.

وقصة هذه الحكومة، أنه لما ثار الشيوعيون في (ماريون) سنة ١٩٤٨ وأضعفوا الجمهورية، رجع الهولنديون فاغتنموا هذه الفرصة، وهجموا على جوكجا، واعتقلوا سوكارنو وحتا سالم (رحمه الله) ونفوهم وعادوا إلى احتلال البلاد، فتألفت حكومة وطنية في سومطرا وأثاروهـا حربـاً على الهـولانديـين سرعان ما امتدت نيرانها إلى كـل مكان.

وقرروا مواصلة الجهـاد، واتباع أسلوب حـرب العصابـات، وسلموا قيادتها إلى كارتو سويريو، وعاهدوه على أن تقام بعد الظفر حكومة إسلامية تحكم بما أنزل الله، وتحل الحلال، وتحرم الحرام، وتقيم الحدود وتنفذ أحكام الإسلام كلها.

وأبلى كارتو سويريو في الجهاد أعظم البلاء، وكان له الأثر الكبير في طرد المستعمرين، وتحقيق الاستقلال.

ولما استقلت البلاد لم يفوا بما كانوا وعدوه، فاعتزل بجنوده ومن تبعه، واعتصم في هذه المنطقة الجبلية، وأقام فيها الحكومة الإسلامية ووضع لها دستوراً مستمداً من أحكام الشرع، وسمى عاصمتها (المدينة المنورة).

* * *

هذا ما كان، أيام زيارتي لأندونيسيا سنة ١٩٥٤، ولست أدري ما حالها اليوم، لأن القوم لا يتحدثون عنها، ولا يحبون الكلام فيها، والأخبار العامة لا تشير إليها، وأنا أظنها باقية كما عهدتها.

جزيرة الأحلام:

في أندونيسيا ثلاثة آلاف جزيرة، منها ما هو من سعته كالقارة، ومنها ما هو من ضيقه كالسفينة، لا يزيد على صخرة بادية في وسط الماء، ولكن وحيثما سرت، ورأوك غريباً، دعوك إلى زيارة (بالي).

ليس فيها كلها ما هو أشهر من (بالي).

وهي جزيرة صغيرة في شرقي جاوه، ولقد بلغنا سورابايا، وصرنا عندها، لم يبق بيننا وبينها إلا رمية سهم!.

فسألنا عنها ما خبرها؟

وإذا كل ما فيها، وما يدعو الناس إليها، ويرغب السياح فيها نساؤها فهن مجوسيات، جميلات فاتنات، لا يعرفن من الثياب إلا ما يستر السوأة الكبرى، وإن هن ابتغين الستر لبسن ما يغطي النصف الأدنى، ويترك النصف الأعلى مكشوفاً، الصدور والظهور، والنهود الراسخات وهنّ على ذلك يتقنّ أنواعاً من الرقص، ويعرفن فنوناً من اللهو، فقلت للشيخ: هل نذهب لنرى؟

قال: نرى ماذا (أفندي)؟

قلت: أجساماً جميلة، وصدوراً ونهوداً.

قال: أعوذ بالله.

وقلت: أعوذ بالله، ولم نذهب.

الجرائد والمجلات الإسلامية:

من الجرائد اليومية الإسلامية:

أبادي (الأبد) وهي تنطق بلسان «ماشومي».

فمنداكن (النظرة) وهي تنطق بلسان «شركة إسلام».

دوتا مشاركه (رسول المجتمع) وهي تنطق بلسان «نهضة العلماء».

ومن مجلاتها الإسلامية:

مجلة الحكمة في جاكرتا يديرها محمد ناصر رئيس ماشومي.

مجلة الإصلاح في جاكرتا يديرها محمد صالح السعيدي سكرتير مجلس ماشومي.

مجلة نهضة الإسلام يديرها محمد عيسى الأنصاري عضو البرلمان ورئيس ماشومي في ولاية جاوا الغربية.

مجلة صوت المحمدية في جوكجا، تديرها الجمعية المحمدية.

مجلة الجهاد في جاكرتا.

صدى المسلمين في جاكرتا يديرها حزب نهضة العلماء.

فرتي بلتين في جاكرتا (بلتين مختصر حزب التربية وفرتي نشرة) يديرها حزب التربية الإسلامية.

صوت ماشومي وهي تنطق بلسان ماشومي.

طناجـر وأنابيـــب:

مررت في دار الدكتور سوبارجو بغرفة مفتوحة الباب رأيتها ممتلئة بأوان

نحاسية كثيرة، قدور (طناجر) وصحون، معها أشياء كأنها قطع من أنابيب المياه ولكنها ضخمة مثبتة على غطاء صندوق من الخشب، فجعلت أختلس النظر إليها متعجباً منها، واستحييت أن أسأل عنها.

ففهم الدكتور عني، فقال لي:

إنها آلات موسيقية.

وظننته يمزح، ولكني فهمت بعد، أنها آلات موسيقية حقاً، إذا أرادوا التطريب بها، صفوّها على الأرض، وقعد على كل واحدة منها عازف... ثم (ضربوا) بها... فملأت بحجمها نصف المسرح، وبصوتها نصف البلد، وأنا لم أسمعها بحمد الله لأصفها، وما أحسبني أستطيع (لو دعيت إلى سماعها) أن أسمعها كلها، لأن غشاء أذني سيتمزق من (مطلعها) فلا أقدر أن أسمع (ختامها) وما أدري ماذا يطربهم منها؟

ولله في خلقه شؤون!

المانغا والتانجا:

المانغا (المانجو) التي نعرفها في مصر، منها في أندونيسيا أكثر من عشرين نوعاً، ولكنا وجدنا أو خيل إلينا، أن المانغا المصرية ألذ منها كلها طعماً، وأطيب نكهة.

أما التانكا فثمر عجيب حلو الطعم، قالوا، إن الحبة الواحدة من ثمره يزيد وزنها عن وزن أربع من أكبر ما نعرف من البطيخ، بل ربما بلغ وزن الواحدة خمسة وعشرين كيلاً...

وفي أندونيسيا نبتة يسمونها (أوبيكا) عرقها كالبطيخ، وثمرتها كالبطاطا، تزرع عند جدران البيوت وفي حدائق المنازل، وربما نبتت من غير زرع زارع، وهي نبتة مباركة، ثمرها فاكهة وإدام ونقل، ويؤكل نيئاً فيكون فاكهة، ويطبخ فيكون إداماً ويجفف فيكون نقلاً، وعيدانه تضفر وتمد على سطوح المنازل، وتتخذ علفاً للحيوان.

مع الأموات في أندونيسيا:

لا أريد أن نموت مع الأموات، فإننا نسأل الله للقراء طول العمر، وحسن العمل، ولكن نكون معهم ساعة، نرى ما يصنع الأحياء في تشييع الأموات.

وفي كل بلد إسلامي (والشكوى لله) ألوان من البدع وأشكال، في الجنائز وفي الأفراح، وفي المساجد وفي الأسواق، مع أن الخير لهذه الأمة كل الخير، في اتباع سلفها، والاقتداء بنبيها ﷺ وأين اليوم المتبعون المقتدون؟

إذا مات الميت في أندونيسيا وجهوه نحو القبلة، ومكة منهم إلى جهة الشمال الغربي، وهذا حسن، وأوقدوا المباخر إلى جواره، وما لهذا في الشريعة أصل، ثم دقوا الصاجات إعلاماً بوفاته، أو كتبوا بذلك إلى الأصدقاء والإخوان، ولبسوا ثياب الحداد، وما كان يصنع السلف شيئاً من ذلك كله.

وتبعث كل أسرة في القرية أو المحلة، بما تقدر عليه من مال أو رز أو قطن، إلى بيت الميت، وهذا شيء حسن وله في السنة أصل.

ثم يغسلون الميت، فإن كان ذكراً وضعه أبناؤه على أحضانهم عند الغسل، وإن كان أنثى وضعت في حجور البنات، فإن لم يكن له أحد وسَّدوه على أغصان الموز، وهذا كله مخالف للسنة.

ثم لفوه بقطن أبيض وأودعوه النعش وصلوا عليه، وحمل على الأكتاف، حتى إذا بلغ باب البيت خارجاً منه، جاؤوا بثلاثة أطفال فمروا من تحت النعش ثلاث مرات!!.

ثم تسير الجنازة، وربما غطوا رأس الميت بمظلة يحملها أحد المشيعين وذلك أعجب من مرور الأطفال من تحت النعش...

صناعة الفضة:

في العراق صناعة النقش على الفضة، لا يعرفها في الدنيا إلا قوم من الصابئة (الصبّة) يتوارثون سرها، فتراهم في سوقهم عند الجسر، بلحاهم

الطويلة التي لا يجيزون حلقها، عاكفين عليها، تأتي أحدهم فتكلفه أن يكتب لك اسمك أو ما شئت على الخاتم أو الحلية الفضية، وتتركه ساعة وتعود فتأخذ ذلك مكتوباً كتابة لا تمحى، ولم يعرف الأوربّيون إلى الآن سر هذه الصناعة.

وفي أندونيسيا صناعة أخرى، هي هذا الحفر البارع على الفضة، فترى الصواني وأباريق الشاي، وأكوابه، عليها الورود والزخارف العجيبة محفورة، ملونة بلون أسود، وترى الحلية الدقيقة، من الخواتم والعقود والأقراط، التي لا يصنع مثلها غيرهم.

وهذا كله يصنع باليد، بأدوات (إبتدائية) يتوارث ذلك الأبناء عن الآباء، وقد خبرونا أن مقر هؤلاء الصناع، في مقبرة قديمة للأوائل من ملوك متارام، على نحو ثمانية أميال من جوكجا، يعكف كل صانع فيها على سندانه، فلا تسمع إلا طرق المطارق الصغار، على صفائح الفضة.

وإذا كانت صناعة السجاد في إيران، قد آلت إلى البوار، لانصراف الأيدي عنها، فإن هذه الصناعة لا تزال في أندونيسيا رائجة، ولا يزال الإقبال عليها كبيراً.

دقيق جوز الهند:

النارجيل (جوز الهند) من أبرك الشجر على الأندونيسيين، يأكلون ثمره، ويستخرجون دهنه، ويبنون بجذوعه ويتاجرون به، حتى ليعد من أوائل ما يصدر عن بلادهم، ويطحنونه إذا جف، فيتخذون منه دقيقاً.

وفي آذار **١٩٥٣** افتتح أول معمل لهذا الدقيق، في جزيرة سولاويسي (التي كانت تعرف باسم سيلبس)، وهي أحفل منطقة في أندونيسيا بأشجار جوز الهند، وهذا المعمل ملك للدولة، تديره لجنة النارجبيل (جوز الهند) المجفف بإشراف وزارة الإقتصاد، وتشتري هذه اللجنة كل سنة نحو نصف مليون طن من النارجبيل المجفف لجعلها دقيقاً، يصدر أكثره، ويصنع من الباقي الزيت والصابون والسمن.

والمعمل مبني كله بالحديد، لئلا يحترق، يعمل فيه نحو ألف وخمسمئة عامل، ينتج في السنة أكثر من سبعة آلاف طن من الدقيق.

حاصلات الحدائق:

بلغت مساحة الأراضي المزروعة في جاوه ثمانية ملايين هكتار، مليون هكتار ونصف المليون منها، في حدائق المنازل، وتبلغ حاصلات هذه الحدائق من الخضرة ومن الثمار خمس ما تنتج الأرض كلها.

العرب في أندونيسيا:

العرب في أندونيسيا كلهم من حضرموت، والحضارمة اليوم أكثر عرب الجزيرة نشاطاً، وأبعدهم همة، ملؤوا بلاد الشرق الأقصى، فلا ترى بلداً في أندونيسيا وفي الملايو يخلو منهم، وفيهم الوجهاء وفيهم الأغنياء و (كان) فيهم العلماء، كما تجدهم في الحجاز من ملوك المال أو من أرباب المناصب، تعرفهم من أسمائهم، فإن أكثرهم كنى محرفة (بافلان) فمنهم في الحجاز بلخير وبا حارث من أرباب المناصب ومن رجال المال والأعمال بأخشب وباحمدين.

لكن العرب في أندونيسيا أضاعوا كثيراً مما كان لهم في نفوس القوم من التجلة والإكبار، ذلك لأمور: منها هذا الاختلاف (الشنيع) فيما بينهم، فهم سادة (علويون) وغير سادة، وهم أحزاب وجماعات.

ومنها أنهم لم يشاركوا جميعاً في النضال للاستقلال مشاركة فعلية بل كان منهم من عدّ نفسه كالغريب، ووقف ينظر من بعيد.

ولقد حمل ذلك نفراً من شبان العرب (المولودين في أندونيسيا)، على أن عقدوا في ٤ تشرين الأول سنة ١٩٣٤ إجتماعاً في مدينة سمارانغ في جاوة الوسطى، وأعلنوا براءتهم من عمل آبائهم، وخروجهم من اختلافهم، وأنهم لا يعرفون لهم وطناً إلا أندونيسيا.

وكان الداعي إلى ذلك عبدالرحمن باسويدان.

وقد رجّ هذا الاجتماع العرب في أندونيسيا رجة قوية، وحاولوا صرف هؤلاء الشباب عنه، فما أفلحوا، وتكوّن من هذا الاجتماع ما سمي بعد (إتحاد عرب أندونيسيا) وكان من أكبر مقاصده تكوين مجتمع أندونيسي من مختلف العناصر التي تسكن البلاد، على أن يكون برنامجه الإسلام، ثم انضم الإتحاد إلى (ماشومي)، وشارك في الحركات الوطنية العامة، كمؤتمر اللغة الأندونيسية، ولجنة المطالبة بالنظام البرلماني.

ولما عقد الإتحاد مؤتمره الخامس في سنة ١٩٤٠ كانت فروعه قد عمت البلاد.

وقد اختفى اسم هذا الإتحاد اليوم، ولكن أثره لا يزال ظاهراً.

السلطان المجاهد حسن الدين:

قرأت تاريخ الطبري كله غير مرة، وتاريخ ابن الأثير، وابن كثير، والمسعودي وابن خلدون، وتاريخ ابن الجوزي وأبي شامة وذيله، وتاريخ الخلفاء للسيوطي مرات، ونظرت في كتب التراجم فقرأت منها ما لا أحصيه، ثم طالعت رحلة ابن بطوطة، فوجدت فيها دولاً لم أسمع بها ولم أجد لها في كل ما قرأت ذكراً، كالدول الإسلامية التي كانت قصبتها (عاصمتها) بلغار في روسية (وكانت بلغار هذه في موضع ستالنغراد اليوم) والدول الإسلامية في الهند، ولما رحلت هذه الرحلة إذا بي أجد دولاً امتدت حياتها قروناً طوالاً وشمل حكمها بلاداً فساحاً، ولم أسمع لها اسماً من قبل، لا في كتب التاريخ ولا في الرحلات، فعلمت أن تاريخ المسلمين لم يدوّن منه إلى الآن إلا تاريخ الشرق الأدنى. أما تاريخ المسلمين في الشرق الأقصى، وأخبار مسلمي الروسيا والتركستان والهند، والملايا وأندونيسيا، والصين وزنجبار وإفريقية الوسطى، فلم يكتب إلى الآن.

ومن هذه الدول التي لم أكد أعرف عنها شيئاً، أو أدري لها وجوداً ما مرّ بك في فصل (لمحات من تاريخ أندونيسيا)، ومنها هذه الدولة التي كان من ملوكها السلطان المجاهد حسن الدين الذي سماه الهولانديون، لما رأوا من بطولته وعبقريته (بطل الشرق). والفضل ما شهدت به الأعداء.

وخبره أنه كان في جزيرة سولاويسي (سيلبس) من جزر مالوكو (جزائر البهارات) التي وصل إليها الاستعمار الهولاندي دولة إسلامية، كان من سلاطينها السلطان حسن الدين الذي تولى الحكم من سنة ١٦٢٩ إلى سنة ١٦٧٠ م.

ولم تكن له ولاية العهد، ولكن أباه السلطان محمد سعيد (وهو الخامس عشر من سلاطين هذه الدولة) لما رأى نجابته وكفايته فوّض إليه أمور الحكم وسلّمه زمامه، فلما توفي رشحه إخوته جميعاً للملك، ولم ينازعه واحد منهم.

خاض مع الهولانديين معارك طاحنة، كان منها المعركة البحرية الهائلة بين أسطوله والأسطول الهولاندي عند جزيرة بوتون، والتي يفخر الهولانديون بأنهم استطاعوا أن يخرجوا منها بالسلامة، بلا ظفر ولاانهزام.

وهجموا بأسطولهم على حصن له في لاها (في أمبون) فاحتلوه غدراً فكان جوابه أن احتل جزيرة (بوتون).

وتوالت الهزائم عليهم إلى سنة ١٦٥٦ حين استطاع سفير هولاندة (فوق العادة) فن دربيك عقد معاهدة سرعان ما اختلف الفريقان على تفسير موادها فرجعت المعارك.

وبعثت هولاندة بأسطول قوي يزيد على إثنتين وثلاثين سفينة إلى ميناء (مكاسر) ولم يكن فيه إلا ست سفن فأصلوها ناراً حامية، ثم كان الصلح وعقدت معاهدة ١٦٦٠ م.

ولكن الهولنديين نقضوها قبل أن يجف حبرها، فأعلن حسن الدين أن المعاهدة ملغاة وأمر بطرد الهولنديين من بلاده كلها، وأخرجهم جميعاً وسيّر أسطوله (وكان في مئتي سفينة) إلى جزيرة سولا.

فبعث الهولانديون وفداً يعتذر ويطلب العفو. . . وكان معه هدايا بأكثر من مئة ألف ربية، فلم ينخدع السلطان بذلك، وسيّر حملة فيها عشرون ألفاً إلى جزيرة بوتون.

واستمرت الحروب والمعاهدات إلى أن توفي السلطان في ١٢ حزيران

١٦٧٠ م وقد عقدت معاهدة جديدة بين سلطنته وبين الهولنديين المستعمرين.

بونتو مارانو:

ولم يرض قائده بونتو مارانو عن هذه المعاهدة فترك بلده، وركب البحر في عشرين ألفاً من رجاله، على سبعمئة سفينة، فوصل إلى كراسيك (مقر الشيخ) في شرقي جاوة، ثم مشى برجاله إلى غربها، وكان الزعيم ترونا جابا يحارب الهولنديين مجاهداً في سبيل الله، فأعانه ونصره، وكانت ثورة هائلة احتلا بها (ماتارام)، وأبديا فيها من ألوان البطولة ما أدهش العدو والصديق، واستمرت إلى سنة ١٦٧٩ م.

نهاية الجهاد:

وبقيت جزيرة سولاويس (سيلبس) تجاهد الهولنديين إلى سنة ١٩٠٥، في تلك السنة، أي بعد قرنين وربع القرن من موت حسن الدين استطاعت هولاندة إمتلاك الجزيرة، على أن ملكها لم يستسلم إلا في سنة ١٩٠٨.

وجزيرة كالمنتا (بورنيو) لم تستسلم إلا سنة ١٩٠٥ بعد أن توفي ملكها السلطان محمد سيمان.

ومملكة زنكات شرقي سومطرة لم تستسلم إلا سنة ١٨٩٠ بعد وفاة ملكها راجا عبدالله.

ومملكة جمبى لم تستسلم إلا سنة ١٩٠٤ بعد وفاة ملكها السلطان محمد طه.

أما مملكة رياو (في جزيرة رياو وهي إلى الشرق من سومطرة قرب سنغافورة) فقد استسلمت سنة ١٩١١.

ومملكة أتشيه العظيمة ظلت تجاهد إلى سنة ١٩٠٤ إذ اضطر سلطانها توغو[1] محمد دافوت إلى القبول بحماية هولاندة.

وجزيرة بالي الصغيرة لم تستسلم إلا سنة ١٩٠٦.

---

(١) توغو (توانغو) لقب تعظيم.

وجزيرة سوباوا استسلمت سنة ١٩٠٨.

ما في هذه الجزر واحدة إلا وقد ثبتت في وجه الاستعمار مئتي سنة أو أكثر ولولا داء التفرق والإنقسام، ولو أنها كانت دولة واحدة كما أمر الإسلام، تقاتل تحت راية واحدة، لما استطاعت هولاندة ولا غيرها إستعمارها، ولما نالت منها منالاً.

لصوص لا أبطال:

كان في ميناء سورابايا، لما استولى الحلفاء على الميناء، وطردوا اليابان منه مليون ونصف مليون طن من السكر، المعدّ للتصدير، وكان ملكاً للتجار، فسرقه الحلفاء الظافرون...

ساكودانة:

في أندونيسيا دخائن (سكاير) تلف بورق نوع من الموز، يفضل على الورق المعروف ومنها ما يلف بورق نخيل أنيو، وهو نوع من النخل يكثر في الغابات، تتخذ من أليافه الحبال المتينة، ومن أغصانه عصير أنيو الشراب المرطب الذي يصنع من السكر، ويستخرج من لب الأغصان مادة يسمونها (الساكو) وتوضع في الحليب المطبوخ بدلاً من الرز، وهو معروف في دمشق يسمى (ساكودانة) موجود في (البذورية).

سكان جزيرة جاوا:

سكان جاوا الذين يبلغون (بتقدير سنة ١٩٥٠) ثلاثة وخمسين مليوناً، كانوا في سنة ١٨١٥ خمسة ملايين، فصاروا في سنة ١٨٦٠، أحد عشر مليوناً وفي سنة ١٩٠٠ ثمانية وعشرين. وفي سنة ١٩٢٠ أربعة وثلاثين وفي سنة ١٩٤٠ ثمانية وأربعين وهم يزيدون كل سنة (٨٠٠) ألف.

وكانت كثافة السكان فيها في سنة ١٩٣٠ ثمانمئة في كل كيل مربع، بينما كانت في الولايات المتحدة الأميركية (٤٠)، وفي هولاندة (٥٧٨) وفي بلجيكا (٦٧٠) وفي فرنسا (١٩٠) وفي ألمانيا (٣٥٠)، وفي إيطاليا (٣٤٠)، وفي

اليابان (٤٢٥)، وفي الصين (١٤٠) وفي الأرجنتين (١٠) وفي بقية الجزر الأندونيسية (٧١).

خطبة للرئيس سوكارنو:

في أوائل ديسمبر ١٩٥٣ احتفل بجاكرتا بافتتاح مؤتمر جمعية القراء والحفاظ وهي أول جمعية أسست في أندونيسيا لترغيب أبناء البلاد كبارهم وصغارهم رجالهم ونسائهم في إتقان تلاوة الكتاب العزيز وحفظه عن ظهر قلب.

وفي مقدمة الكبراء والوزراء الذين حضروا تلك الحفلة فخامة الرئيس سوكارنو وقد ألقى خطبة قال فيها[1]:

لقد انتهزت مدة إقامتي في سجن «سوكامسكين» بضاحية باندونج لمعرفة أكثر ما يمكن من تعاليم الإسلام لأني لم أكن مقتنعاً بالإسلام الذي أعتنقه بحكم البيئة التي عشت فيها، فقد كان أبي مسلماً، فاعتنقت دين أبي. لقد كنت أتشوق إلى معرفة هذا الدين حق المعرفة، والاستمساك به عن إيمان ويقين. ولم أكن أعرف اللغة العربية فقرأت ترجمة القرآن الكريم بالإنكليزية ثم ترجمته بالأندونيسية، ثم بالألمانية، ثم باللغة الفرنسية، وكنت أشعر حين انتقالي من ترجمة إلى أخرى كأني اقتربت شيئاً فشيئاً من معاني الآيات القرآنية، غير أنني أعلم أن التعبير العربي في القرآن الكريم أصح في الدلالة على معانيه ومدلولاته. وحمدت الله سبحانه وتعالى لما استطعت إتمام مطالعتي الآيات القرآنية إلى آخرها وفهم كل ما يحويه قرآننا العظيم واستأنفت دراسة القرآن والمؤلفات الإسلامية في منفى بمنطقة (فلوريس) رمت بي إليه السلطات الإستعمارية الهولندية، وقد شعرت هناك وأنا وحيد أن لي حامياً يحميني من شر الاستعمار الغاشم، وأن ذلك الحامي هو (ربي الله سبحانه وتعالى). ثم نفيت للمرة الثانية إلى (بنكاهولو) بسومطرا الجنوبية حيث وجدت مجتمعاً إسلامياً، فشاركت أعضاء الجمعية المحمدية في الدعوة الإسلامية، وأسندت

---

(١) وهي مترجمة إلى العربية بقلم محرر مجلة الشؤون الأندونيسية.

الجمعية إليَّ وظيفة الإشراف على مدارسها في تلك المنطقة (وبعد سرد تلك الناحية الإجتماعية من تاريخ حياته ناشد فخامته الأمة الإسلامية أن تدع الأسباب التافهة التي تفرق شمل المسلمين بهذه البلاد) فقال: إن السبب في انهيار أركان الدول الإسلامية هو انصراف المسلمين عن جوهر دينهم وتمسكهم بصغائر الأمور وفروع المسائل. وإنني أدعوكم إذ تقومون بترغيب أبناء البلاد في تلاوة القرآن بالتجويد وحفظه عن ظهر قلب ـ أدعوكم إلى إثارة الروح الإسلامية في نفوس الأمة وإلى استخراج الشعلة من هذا القرآن الذي هو بأيدينا الآن. إن المسلمين يختلفون من أجل أمور في غاية التفاهة إننا إذا أردنا أن نخطب نستطيع الخطابة ولو بدون منبر. وإذا أردنا الصلاة فلماذا تتنازع في أمر السجادة والصلاة يمكن أداؤها بدون سجادة. إننا مكلفون بإيقاد شعلة تكاد تخمد واقتباسها من قرآننا الكريم. إننا مكلفون بإيقاظ الروح الإسلامية العظيمة بدون أن نتشبث بأمور تافهة تسبب الإختلاف بيننا.

القرآن هو النور:

جرت العادة ـ منذ أن تسلمت الجمهورية الأندونيسية سيادة البلاد وقيادتها، بأن تقام بقصر الرئاسة في العاصمة، في كل ليلة ١٧ رمضان حفلة ذكرى نزول القرآن الكريم.

وقد شاهدت ليلة ١٧ رمضان سنة **١٣٧٣** حفلة رائعة حضرها الجم الغفير من المسلمين، بينهم الوزراء وممثلو الدول الإسلامية، وكبار الموظفين المدنيين. افتتحت بآيات من الذكر الحكيم، وختمها فخامة الرئيس سوكارنو بخطاب كان له أعظم الوقع في النفوس ومما قاله:

«إن القرآن هو النور الذي أضاء العالم، وشتت شمل الجهل، فلو لم ينزل هذا القرآن لما انقشعت الظلمة عن العالم الفكري، ولو لم ينزل لكنا إلى اليوم عباد التماثيل، أو عباد القوى الثلاث. ولكن هذا الكتاب أنقذنا من عبادة مئات التماثيل، ونجانا من الخضوع للقوى الثلاث التي جاءتنا من الهندوسية وعصمنا من الاعتقاد بأن لله ولداً سبحانه.

أصبح الغرب يرقى في مراقي المدينة رافعاً شعلة العلوم، وقد كان في القرون الوسطى بعيداً عن العلم ومراقيه، متخبطاً في ظلمات الجهالة، غارقاً في بحار من الهمجية. ولكن القرآن بعث بشعاعه إلى الكون فأزال الحلك، وبدد شمل الجهل. واستضاء الغرب بقبس هذا الدين. ولكنا ـ والمصحف بين أيدينا ـ قد جانبنا تعاليمه، وأهملنا أمره، ولم نتبع ما جاء فيه».

الوعد بالنصر:

وفي خطبة له:

إن الله وعد محمداً ﷺ أحب الخلق إليه بالنصر المبين، ولكن الرسول مع ذلك لم يقعد عن العمل ولم يتكل على هذا الوعد بدون أن يسلك طريقه، بل جاهد وناضل، وقاوم وقاتل، وعمل وجدّ حتى تحقق وعد الله له.

فكيف بنا ـ ونحن أتباعه ـ نريد استقلالاً تاماً وحرية كاملة، ونتمنى أن تعود إلينا (أيريان) التي ترزح تحت الاستعمار، ولا نعمل ولا نبذل الجهود، مع أننا لم نلق من المولى وعداً مباشراً بالنصر والفوز في قضية إيريان...

خطاب الرئيس سوكارنو في مصر:

استهل الرئيس سوكارنو خطبته الجامعة بقوله:

«طالما اشتاقت نفسي إلى زيارة مصر، فإن الكثرة من شعب مصر تدين بالإسلام، وبه تدين الكثرة من شعب أندونيسيا، فنحن في الإسلام إخوان. وفضلاً عن تلك الروابط الوثيقة، روابط الدين الواحد، فإني أذكر بالعرفان بالجميل، والإخلاص الحار، معاهدة الاعتراف والصداقة، تلك التي عقدت بين ممثلي أندونيسيا ومصر في فجر ثورتنا القومية، وقد تمت هذه المعاهدة في لحظة من تاريخ دولتنا كنا فيها نذرع العالم بحثاً عن الأصدقاء، وكنا لا ندري كيف يكون استقبالنا في عالم مكدود مزقته الحرب، تمت المعاهدة حين كنا نواجه العدو في ميدان القتال، وحين كان وجودنا كدولة أمراً تكتنفه الشكوك».

حضرنا حفلة ١٧ رمضان لما كنا هناك (في مايس ١٩٥٤) وكانت خطبة الدكتور محمد حتا نائب رئيس جمهورية أندونيسيا خاتمة الخطب التي ألقيت فيها وكان مما قاله[١]:

«إن من أسباب تأخر المسلمين هو ابتعادهم عن التمسك بكتابهم وعدم إخلاصهم لدينهم، ولو اتبعوا تعاليم القرآن، وأخلصوا للدين لما عانوا من التأخر ما عانوه.

إن القرآن المجيد قد اشتمل على أصول عالية، وتعاليم سامية، في الأخلاق والمعاملات، وما يجب على المرء لأمته، وما يلزمه من حقوق المجتمع قبل أن توجد تعاليم الإشتراكية الحديثة التي يكبرها الناس ويرفعون من شأنها في هذا العصر بقرون وقرون.

إننا لا نحتاج معها إلى مذاهب تأتينا من الغرب، فلدينا كتاب الله فيه الغنية. ولكن المسلمين نسوا أحكامه وأعرضوا عنها، فاندحروا وتقهقروا، وسلط عليهم الله الاستعباد والاستعمار الأجنبي.

لقد تأخر المسلمون عندما تكالب أفرادهم على المناصب وتهافتوا على حياة الترف والبلهنية، وتركوا عامة المسلمين بدون راع يهتم بأمرهم.

لقد بلغ المسلمون في عصورهم الماضية أوج المجد، ونالوا الثريا بأكفهم، عندما كان القرآن لهم إماماً وفرقاناً، فقاموا يناضلون عن الحق، ويرعون العدالة.

وما دام هذا الكتاب بين الأيدي، فإن الأمل ما زال يلمع نجمه ليستعيد المسلمون ماضيهم المشرق.

ثم ختم خطبته بقوله:

ادعوا إلى دين ربكم باللطف والحسنى، وعودوا إلى تعاليمه في

---

(١) والنص منقول عن مجلة الشؤون الأندونيسية التي تصدرها الحكومة وإنما صححت ألفاظه فقط.

معاملاتكم، واحموا العدالة، ودافعوا عن الحق، واحترموا قداسة الدين، مهما ثقل ذلك على النفس. وليسأل كل امرىء منا نفسه كل يوم: هل أدى حق الله عليه، واتبع كتابه، فأحل حلاله، وحرم حرامه، وائتمر بأمره، وانتهى بنهيه؟

لجنة فلسطين

كـان معنـا في المؤتمر وفـد أنـدونيسي فيـه من كبـار رجـالهم، منهم سراج الدين عباس رئيس حزب التربية الإسلامية، وسوبارجو وزير الخارجية السـابق ومستشار الـوزارة الآن، فلما قدمنـا أندونيسيـا كان عملنـا الأول، الإتصال بهم، والوصول عن طريقهم إلى الرئيس ونائبه والوزراء ثم اتصلنا برجـال الأحزاب ووجوه الناس، وعقدنا المؤتمرات الصحفية شرحنا فيها قضية فلســطين، فنشرت أخبــار القضيــة في الصفحــات الأولى من الصحـف الأندونيسية، وألقينا سلاسل من المحاضرات وأقيمت لنا عشرات من الولائم والحفلات، منها حفلة وزارة الخارجية، وحفلة وزارة الشؤون الدينية، وأعدت لنا رحلة رسمية إلى جاوا الوسطى وجاوا الشرقية.

وكانت ثمرة مسعانا أن الحكومة الأندونيسية كـانت على وشـك عقد المؤتمر الإقتصادي، وكان من أعضائه مندوب إسرائيل، فعملنا على منع هذا المؤتمر، فاستجابت الحكومة ومنعته.

وكانت الثمرة الثانية أن استطعنا جمع الجبهتين الإسلاميتين في أندونيسيا ماشومي، ومسلم ليـك، فحضر رئيساهمـا الاجتماع الكبـير، الذي عقـدناه وتعانقا أمام الآلاف المؤلفة من الحاضرين، وتألفت لجنة مساعدة فلسطين من خمسة عشر عضواً، برياسة محمد ناصر رئيس ماشـومي، وكان نائب الرئيس كياي دحلان رئيس أحزاب الجامعة الإسلامية (مسلم ليك) والنـائب الثاني علي يحيى من العرب، والأمين العام زين العارفين من الوزراء السابقين من ماشومي، وأمين الصندوق علي سنكر من العرب، والمستشار الأول سوبارجو

وكيـل الخـارجيـة، والمستشـار الثـاني سراج الـدين عبـاس رئيـس الـتربيـة الإسلامية.

وكان أكبر الفضل في نجاح مسعانا للرجل الكبير الأستـاذ العمروسي سفير مصر (يومئذ) ثم للقائم بأعمال المفوضية السعودية الأستاذ الكتبي.

وقد أذعنا يوم سفرنا هذا البيان:

لا يسعنا ونحن نفارق هذا البلد الحر، وهذا الشعب المجاهد، إلا أن نشكر للأمة الأندونيسية ما لقينا منها من صدق الإيمان، والحـماسة للحق، والعطف على قضية فلسطين، ونشكـر للحكومـة الأندونيسيـة ما أولتنـا من الرعاية ومن الإكرام، وما منت به من كرم الضيافة ونشكر لها قبل ذلك أنها منعت عقـد المؤتمر الإقتصـادي الذي كـان من أعضائـه مندوب إسرائيـل، ونخص بالشكر معالي وزير الخارجية ووزير الشؤون الدينية، ومعالي الدكتور سوبارجو وسمو سلطان جوكجا، وسعادة والي سورابايا وسعـادة سفير مصر الذي أولانا من المعونة البالغة ما لا ننساه، وسعادة القائم بأعمال المفوضية السعودية، والأستاذ محمد نـاصر والأستاذ دحـلان، وهؤلاء الشبان الأطهـار المؤمنين المتحمسين الذين يعتز بأمثالهم كـل بلد ماجـد، الذين لقينـاهم في جاكرتا وجوكجا وسورابايا ومالان وكراشّه.

يا أهل أندونيسيا، يا أيها الأعزة المجاهدون الذين انتزعوا استقلالهم، بصدق اعتمادهم على ربهم، ثم بقوة سواعدهم، وماضي سلاحهم.

إن أندونيسيا هي الدولة الإسلامية الكـبرى وإن قضية فلسـطين هي اليوم قضية الإسلام الكبرى، وإن من حقها عليكم، أن تكون أكبر همكم، وأن تولوهـا عظيم رعايتكم، وإن مهمتنا أن نبلغكم وقد بلغناكم وتركناكم لضمائركم وإيمانكم.

إننا في هذه القضية مثلكم، لسنا من فلسطين ولستم منها أنتم، ولكن دفعنا الواجب الديني، وهو واجبنا وواجبكم، والأقصى مسجدنا ومسجدكم، وشرف الإسلام شرفنا وشرفكم.

إن المسجد الأقصى القبلة الأولى التي صلّى إليها نبيكم محمد هو في خطر، وإن اليهود يطمعون فيه، وخاب اليهود، وإن هذا المؤتمر الإسلامي، إنما انعقد وألف مكتبه، وأوفد وفوده، ليفهم المسلمين في أرجاء الأرض كلها أن قضية فلسطين قضية المسلمين جميعاً ليس العرب أحق بها من العجم، ولا القريب أولى بها من البعيد.

وإننا إذ نودعكم، واثقين من إيمانكم، ومن بذلكم ومن نصركم، نكرر الشكر لكم حكومة وشعباً وأفراداً وجماعات، ونذكركم بأن فلسطين تستصرخكم تدعوكم باسم الحق الذي سلب، باسم المساجد التي دنست، باسم الأعراض التي انتهكت، باسم البلاد التي دمرت، باسم المسجد الأقصى، باسم الشرف، باسم الإسلام.

فلبوا الدعوة، والتفوا حول اللجنة التي ألفت في جاكرتا، وانصروا الله في فلسطين ينصركم دائماً والسلام عليكم.

الوفد الفلسطيني إلى الشرق يغادر أندونيسيا:

وقد نشرت الصحف كلها الخبر الآتي:

يسافر اليوم ١٩٥٤/٦/٦ وفد المؤتمر الإسلامي المؤلف من الأستاذين أمجد الزهاوي رئيس المؤتمر ورئيس جمعية إنقاذ فلسطين العراقية. وعلي الطنطاوي عضو محكمة النقض السورية ورئيس لجنة الدعاية في المؤتمر بعد أن طافا في أرجاء أندونيسيا وخطبا في كل مدن جاوا وشرحا قضية فلسطين بوضعها الحاضر، وسعيا لتأليف لجنة دائمة لمساعدة فلسطين.

وقد ألفت لجنة مركزية في جاكرتا من ممثلي الأحزاب جميعها، بإشراف الحكومة وتشجيعها، وستؤلف فروعاً لها في جميع المناطق.

وقد بعث الوفد إلينا يشكر الحكومة الأندونيسية على الرعاية التي لم يلق مثلها في أي بلد إسلامي فقد اعتبرت الوفد ضيفاً على الحكومة وخصصت له سيارة ومرافقين من وزارة الخارجية ووزارة الشؤون الدينية، وإنه سيحفظ لهذه الزيارة أطيب الذكرى.

ويشكر موقفها المشرف في منع عقد المؤتمر الإشتراكي الآسيوي الذي كان يراد إشراك ممثلين فيه عن إسرائيل، وهو يشكر المعونة الكبرى التي لقيها من سعادة سفير مصر الأستاذ العمروسي ومن القائم بأعمال المفوضية السعودية عزت الكتبي.

وهو يخص بالشكر الدكتور أحمد سوبارجو والأستاذ محمد ناصر والكياي دحلان والشباب الطيبين المخلصين الذين رافقوه ومهدوا له العمل على تحقيق مهمته في جاكرتا وجوكجا وسورابايا ومالانغ وقرسيك، ويشكر لهذا الشعب الحي المجاهد إيمانه وحماسته واهتمامه البالغ بقضية فلسطين، ويرجو لأندونيسيا اطراد التقدم والعلاء وتمام المحبة والرفاهية والسعادة.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الأولى	٥
مقدمة الطبعة الثانية	٩
أعود	١٣
من عمان إلى بغداد	١٨
من بغداد إلى جاكرتا	٢٥
في الملايا	٣١
رفيقي في الرحلة	٤٣
في جاكرتا	٥١
صور من الطريق	٧٤
مشكلة الكلام	٧٧
بوغور	٨٣
يوم في الجنة	٩١
في جوكجا	٩٧
إسلام أندونيسيا	١٠٥
الحركة الإسلامية في أندونيسيا	١١٧
استقلال أندونيسيا	١٢٣
لمحات من تاريخ الدين والوطنية	١٣١
أندونيسيا كما رآها ابن بطوطة	١٥٨

الموضوع	الصفحة
سورابايا	١٦١
هذا النداء	١٦٥
كاراسيك	١٦٧
نزهة في أطراف سورابايا	١٦٩
نثار من المشاهدات والأخبار	١٧٥
لجنة فلسطين	١٩٥
الفهرس	١٩٩



تطلب منشوراتنا من

مكتبة المنارة

مكة المكرمة - العزيزية - مدخل جامعة أم القرى
هاتف: ٥٥٦٦٣٧٥ - ص ب: ٢٦٥٣

دار المنارة

للنشر والتوزيع

جدة: ٢١٤٣١ - ص ب: ١٢٥٠
هاتف: ٦٦٠٣٢٣٨ - السعودية